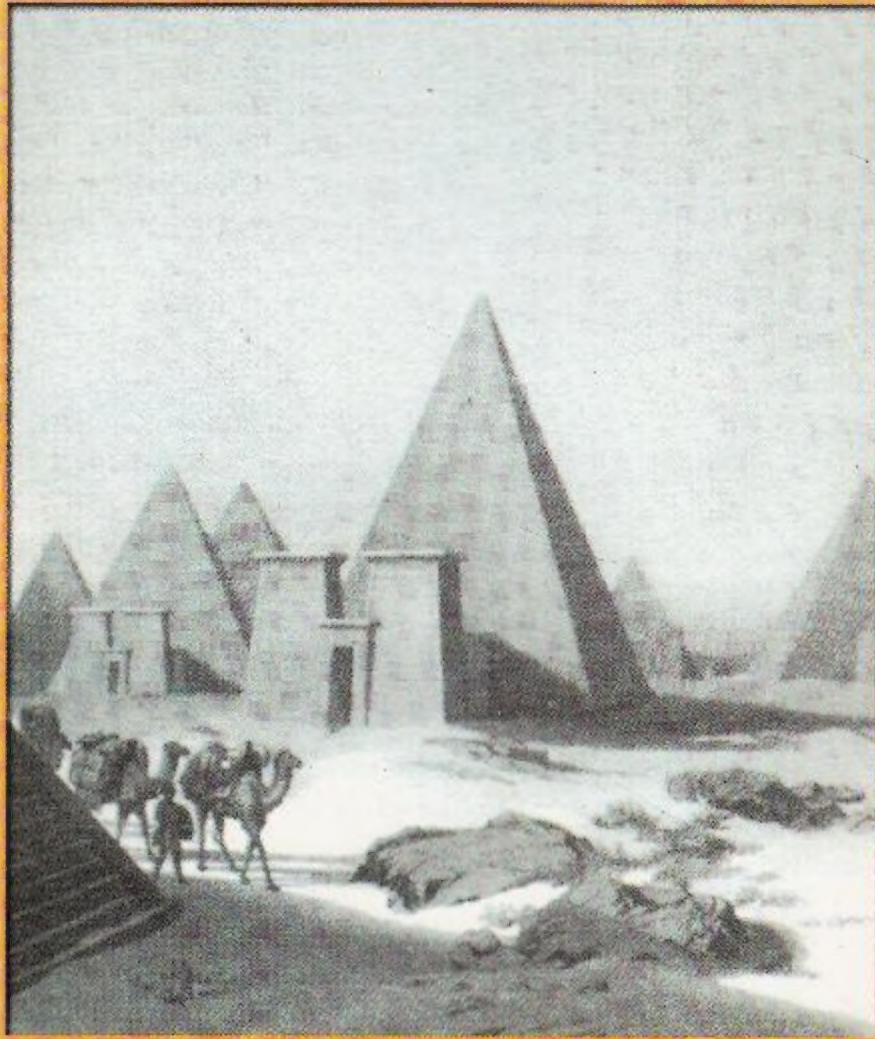


بابلو دى جيفنوا  
رحلة إلى السودان



ترجمة  
أ.د. علي المنوفي



2010  
الدار العربية للنشر والتوزيع  
الطبعة الأولى



بابلودي جيفنوا  
رحلة إلى السودان





بابل و دني جيفنوا

# رحلة إلى السودان

ترجمة

علي المنوفي

2010



الدار العربية للنشر والتوزيع  
الطبعة الأولى

حقوق النشر

## رحلة إلى السودان

رقم الإيداع: 2009 / 17776

I.S.B.N.: 977-258-373-9

حقوق النشر محفوظة

لدار العربية للنشر والتوزيع

32 شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: 22753335 فاكس: 22753388

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي وجه، أو بأي طريقة، سواء أكانت إلكترونية، أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو بخلاف ذلك إلا بموافقة الناشر على هذا كتابة، ومقدمًا.

## مقدمة الناشر

يتزايد الاهتمام باللغة العربية في بلادنا يوماً بعد يوم. ولا شك أنه في العقد القريب ستستعيد اللغة العربية هيبتها التي طالما اشتهت وأذلت من أبنائها وغير أبنائها. ولا ريب في أن امتحان لغة أية أمة من الأمم هو إدلال ثقافي فكري للأمة نفسها؛ الأمر الذي يتطلب تضافر جهود أبناء الأمة رجالاً ونساءً، طلاباً وطالبات، علماء ومثقفين، مفكرين وسياسيين في سبيل جعل لغة العروبة تحتل مكانتها اللائقة التي اعترف المجتمع الدولي بها لغة عمل في منظمة الأمم المتحدة ومؤسساتها في أنحاء العالم، لأنها لغة أمة ذات حضارة عريقة استوعبت - فيما مضى - علوم الأمم الأخرى، وصهرتها في بوتقتها اللغوية والفكرية. فكانت لغة العلوم والأدب، ولغة الفكر والكتابة والمخاطبة.

إن الفضل في التقدم العلمي الذي تنعم به أوروبا اليوم يرجع في واقع الحال إلى النضحية العلمية في الترجمة التي عاشتها في القرون الوسطى. فقد كان المرجع الوحيد للعلوم الطبية والعلمية والاجتماعية هو الكتب المترجمة عن اللغة العربية لابن سينا وابن الهيثم والفارابي وابن خلدون وغيرهم من عمالقة العرب. ولم ينكر الأوروبيون ذلك؛ بل يسجل تاريخهم ما ترجموه عن حضارة الفارسية والعربية والإفريقي. وهذا يشهد بأن اللغة العربية كانت مطوعة للعلم والتدريس والتأليف. وأنها قادرة على التعبير عن متطلبات الحياة وما يستجد من علوم، وأن غيرها ليس بأدق منها، ولا أقدر على التعبير.

ولكن ما أصاب الأمة من مصائب وجمود بدأ مع عصر الاستعمار التركي. ثم البريطاني والفرنسي، عاق اللغة عن النمو والتطور. وأبعدها عن العلم والحضارة. ولكن عندما أحس العرب بأن حياتهم لا بد من أن تتغير، وأن جمودهم لا بد أن تدب فيه الحياة، اندفع الرواد من اللغويين والأدباء، والعلماء في إنماء اللغة وتطويرها، حتى أن مدرسة قصر العيني في القاهرة، والجامعة الأمريكية في بيروت درست الطب بالعربية أول إنشائها. ولو تصفحنا الكتب التي ألغت أو تُرجمت يوم كان الطب يدرس فيهما باللغة العربية لوجدناها كتباً ممتازة لا تقل جودة عن مثيلاتها من كتب الغرب في ذلك الحين. سواء في الطب، أو حسن التعبير، أو براعة الإيضاح. ولكن هذين المعهدين تنكرا للغة العربية فيما بعد. وسادت لغة المستعمر، وفرضت على أبناء الأمة فرضاً، إذ رأى المستعمر في خنق اللغة العربية مجالاً لعرقلة الأمة العربية.

وبالرغم من المقاومة العنيفة التي قابلها، إلا أنه كان بين المواطنين صنائع سبقوا الأجانب فيما يتطلع إليه. فتقنوا في أساليب التملق له اكتساباً لرضائه، ورجال نأثروا بحملات المستعمر الظالمة، يشككون في قدرة اللغة على استيعاب الحضارة الجديدة، وغاب عنهم ما قاله الحاكم الفرنسي لجيشه الزاحف إلى الجزائر: "علموا لغتنا ونشروها حتى نحكم الجزائر، فإذا حكمت لغتنا الجزائر. فقد حكمتها حقيقة".

فهو لى أن أوجه نداءً إلى جميع حكومات الدول العربية بأن تباشر - فى أسرع وقت ممكن - إلى اتخاذ التدابير. والوسائل الكفيلة باستعمال اللغة العربية لغة تدريس فى جميع مراحل التعليم العام، والمهني، والجامعى. مع العناية الكافية باللغات الأجنبية فى مختلف مراحل التعليم لتكون وسيلة الإطلاع على تطور العلم والثقافة والانفتاح على العالم. وكلنا ثقة من إيمان العلماء والأساتذة بالتعريب، نظرًا لأن استعمال اللغة القومية فى التدريس ييسر على الطالب سرعة الفهم دون عائق لغوى، وبذلك تزداد حصيلته الدراسية، ويرتفع بمستواه العلمى، وذلك يعتبر تأصيلًا للفكر العلمى فى البلاد، وتمكينًا للغة القومية من الازدهار والقيام بدورها فى التعبير عن حاجات المجتمع، وألفاظ ومصطلحات الحضارة والعلوم.

ولا يغيب عن حكومتنا العربية أن حركة التعريب تسير متباطئة، أو تكاد تتوقف، بل تحارب أحيانًا ممن يشغلون بعض الوظائف القيادية فى ملك التعليم والجامعات. ممن ترك الإستعمار فى نفوسهم عقدًا وأمراضًا، رغم أنهم يعلمون أن جامعات إسرائيل قد ترجمت العلوم إلى اللغة العبرية، وعدد من يتخاطب بها فى العالم لا يزيد عن خمسة عشر مليون يهوديًا، كما أنه من خلال زياراتى لبعض الدول وإطلاعى وجدت كل أمة من الأمم تدرس بلغتها القومية مختلف فروع العلوم والآدب والتقنية، كاليابان، وإسبانيا، وألمانيا: ودول أمريكا اللاتينية، ولم تشكل أمة من هذه الأمم فى قدرة لغتها على تغطية العلوم الحديثة. فهل أمة العرب أقل شأنًا من غيرها؟!.

وأخيرًا .. وتمشيًا مع أهداف الدار العربية للنشر والتوزيع، وتحقيقًا لأغراضها فى تدعيم الإنتاج العلمى. وتشجيع العلماء والباحثين فى إعادة مناهج التفكير العلمى وطرائقه إلى رحاب لغتنا الشريفة. تقوم الدار بنشر هذا الكتاب المتميز الذى يعتبر واحدًا من ضمن ما نشرته - وستقوم بنشره - الدار من الكتب العربية التى قام بتأليفها أو ترجمتها نخبة ممتازة من أساتذة الجامعات المصرية والعربية المختلفة.

وبهذا .. ننفذ عهدًا قطعناه على الماضى قديمًا فيما أردناه من خدمة لغة الوحى. وفيما أرداه الله تعالى لنا من جهاد فيها.

وقد صدق الله العظيم حينما قال فى كتابه الكريم: ﴿ وَقُلْ اَعْمَلُوا فَمَنْ سَبَّحَ اللَّهَ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسُرَدُّونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

محمد أحمد دريس

الدار العربية للنشر والتوزيع

## تصدير

كان الترحال من أجل المعرفة والرؤية البصرية المباشرة أمراً من الأمور التى يحتل بها محبو العلم والمعرفة فى كل زمان ومكان، والغرض من هذه المعرفة أن يبين المرء أكثر قرباً من بنى جلدته من بنى الإنسان مع اختلاف الألوان والأجناس والعقائد والظروف، فليس هو وحده الأكثر تقدماً على غيره بل لكل مجموعة بشرية منظومتها التى تواجه بها الحياة فى منطقة جغرافية تعيش فيها.

لسنا بحاجة إلى التفكير فى نماذج مثل رحلات بن بطوطة وحول العالم التى قام بها أكيص منصور فى أيامنا هذه وبين هذه وتلك الآف من التجارب الإنسانية التى أضيفت إليها أبعاد أخرى تجاوزت الكرة الأرضية محاولة التعرف من خلال التقنيات الحديثة على ما فى الكون، وما فى كوكبنا، وأطلقنا عليها خطاً غزو الفضاء إذ أعطيناها المسمى العسكرى الذى يقلل أفضل ما فيها من أبعاد إنسانية تحول معرفة ما يحيط بهذا الكوكب الذى يعيش عليه والمؤثرات التى أتته من الخارج وكذا البحث عن كائنات أخرى تسكن كواكب أخرى ربما تشاركنا التجربة الحياتية نفسها.

على أرض الوطن، وعلى أرض هبة النيل، واهبة حضارة إنسانية رفيعة نمت على ضفاف النيل، وجعلت منه وسيلة للمعرفة، شهدنا الكثير من الرحلات وجاب النيل الكثير من الرحالة الذين أسهمت أعمالهم، أى رحلاتهم فى زيادة معرفتنا بالنيل وأهله ومملكة النباتات والحيوان فيه وربما استغل البعض ما تمخض عن هذه الرحلات استغلالاً سيئاً من موجات استعمارية ونهب لثروات الشعوب ... إلخ، إلا أن معرفة الآخر عن قرب لازالت هى الهدف الأسمى لمثل هذه الرحلات.

قصة الرحلة التى بين أيدينا تنطلق من القاهرة المعاصرة لتغوص فى أعماق تاريخ مصر القديمة وجذوره التى تغوص فى أعماق السودان وتحدثنا عن نوبيين مصريين وسودانيين وعن ثقافة تحدثنا عنها الكثير من الأبحاث العلمية الدقيقة بأنها كانت التينة الأولى فى سطوع نجم الحضارة المصرية القديمة التى ينظر إليها على أنها شجرة سلمة تضرب بجذورها فى أفريقيا السوداء.

كاتبنا هو باحث أمباني وديبلوماسي لا زال يعمل فى سسلك وزارة الخارجية  
الاسبانية غير انه شغف حبا بالبحث والتصوير والترحال فى مناطق مختلفة وعاش  
لفترات طويلة فى كل من القاهرة (محطة مهمة من محطات الثقافة الإسلامية  
والقبطية) والإسكندرية (العاصمة الثقافية للبحر المتوسط على مدى قرون عديدة)  
وأثينا (عاصمة ميلاد الثقافة اليونانية ودورها فى الحضارة الإنسانية الحديثة) أو  
جنوب أفريقيا (ذلك البلد الأفريقى الذى يشكل أحد وجهى العملة الثقافية الأفريقية).

أهتم كاتبنا بوادى النيل وعصر ما قبل التاريخ والعصور التالية له، وألقى  
محاضراته ونشر بعض أبحاثه فى الكثير من الدوريات.

هو اليوم يقدم لنا فى صفحات هذا الكتاب لمسات إنسانية نرى من خلالها كيف  
يرانا الآخر ونحن فى بداية القرن الحادى والعشرين ، ويعرف من أسلوبه كيف هى  
ملامحه وخلجاته النفسية والفكرية.

جاء الكتاب فى لغة تنعم بالتشويق وجمال العبارة التى نقتنقها فى أيامنا هذه  
حيث توارى دور الشعر وتقدمت اللغة الوظيفية لتحل محل اللغة الإبداعية.

أدعو القارئ العزيز مرافقة كتيب هذه الرحلة الممتعة من خلال ما سطره.

وأخيراً أهدى هذا الجهد المتواضع لزوجتى نادية وأبنائى سمر وكريم وإلى  
الصديق الصدوق الذى تعلمت معه الكثير محمد الحسانين وزوجته الكريم ماري  
سيل.

**د. على النوفى**



طلب مني والدادي أن أقص عليهما أحداث الرحلة، فكان هذا الكتاب، وإليهما  
أهديه، وكذا نرافق الطريق ولأسرتي وأصدقائي وصديقاتي وإلى كل هؤلاء القراء  
الذين يشاركوني هذه التجربة المثيرة.

كيب تاون 2004/1/14



## المحتويات

الصفحة	الموضوع
15	التوبة
22	والدي حلفاً
53	بطن الحجر
61	دقيقة
95	كرمة
105	الخرطوم
118	شندي
134	عطيرة
156	أبو حامد
176	بحيرة ناصر
182	معجم
193	موجز تاريخي
203	الميتولوجيا









## رحلة إلى السودان

كانت العبودان تتراعى أمامي كفكرة، وأذهب إلى ما هو أبعد من هذا إلى القول بأنها كانت كحلم؛ كان لكل واحد من ثلاثتنا حلمه الذي يختلف عن الآخر؛ واصلنا كل في طريقه، وفجأة، وبدون مقدمات أو حتى تردد، قررنا القيام برحلة، وكان الارتجال هو سيد الموقف؛ فالحرب في جنوب السودان كانت على وشك الانتهاء وكان شماله - النوبة العليا - مفتوحاً، فهناك للممالك الأفريقية القديمة. الحفوية هي الملمح الجوهري في الخطوة الأولى، وكأننا مجتوبون بمخاطيس أو طعم يقودنا إلى مكان سرّي وأسطوري، كانت الرحلة مليئة بالمفاجآت والتعقيدات.

حدد بير ، رسام وشاعر من جزر البليار، الهدف والغاية، فبعد معرض عن الثقافة السودانية أكد، ونبرة الحماس تسيطر على صوته، أنه يريد أن يرى هذه المشاهد والكنوز، وهنا لم أستغرق ثانية في قراري بالانضمام إلى رحلة كانت تكور بخدي منذ زمن بعيد وتطوف بأرجاء الحلم منذ أن عثرت على لوحة ترجع إلى القرن التاسع عشر، أتت عليها عوامل الزمن، تظهر فيها أهرامات مروي في الصحراء. وسرعان ما طرحنا الفكرة على صديقنا يحيى ذلك النوبي المصري ذي البشرة السمراء، والفيلسوف على طريقته، فكان رده إيجابياً دون تردد. هو أيضاً حالم، بتلك النوبة التي يرجع تاريخها إلى آلاف السنين، وحالم بالنيل وبقييلته التي توزع أفرادها بين السودان ومصر طبقاً لتقلبات قدهور والأزمان.

وذاث ليلة، بينما كنا نقوم بالإعداد للرحلة، كتبت لوالدي اللذين كان يريدان أن يتابعوا، من مدريد، ما أقوم به من خلال المخططات والخرائط، فقلت "أقوم الآن بالإعداد للرحلة إلى السودان رويدا رويدا، وأقوم بذلك مترسماً خطوات هؤلاء الرحالة الرومانسيين خلال القرن التاسع عشر. لدى بعض اللوحات القديمة التي أرى فيها أهرامات مروي وسط الصحراء وأظن أنها ستكون كما

لتُخيل، أي يلفها ذلك الجو الأسطوري الذي لا يفصح عن زمن بعينه وذهب بعقول الكثير من الرحالة. فأن يدخل المرء إلى بلاد السودان، بلد البشرات للسوداء، هو بمثابة الدخول إلى أرض تقع خارج نطاق الزمن، لكن النوبة التي أعرضها وموسيقاها ورقصاتها التي أدبها والجلابيب أو اللقمصان الطويلة البيضاء والشيلان الكبيرة التي يضعها الجمالة فوق رؤوسهم، كلها سوف تكشف عن لمحة من الماضي لم نرها قبل ذلك لكنها ظلت هناك متوارية.

سوف ندخل إلى السودان من جنوب مصر - وادي حلفا - ثم نمر بجنادل النيل ونطوف بأرجاء مملكة نباتة ومروى من خلال المشاهد اللانهائية، وسوف نزور جبل البرقل المقدس لنتضرع لآمون حتي يجعل عودنا حميداً، وسنعبّر النيل على متن قارب لنصل إلى بلدة نوري، ونمشي من الشاطئ صوب أطلال بعض الأهرامات؛ وقوق كل هذا سوف نحس لتأمل الأمسيات الذهبية على صفحة المياه ونتقاسم أول لقمة في اليوم، "إفطار رمضان"، مع الفلاحين الذين بصافوننا فنحن سنكون في شهر رمضان وسنصوم معهم.

سوف يجلب صوت المؤذن بنبراته الحزينة في قلب النوبة، ثم تأخذ أيدينا الأممك المشوية والأرز الذي يقدمه لنا ونحن جالسون على الأرض. وسوف نضيء الأنجم ليلنا ونحن نتسامر جالسين على الرمال تصاحبنا أكواب للشاي والدارجيلة المحشوة، وسوف نتأمل كتلة النهر المحتمة، وسوف يتبدى لنا صمت الصحراء الأبدي كأنه غطاء أسطوري؛ وكثيراً ما طفت بقلمي هذا القطاع من النهر، أفتقي خطوات الأجداد، وكثيراً ما عشت الليالي الطوال التي لا تنقضي في النوبة، حيث يبدو أنني كنت هناك.

'ماندا لاي' قسطنطينا، كيب تاون 2003/10/28

إن كنت أسير إثر حلم مستحيل أكاد أدرك كنهه ولكن بطريقة غامضة، إنه ضجيج صوب مروى، تلك المملكة الأسطورية على النيل، المختبئة في أحد

## رحلة إلى السودان

منحنياته وكذا في ثنايا التاريخ. هي مملكة من ممالك الجنوب، في السافانا، عاشت حضارة عظيمة وكانت واحدة من أوليات ممالك أفريقيا للسوداء على مدار عشرة قرون؛ تقع مروي في ركن من أركان الذاكرة، وكانت تتبدى بقامتها الخلافة وأهراماتها المديبة والمكرجة والصغيرة في آن، نراها الواحد تلو الآخر في خط لا ينقطع على كتبان رمال الصحراء.

ورد اسم مروي في كتاب "التاريخ" الهيرودوت، إذ أشار إلى أن المرء في حاجة إلى أكثر من أربعين يوماً ليصل إلى أعالي النهر الصعبة ويبلغ هناك "جزيرة مروي" والبوتانا Butana اللتين تعانقان نهر عطبرة والنيل الأزرق والنيل العظيم. كما ورد ذكرها في كتابات كل من إيراتوستنس ونيودور واسترابون وبليتيو العجوز وسنثكا وهليودورو ونيون كاسيو وكريستو وكلاوديوس البطلمي.

تواجدنا أنا ربير في القاهرة لنبدأ الرحلة والتقينا بصديقنا سامي، وتجولنا في الحي القبطي بمصر العتيقة في حوازيه وكنائمه التي ترجع إلى العصور الوسطى، وهي منطقة أطلق عليها الرومان اسم بايلونيا، "أي بوابة الشمس" على شاكلة عاصمة ما وراء النهرين. وعندما خرجنا وجدنا أنفسنا أمام منطقة خالية، لمحا عن بعد أطلال القسطنطين أول مدينة إسلامية، تلك الأبهة المندفوعة في بحر الرمال؛ هناك تجد أفران حرق الفخار، والعمال العربيا الذين لطخت أجسادهم قطع الطين البيضاء، يقومون بأعمالهم بجد ونشاط وسط أكوام من التراب وسرنا حتى وصلنا إلى جامع عمرو بن العاص، أقدم مسجد في القاهرة، هو مسجد يتلأأ فيه اللون الأبيض، ويتجلى فيه صحنه الجميل وأعمدته الملساء ذات التيجان الكورنتية. جلسنا على السجاد بالقرب من المنبر انتظاراً لسامي وهو يؤدي الصلاة؛ كان نور السكينة يلفنا، وكنا نسمع المسلمين يؤدون الصلاة سيراً على نغمات صوت الإمام.

أخذنا نطوف بأرجاء شوارع بها مباني تعود إلى القرن التاسع عشر وأشجار وارفة، حتى وصلنا إلى ميدان صغير عقدت به احتفالية غريبة؛ أطلقت علينا في أحد أركان الميدان، عند أحد أبواب دير قبطي، تيجان ضخمة كورنثية من الرخام ترجع إلى العصر الروماني أو البيزنطي وقد تدرجت بغير انتظام على الرصيف. إنها تيجان أعمدة كنائس قديمة هي كنيسة القديس هرمس، وكذلك قديس قبطي آخر، لا أصدق أنه هو؛ كانوا يقومون بترميم التيجان. هناك نسمات ملثم وسكينة تداعبنا وقد خرجت من كنائس صغيرة ومعتمة مشيدة من الحجر القديم ولها بعض البنايات الصغيرة وقد زخرفت حوائطها بأيقونات غريبة وغامضة كانت إحداها تضم "عين حورس" الذي تحول إلى قديس؛ أصبحت هذه الكنائس ملاذاً مقدساً يرسو على شاطئ الزمان.

ذهبنا في المساء إلى منزل سامي، وهو شقة جديدة في قلب الجزيرة؛ لقد اقتربت ساعة الإفطار في رمضان؛ السيارات مسرعة في الشوارع الخالية، وكان سائق التاكسي الذي يحملنا يحاول تفادي الزحام المروري في بعض المناطق، وبالتالي كان طريقه الشوارع الجانبية، فبعد الشارع الرئيسي دخلنا شارعاً ضيقاً على جانبيه عمارات من سبعة طوابق وعشرة؛ لم يكن هناك إلا مقر صغير ورصيف ترابي. كتل أسمنتية تطل علينا من كل صوب وحذب، إنها القاهرة الجديدة. كانت منار الصغيرة أول من خرج لتحييتنا، مكسوفة و"عكرونة" في آن معاً؛ وبعدها أتى أحمد بنظراته الحية والحنونة، جلسنا أمام مائدة عامرة، وكان الأطفال يشاهدون رسوماً متحركة ولكن بدون تلفاز، إنها مغامرات الصغير بكار في النوبة. هذا هو مقصدنا. أخذنا نتفكر نحن أيضاً.

استأجر سامي سيارة التاكسي ليقودنا صاحبها إلى المطار، وقبل ذلك مررنا بالفتى، هل علينا بعض الأصناف النوبيين لوداعنا وهم إبراهيم وعبد الله وعبد الحارث وآخرون. وبعد أن فقدنا شنطة لنا، شنطة بير، التي بها بعض الملابس

### رحلة إلى السودان

والهدايا، في طريق الرحلة من القاهرة إلى أسوان، قضينا الليلة في منزل يحيى. ها هي النوبة تحتضننا! على الشاطئ الغربي للنيل، الشاطئ الصحراوي تمتد بلدة غرب سهيل فوق كتبان الرمال التي تمتد حتى مياه النيل؛ ومن الشرفة أخذت أتأمل، تحت ضوء القمر، كيف أن مياه النهر تمضي في طريقها مرة بالصخور التي تحمل نقوشاً هيرغليفية في جزيرة سهيل؛ كانت القرية مستغرقة في النوم بينما كنا نتحدث عن مرحلة الإعداد للرحلة. كنا نسمع همهمة المياه في الجندل الأول، "البوابة الجنوبية"، كما كان الأكهمن يسمونها.

عندما أصبح النهار لم نكن نعرف متى ستبحر المركب التي ستقلنا عبر بحيرة ناصر. معرفة وقت كل شيء أمر مهم عند الإنسان الغربي، غير أن الناس في الشرق كانوا يتوصلون إلى حل لذلك من خلال الخيال والصبر. كنا نعرف أنها سوف تقلع عندما يكتمل عدد الركاب مثلها مثل سيارات الأجرة؛ وعلى هذا فقد قصدنا المركب بعد منتصف النهار خوفاً من عودة بير التفكير في البقاء وانتظار شنطته التي فقدها؛ فلو انتظرنا أكثر فقعدنا الرحلة الوحيدة الأسبوعية. كنت أعيره جلابي وبعض الملابس الداخلية وينطلون كاجوال. غير أنه كان يحمل الكثير من الألوان والأوراق في شنط صغيرة وكذلك بعض الأدوات الأخرى الأمر الذي جعله يهدأ رغم عدم وجود توقيت محدد وبرنامج واضح؛ وهذا أمر لم يتوفر في المشرق أبداً فالإنسان هنا يترك نفسه على حسب ما تشاء الأقدار. أبحرت المركب حوالي الخامسة وهي تقصر صندلاً محملاً بالصنانيق والسجاد.

كان المركب ممثلاً عن آخره، فمع بداية شهر رمضان يعود الكثيرون إلى منازلهم؛ هناك شباب كثيرون منتشرون على ظهر المركب، يرقنون على البطاطين والحصر ليقضوا ليلهم في ضوء النجوم، هم خليط، فمنهم طلاب من القاهرة ودمشق ومنهم العمال من أسوان ومنهم المدرسون وتجار الجمال. أما

الأمر فمقر إقامتها هو الكبائن، وبمناسبة الحديث عن الكبائن أقول إن الكابينة الخاصة بنا كانت ملاذاً صغيراً ونظيفاً ومرتباً وبه سريرين وناقذة مستنيرة أرى من خلالها ما بقي من النوبة وأنا مضجع على المخدة، أما خارج الكابينة فلم يكن إلا الطرقات وظهر المركب الذي يعج بالناس، ودورات مياه كريهة الرائحة وغير جيدة الصرف الصحي، وصراع على تناول الطعام. كان طاقم المركب يعرف يحيى وبالتالي كان استقباله لنا بحفاوة بالغة؛ كنا نصعد إلى ظهر المركب وننزل ونسافر ثم نلتقي في الكابينة لنرتاح بعض الشيء.

كانت المركب تمخر عباب مياه تلك البحيرة التي تمتد على طول خمسمائة كيلو متر، إنها بحيرة ناصر، بمياهها التي أسرت النوبة السفلى وغطتها؛ أخذت الشيطان تتباعد، ثم استقرت بعد ذلك مسافة البعد عنها ولكنها كانت مرئية. مياه زرقاء تحت سماء صافية؛ أما الشيطان فهي منخفضة ومعتمة اللون وذات قمم جبلية وجزر. ولا تلمح أي شجرة في المشهد العام. وسرعان ما حل الظلام وكسا السواد البحيرة؛ غير أن القمر أخذ في الظهور وأضاء ظلمة الليل؛ وأضفى ظلاله المائلة للزرقاء على كافة ما تحته فأصبحت الأشكال كأنها بلا وزن، لم تكن هناك أمواج، فكان المركب ينساب على صفحة كأنها سجادة فضية اللون، وكان انعكاس ضوء القمر هو الدليل الوحيد على أن المركب يواصل مساره؛ أخذت رياح باردة تسوط وجوهنا، بينما تكتشف أعيننا وهي نصف مغمضة الشيطان السوداء التي نمر بها في صمت كامل.

أفصح ضوء الصباح الأبيض والبارد عن المشهد الذي يضم الصخور المطلة على بحيرة ناصر؛ هناك قمم هضاب وجبال النوبة القديمة، ذلك أن المجري الأصلي للنهر يقع تحت المركب بعمق مائتي متر. وفي هذا العمق أيضاً تركنا التاريخ وأخذنا نعبر تلك الأرضي الحدودية دون أن نغير الأمر انتباهاً؛ وأبرز أحداثه عملية بناء السد العالي في أسوان على زمن ناصر، وبعدها اختفت هذه



## رحلة إلى السودان

الأراضي للأكيد، وبدأ نزوح النوبيين المأساوي عام 1964م، حيث أجبر مائة وعشرون ألفاً على النزوح إما إلى مصر أو السودان، وأصبحت خمسين قرية مصرية تحت المياه، وتقطعت السبل بالسكان، فابتعد آلاف النوبيين عن النيل وعن أعمالهم اليومية وغابات النخيل ومنازلها ذات الواجهات الرائعة.

إنه التاريخ الأكثر قدماً، تاريخ إنسان ما قبل التاريخ الذي سار مع النيل وخرج من أفريقيا، هو تاريخ مماتك النوبة الأولى مثل وارات وإيرتجت Irtjet وساتجو Satju ؛ وثقافة ناسيتي أو "أرض القوس" والتماثيل المصرية العملاقة على عصر الفراعنة؛ وثقافة وارات وميام وتحكحت Tehkhet وأقداس الأقداس لآلهة مصر في عصر الدولة الحديثة، ومعابد البطالمة المنتشرة على شطآن النيل، وبلدة أكين التابعة للمرويين؛ وإقليم Dodecaschoenus الحدودي أيام الرومان ونوبلدا النوبيين العيسويين، وممالك نوباديا وماكوريا وماريس المسيحية والإمارات الإسلامية ونوبة كنوز Kunus . غاص هذا الكون الثقافي كله في طمي الأعماق وأصبح كومة؛ ويستثنى من كل هذا المعابد الكبرى التي كان يخيو نورها وتم انتزاعها من جذورها. أنقذت، وهذا هو ما بقي من تاريخ امتد لقرون، وضاعت أغلب مكوناته تحت مياه البحيرة.

عند المساء، وبعد أن عبرنا إلى جوار شياك لصيادين أتوا من السودان ليكنوا هنا شهوراً، تم تجاوز العوامات التي تدل على منطقة الحدود. أخذنا ندخل الجزء السوداني من البحيرة، البحيرة النوبية، وهي بحيرة أقل اتساعاً وأكثر صخوراً وجبالاً، وكأنها بذلك تعلن عن قرب الالتقاء بمرتفعات وادي حلفا، في منطقة الحدود الأبدية بين مصر والسودان. هناك، في المنطقة، ظهرت أوليات المجموعات البشرية في وادي النيل منذ ما يقرب من مائة ألف عام، وهناك عاشت ونمت العديد من حضارات ما قبل التاريخ، وكان الكثير منها يرجع لعصور الأزمات وكان وادي حلفا كان الملاذ الدائم.

واصلنا إبحارنا حتى أصاب المركب نوع من الجنوح أمام سهل واسع ومقفر، كأنه خلاء مهجور يقع بين جبلين صغيرين لا نبات فيهما، هناك بعض الوهاد البيضاء التي تبدو لأول وهلة وكأنها موقع حربي؛ تبدو المنازل الصغيرة للقريّة عن بعد، وهذا هو ما بقي من مدينة وادي حلفا الحدودية بما كان لها من تاريخ قديم وحياة مرحة، حيث كانت منازلها في قديم الزمان تطل على النيل وقد اكتسبت باللون الأبيض، وتوّج للنخيل طرقاتها الواسعة التي كانت تحف بها بعض المنارات وقباب الكنائس؛ تحولت الحوايط إلى طين وغرقت شابات النخيل دون أن تدري السبب في ذلك. وأجبر ارتفاع المياه في البحيرة وانخفاض المنسوب. أحيانا، السكان على إقامة منازلهم أكثر من خمس مرات بعد أن يكون المنسوب قد ارتفع وقضى على ما تم بناؤه.

أرعى الليل سدوله بينما نقوم بالمرور بالإجراءات الجمركية الطويلة، غير أننا كنا ملتزمين ولم يكن هناك أي خروج على النظام المعتاد؛ لقنا الظلام في سيارة نقل جماعي قطعت بها الوادي الرطب وحلت بنا تحت المبة الوحيدة المضاءة، نحن أمام فندق للنيل، أفضل ما في البلدة. كانت غرفاته مشغولة لكن كانت هناك غرف خالية، من العنابر الخشبية، فالتاس كانوا ينامون في صحن الفندق، وانتشرت الأسرة على الرمال؛ كان البعض يتحدثون مع بعضهم يلفهم نور خافت وهم في أسرّتهم. كانت أذرعهم النحيفة وأصابعهم الطويلة تذكرنا بالنقوش البارزة والغائرة في تل العمارنة. كانت الخدمات عبارة عن بطاطين سميكة غير طيبة الرائحة، ومراحيض وأشاش ذات طشت وناموس وشخير. يمكن أن يغط المرء في نوم عميق في مكان يؤمه من يشرفون على قوافل الجمال!!

وأثناء ذلك كنا في وادي حلفا، نحن الأصدقاء الثلاثة، في منطقة الحدود المصرية السودانية، بعد رحلة في البحيرة استغرقت أربعة وعشرين ساعة،

## رحلة إلى السودان

أخذنا نبحث في منتصف الليل عن طعام؛ والحمد لله أن يحى كان يفهم لهجة النوبيين الحفاويين والفاديشاء، وهي لهجة تشبه لهجة قومه، لهجة الكنوز Kunus . هناك كشك خلف حائط من الطوب اللبن، يقدم السمك المقلي، يلغ الجو إيقاع موسيقى يدخل إلى الوجدان. جلسنا يحيط بنا ركاب المركب في غدوهم ورواحهم، قامات تتبدى ثم تختفي وقد لفها الظلام والعدم. وفجأة، شعرنا بما ينقص الليل في السودان؛ إنه العنصر الأفضل، الموسيقى، والشاي المخصوص، والدرشة في ظل الهواء الدافئ؛ لكن ينقص أيضاً قعقة قطع الدومينو. والطاولة ورائحة تبغ الشيشة الرطب في المقاهي المصرية.

كانت خطواتنا تتجه صوب الجنوب، نحو مروي التي ضاعت، أخذنا نسير على هدى الرحالة أو المكتشفين القدامى الذين ركبوا النيل مثلاً، كانت مروي في نهاية نفق الزمان، وللوصول إليها كان علينا أيضاً أن نعبر التاريخ السوداني كله، راحلين من الشمال إلى الجنوب، ابتداء من العصر الحجري الحديث ومروراً بالعصر الفرعوني، قوش ونباتة، قبل الوصول إلى هدفنا المنقود؛ كان مسارنا موازياً للنيل؛ كان ذلك التاريخ كأنه بساط مكون من مراحل، وهي مراحل تتمايز عن بعضها بالقوة والازدهار كما تكسوها جميعاً مسحة من الأسطورية وأخذت تتنقل مع القرون نحو الجنوب بحثاً عن أفضل نفاعاتها ألا وهو البعد. كانت مروي هي الثمرة الضخمة لهذه المراحل بثقافتها ونقوشها الكتابية الخاصة بها، وكانت خطواتنا دائبة البحث عنها.

كانت مروي حماً، وغاية محاطة بالإبهار والغموض، لكنها كانت بعيدة، بقيت أمامنا أيام طويلة لبلوغها. قمت من جانبي بتحديد بعض النقاط المهمة على الخريطة اعتماداً على قراءاتي؛ ها هي دنقلة العاصمة القديمة للنوبة العليا، تقع بين الجندين الثالث والرابع، حيث يمكن لنا أن نمر بكل من كرمة ومملكة قوش القديمة، الأسطورية كأنها مروي، وأقدم حضارة في السودان؛ وكلما توغلنا

صوب الجنوب، وجدنا إلى جوار الجندل الرابع كريمة وجبل بركل، "الجبل المقدس" حيث نباتة العاصمة التالية لمملكة قوش، مدينة القرعون طهارقا. ثم نطل علينا شندي صوب الجنوب، بين الجندلين الخامس والسادس، إلى جوار مروي الأسطورية؛ ويتوج كل هذا العاصمة الخرطوم حيث يلتقي النيلين الأزرق والأبيض. كان النهر يربط بين كافة هذه المناطق التي حددناها على خرائطنا الصغيرة، نقاط صغيرة ومتجاورة تكاد تلتصق النيل، ولم تكن نعرف حتى ذلك الحين أن هناك مسافات بين الولحدة والأخرى تقاس ليس فقط بالساعات الطوال بل بالأيام.

وكعادة المكتشفين القدامى، كنا نفتقد للوسائل اللازمة لوضع تلك النقاط على خريطة السودان الضخمة؛ غير أن أحداً منا لم يبد رغبته في ذلك أو في برامج وخرائط لهذا البلد؛ فعلى رأي ريان المركب، عبرنا بحيرة ناصر على هدى للنجوم، ويمكن أن نفعل الشيء نفسه في سفرنا إلى السودان، بأن نسأل الرعاة القلائل الذين نجدهم بين الكثبان، أو ننظر في القبة السماوية ومسط السهول التي تبدو بلا نهاية.

كانت دفلة المصطة الأولى، لكن أين كانت؟ إنها بين الجندلين الثالث والرابع، وهذه هي الحقيقة المؤكدة عندها. والمعلومة الوحيدة عندي أخذتها من وصف الرحالة الفرنسي ف. كايود F. Cailliaud في كتابه "رحلة إلى مروي والنيل الأبيض" (1827م). وأصبحت المعضنة الأولى التي نواجهها البحث عن مدينة مفقودة. لم تكن معنا خرائط أو كتب لتحديداتها، ولم يكن هناك أيضاً أي مؤشر عليها، غير أننا نعرف، بطريقة غامضة، أن النيل قديماً كان يجري في بلد به جبال وصحراوات ونخيل، في أماكن يصعب على الإنسان معرفة الكيفية التي يجري عليها؛ لم تكن هناك طرق مرصوفة أو غير مرصوفة، وهذا ما قيل لنا وما تأكدنا منه لاحقاً اللهم إلا دروب في الصحراء وعتم نقة في تحديد ساعات السفر ومراحل

## رحلة إلى السودان

الرحلة التي تعد بالأيام الطوال، حتى نصل إلى مكان ثم ننقل إلى آخر. أصبحت السودان في أعيننا لغزاً كبيراً ومعضلة عليها ألف إجابة وإجابة.

كان بير يتصرف بغرابة تتجاوز ما هو معتاد في مثل هذه المواقف؛ قرر فجأة واستمر في هذا حتى النهاية، أن يتوجه بالسؤال لكل سوداني باللغة الأسبانية، وكأنه أخطأ الرحلة وأنه في أمريكا الوسطى، واتخذ مع الناس المنهج الإنجليزي الذي كان يكرهه؛ أضف إلى هذا، بدا وكأنه يصارع مفاهيمه وخيالاته ويغضب للفتايات وضائق صدره وفقد ثقته وأخذ يشعر بأنه ضحية لشيء ما أو أنه تعرض للعدوان؛ كان كل شيء يجعله يفقد صبره؛ وبدأت حالة التوتر مع يحيى، وسرعان ما شاب التوتر علاقته بي.

كانت هناك لحظة مأساوية، هي درجة كبيرة من اللايقين، تتمثل في الرغبة في أن تتابع الأحداث على شاكلة ما هو قائم في مدينة أوربية، وكان صورة العالم موضوعة سلفاً؛ كان صاحبنا قد جمع كماً من المعلومات المتنوعة والكثيرة عن السودان من خلال شبكة الإنترنت، ولكن ذلك الذي جمعه ليطمئن ما زاده إلا خوفاً عميقاً؛ ورغم ما جمع من أوراق لا جدوى منها بدا وكأنه فقد الاستمتاع بالرحلة بسبب استحالة توازن برنامجه مع الواقع، فهو واقع غير مألوف ومختلف كثيراً عما صورته آخرون دون أن يتمتعوا بالحساسية والإدراك لطبيعة السودان.

كانت الرحلة هي الطريق، فيلم تدور أحداثه بما نخطوه فيه، نتحول أحياناً إلى أبطاله، وأحياناً أخرى نصبح مجرد كومبارس. وحتى تعرف المرء بلداً مختلفاً عليه أن يسبر أغواره، وأن يشارك وأن يترك بصمة، أي أن يدخل مسامك وتأكل وتعيش مثل أهله، وأن تجلس وتتسلمر ولو ببضع كلمات أو بالإشارة والأمر الجوهري هو ألا تشعر أبداً بأنك أعلى من الآخر فأنت الذي تتعلم وأنت على سفر.

اتسم كل شيء بالغرابية رغم أنه معروف سلفاً، فهناك الارتجال والمتاعب والحزن والصبر والحوار الذي لا ينتهي والفصال والابتسامات والتربيت على الكتف الأيسر، كأنه عناق، والتظلمات النودودة والمباشرة؛ ورويداً ورويداً سوف نكتشف الأكثر إثارة، إنه الكرم والعطاء بلا حدود والاستقاء والعذوبة والكبرياء والسعادة. هناك جمال هذا البلد، فالنساء عيونهن عيون نمها وذقون ممتدة وقامات ناعمة ولطيفة، غملتها من أخصم القدم إلى أعلى الرأس ألوان زاهية كاشفات الوجه، أما الرجال فالعمامة البيضاء والوجوه المنحوتة والأيدي الطويلة الذهبية. إنه عالم رسا على شاطئ الزمن، لكنه ينبض بالحيوية، عالم نكسوه مسحة من الحزن، مجبر على العزلة، والتأثر بتقلبات السياسة، إيقاعه عتيق، وحاجته ماسة لكنه يتحمل كل ذلك مستكيناً وصابراً على طريقة الروائيين وهنوء داخلي في العيون إنه المكتوب! المكتوب على الجبين!

ضمت رحلة المركب أيضاً أربعة آخرين من الأوربيين منهم ثلاثة من الشبان الإنجليز الذين لم يلقوا إلينا بالتحية، وامرأة هولندية كبيرة وشجاعة ومفعمة بالحيوية؛ كانت تتنقل في أرجاء المركب وحدها، تريد جمع حكايات نوبية. وفي اليوم الأول من تواجدها في وادي حلفا ركب الثلاثة الأول قطاراً متجهاً إلى الخرطوم مباشرة حيث يصل إليها بعد ثلاثة أيام، ولن يعود القطار إلا في الأسبوع القادم؛ أما المرأة عالمة الأنثروبولوجيا فقد انضمت إلى يحيى، الذي كانت تعرفه من أسوان، عندما أدركت أنه يقوم بالتوصل إلى تبسيط الإجراءات مع رجال الأمن ويعرف أماكن تغيير العملة. كانت بها مسحة من أهل بروسيا وكانت تسير على برنامج وضعت لنفسها. وبالنسبة لها انتهت الإجراءات الخاصة بالدخول وكانت أول من قام بتغيير ما لديها من عملة في السوق السوداء التي تنسم بالتقلب والندرة في هذه المدينة، وهو ما تحدثنا عنه في الليلة السابقة مع واحد وعد بالقيام بالأمر. لم ننس ببنت شفه جرياً على عادلنا اللاتينية وعلى آدابنا وأصبح موقفنا صعباً ودون تغيير عملة.



## رحلة إلى السوحان

جاءت هي في الموعد المحدد يصحبها مدرس توبي، صديقها، كان يعيش على بعد خمسة كيلو مترات، وتركنا في حيرة، حيث أخذنا نبحث عن عملة محلية في وادي حلقا دون أن نفلح كثيراً، وبمجرد عودة المركب إلى مصر، لم يعد أحد يريد عملة مصرية كانت لدى بير بوفرة، كما كانوا يمتنعون عن قبول اليورو وهي العملة الوحيدة معي. استطعنا تغيير بعض المال، وأخذنا نقل من نفقائنا إلى أقصى حد، في بداية الرحلة، وهذا ظرف غير ملائم أحدث تأثيره على جزء من النشاط. وكان العزاء الوحيد هو أننا رأينا عالمة الأنثروبولوجيا تذهب إلى موعدها وقد ركبت عربة كارتو يجرها حمار تحت شمس تلهب الظهور، فلم يكن هناك تاكسي.

قمنا بتحيتها مبسمين ونحن جالسين في ظل خيمة Chamyia نتناول المرطبات؛ بقي القليل مناء، معشر الأجانب، وكان من الصعب مغادرة المكان. خلفت ورائي أحلامي التي لم أبح بها، الوصول إلى 'بلابا نينا' على ما يزيد على مائة كيلو متر صوب الشمال الغربي، وسط الصحراء، لمشاهدة أول مرقب للنجوم في العالم. إنها كتل حجرية مثبتة في الأرض، على مدار السرطان، أي في مكان يكاد المرء فيه أن يفقد ظله. في التوبة، ظهر أوائل علماء الفلك في العالم، والآلهة الكونية. هناك أيضاً ظهرت أولى الثقافات الكبرى، منذ ثمانية آلاف سنة، إنها اللحظات الأولى التي عاشها وادي النيل، وربما الدنيا بأسرها.

حاولنا الخروج، قبل أن نقضي سبعة أيام فابعين في المكان، وما استطعنا فعله هو الاتصال بواحد يعتبر كثير الكلام، قرصان حقيقي، يبدو جاداً للغاية، لكنه كان يراقبنا عن كثب ويعرف ما في جيوبنا من أوراق العملة، فالعملة المحلية، الدينار، كانت تعد بالملايين. كان على استعداد لاستنزافنا بعض الشيء بأن قَدَّم لنا الجزء الخلفي (الصندوق) لسيارة نصف نقل تويوتا بسعر مبالغ فيه، إذ كانت وسيلة النقل الوحيدة الباقية، سوف يحملنا إلى دنقلة، على بعد ست

## رحلة إلى السودان

ساعات، في طريق جيد، حسب قوله. اثابنتي حالة من الاستنفار عندما قال ذلك وتأكدت من كذبه، غير أنه كان المخرج الوحيد أمامنا، وقبلنا الخروج من المكان في ذلك المساء نفسه. وما بقي هناك من وسائل النقل بعض سيارات النقل الجماعي وسيارات النقل المكنة بالمسافرين.

توجهت عالمة الأنثروبولوجيا، التي تصل دائماً في موعدها، لنا بالرجاء لنحملها إلى منزل صديقها ودعنا لتناول إفطار رمضان في ذلك اليوم. كانت تعيش في القرية النوبية الجديدة، بعيداً عن السهل، ذات المساكن الطينية المتواضعة، بلون الأرض، تقبع بين أشجار السنط الممتدة. كان كل شيء من الطوب اللبن، الدعامات والجدران وكذلك الأشكال الزخرفية للأبواب. استقبلنا البروفيسور محمد طاهر وزوجه الطريقة في صحن المنزل للمسقوف جزئياً وذي السقف الذي يقوم على دعائمين؛ وبينما كانوا يقومون بإعداد الطعام ووضعه على المائدة أتى إلى بكتاب ووضعه إلى جانبي كأنه كنز ثمين. "الشتات للنوبي" هذا هو العنوان، تأليف البروفيسور حسن ضيف الله.

إنها نسخة جميلة نفدت من الأسواق؛ يتحدث الكتاب عن الشتات النوبي الدرامي، أمام زحف مياه البحيرة الضخمة على قرى ومدن النوبة؛ ومن بينها رادي حلفا؛ يضم الكتاب صوراً قديمة للمدينة الجميلة وأطلالها، والمياه وهي تغمر كل شيء والأسوار التي تنهار أمام زحف المياه. ظلت منذة تكاوم المياه وتعلو عن سطحها وكأنها صرخة صامتة خرجت من فم المدينة الغارقة. في إحدى لوكائنات البلدة نجد المندة مرسومة فوق منطح المياه، في الدهليز، وهذا دليل على أن القلوب لازالت معلقة بذلك الجرح. كانت الرطوبة تعم البلدة، بالقرب من البحيرة يبدو طعم كل شيء كأنه طمي حانط تنهار؛ كانت الأمساء تخيم على المكان. عاد البعض ولا يريد أن ينسى ما حدث. أتى آخرون جدد، لكن المدينة الشبح ظلت قابضة تحت المياه.

## رحلة إلى السودان

لثناء تناول الطعام على المائدة العامرة، وبينما نرشف عصير ليمون لذيذ حثنا البروفسور على التخلي عن خطتنا في الرحيل هذا المساء وأن نرحل في اليوم التالي، حيث يرافقنا، وصديق معه الكاتبة في سيارة أفضل. المقصد هو دنقلة كما نريد، قبلنا وانتظرنا، ومع هذا فعند حلول المساء لم يقيموا لنا إلا سيارات قديمة ذات مقعد واحد في المقدمة، أما الخلفية فهي في الهواء الطلق، وهو الشيء الذي رفضناه قبل ذلك؛ تضاعف عددها الآن. في نهاية المطاف، أخذنا نبحث عن سيارة في منتصف الليل، وقد أخذ الأمل يخبو؛ وجدنا، صفة، سيارة جيب في العراء. هل توجرها؟ هل أنت ذاهب إلى دنقلة؟ إلى أي مكان تريد. سنرحل غداً صباحاً!

في تلك الليلة، في الظلام، اقترب مني أحدهم وقال لي إن لديه شيء. أخرج من جيبه تعويذتين صغيرتين من الحجر؛ لم أعره اهتماماً حتى قال لي إن إحداها تتحرك بمفردها إذا ما وضعنا فوقها بضع نقاط من عصير الليمون؛ بدا لي أن هذه الكلمات قيلت قبل ذلك، طرئت للخلف، لعشر سنوات مضت، أو يزيد، وتذكرت ليلة في جزيرة على نيل مصر، حيث كان بعض أصدقائي من النوبيين يشرحون لي بعض قصص بلداتهم؛ قالوا لي: تحتفظ أسرنا ببعض التعويذات المصرية الفرعونية يداوون بها لدغات العقارب. وأخت الأسر تتناولها من جيل لآخر، وعندما يوضع فوقها بعض الليمون تتحرك وحدها فوق الرمال، أردت أن أرى الوضع لكنهم لم يعطوني الفرصة.

كانت كلمات ذلك الرجل في تلك الليلة السودانية انعكاساً طريفاً، ربما كانت تحية. أخذت أفكر في إيموحتب، وفي أسرار العلاج الأثيري eterica. وهمس سائلاً ما الذي نبحث عنه في النوبة؟ فأجبت: أبحث عن سر. فرد بقوله: خذ هذا وموف بمساعدك على معرفة السر. وضع في يدي التعويذة الأكثر تهالكاً واختفى في خضم الظلام. وضعت بفتولي على التعويذة القديمة.

## رحلة إلى السودان

أخذ البندول يدور ويدور، كانت التعويذة الصغيرة تصدر إشعاعاً كثيفاً، فوق البنفسجي.

كان بير قد أعطى كل ما معه من عملة مصرية ليحيى ليقيم بإنفاقها؛ كانت هناك جلسات محاسبية، حيث يحاول يحيى تعليل الفجوات بينما يعترض عليه بير على طول الخط. خرجنا لتتسم بعض الرطوبة، وجلّمنا هنيهة. التقينا بعالمة الأنثروبولوجيا؛ طلبنا جميعاً الشاي والمرطبات؛ غضب يحيى في تلك الليلة من جراء كلمات صدرت من بير، علا الصوت لدرجة الصباح؛ كان يطلب منه عدم التدخل، فهو من يقود الفريق؛ لا يريد أن يعرف شيئاً عن النقود، ولقيم كلانا بالتصرف؛ فقد فاض الكيل به من كثرة الأرقام. التزمت الصمت، كان المال الذي معنا محفوظاً في جيب في رجل البطلون الذي أرتكبه، وكان الجيب بمثابة البنك طوال الرحلة. والأدهى، أنني لم أطلع البطلون ولو كنت نائماً.

عنداء في الصباح، لنرى السيارة التي ركنت أمام باب الفندق؛ وما رآه خيالي كسيارة جديدة ورائعة، لم يكن في واقع الأمر إلا سيارة جيب قديمة ومتهاكة، وبداخلها تلك البنزين في جركن كبير من البلاستيك المتسخ. غير أن ما به هو دكتين ومقف يصلحان لنا جميعاً. كان القطار قد رحل، ولم يتبق في وادي حلفا إلا القليل من المسافرين، إضافة إلى سائقي النقل الذين يسافرون لأيام، نون راحة، حتى يبلغوا نقطة والخرطوم؛ قمنا بجولة وصلنا فيها إلى البحيرة النوبية التي تبدو حزينة، وعرجنا على السوق، أخذت أقوم بعمل كمشور مستخدماً كاميرا صغيرة، لا يحذوني إلا القليل من الأمل، يمكن أن يحرق الضوء تلك الصور. غير أن الأمر لم يكن على هذا الوضع، استغرقت كثيراً حين ظهرت الصور رائعة.

كان بير يسير نوماً وهو يحمل شنطة كبيرة من البلاستيك، بها كافة أدوات عمله، وزجاجة كبيرة من المياه، والبسكويت وبعض ثمار الفاكهة. كان

### رحلة إلى السودان

يشرب كلما تمكن من ذلك ويشعل سيجارة ويأكل بتعجل يزيد عن المسمود، يعيش شيئاً من الهومس، قلت له، لو كنت مكانك لما فعلت هذا على الملأ، احتراماً لهؤلاء الذين يحيطون بنا، وبين الفينة والأخرى كنت أتناول رشفة من الماء. وباستثناء الإفطار - الشاي وقطعتي بسكويت - كنت أحترم مشاعر الصائمين، إذ كنت أعرف، من خلال إقامتي في القاهرة، أنه إذا لم يصم المرء فلن يعرف معنى صيام رمضان. فإذا ما كنت تأكل وتشرب فلن تفهم شيئاً، ما لم أكن أعرفه حتى تلك اللحظة هو أن بير تعرض لموقف إلى جوار مسجد، بالقرب من الجزيرة، ونهره الناس لأن دخان السجائر يجعلهم يقطرون دون قصد. لا يبدو أن ذلك الأمر كان يهمه كثيراً، واصل ما يفعل حتى نهاية المغامرة التي نقوم بها.

لهذا كان بير يبتعد عن الناس الذين يتحملون بإيمان وصبر هذه التجربة، تجربة الصوم في هذا القبط، مثل يحيى، وكأنها تضحية جماعية تقرب إلى الله كل عام. لم يكن لرمضان معنى بدون أن تشعر به في عقلك وتأثيره في جسدك، والهزائل خلال الأيام الأولى، والعصبية التي تتأب المرء قبل الإفطار بساعات، وانعدام القدرة الجسدية بعد بذل الجهد المستمر والضعف والسكينة الداخلية التي تتبع من هذا التقرب، يتم كسر هذا بالغذاء، كان بير يبعد نفسه عن تلك التجربة الجماعية التي تراها بأعيننا؛ هذه الرغبة العقلية - أكثر من مجرد كونها جسدية - في رشفة مياه، في قضمة من الطعام، في تدخين سيجارة، كلها كانت تبعده عن هذه للمعايشة وعن مشاعر الناس، حيث يصطدم بشدة بالحالة الهادئة التي عليها الجميع أثناء النهار، مع الإرهاق الشديد، ونداء المعدة والشعور بالغثيان.

قمنا بجولة أخرى، في المساء، في السوق وتزودنا بالمشروبات وغيرها وركبنا السيارة. شحناها بالشنط والطعام والضرر. كنا تسعة: في المقدمة السائق والبروفسور وصديق، ثم عالمة الأنثروبولوجيا وثلاثتنا في الخلف إضافة إلى

اثنين من الشباب من الميكانيكيين، هما أخوان يركبان فوق السقف، مع الشنط. أدركنا أن الطريق صعب، لكن لم ندرك أنه إلى هذا الحد.

حل الظلام عندما خرجنا، أخذت أضواء وادي حلفا نخبو رويداً رويداً كلما ابتعدنا عنها، كما أخذ الأثر يضيّع كلما ابتعدنا عن أعمدة النور، كنا نسير بسرعة في طريق معبد لعجلات سيارات النقل المتجهة إلى دنقلة. كانت محملة بالبضاعة التي ترتفع بضعة أمتار ومجموعة من الرجال فوق الحمولة. كنا نصعد ونهبط في مقاعدنا من جرّاء المطبات والمرتفعات، كان مشهد للهضاب الصخرية الشديدة الوعورة والمتكسرة يتوه في هواء دلفيء ويلقه ضوء القمر، أما للصخور السوداء فتبدو كأنها مارد عملاق، يجلس وسط مشهد متوَّج، كان ضوء القمر يضفي على المشهد للثبات وشبه الأسطورية، يشمل ذلك الوديان التي تمر بها، والكتل الجبلية التي تبدو وكأنها فرّت في جنح الظلام؛ مررنا ببعض الطرق المايّة بالمطبات أو الفارقة في الرمال، توقفتنا عند مقهى من مقاهي الطريق به عشرات من سائقي النقل والمسافرين الذين يجلسون على حصير قديم، الشيشة في النغم والشاي في اليد.

في لحظة معينة خرجنا من الطريق الرئيسي واتجهنا غرباً بحثاً عن مجرى النيل؛ فعدنا الأكثر، ولم يعد أمامنا إلا الحصى وكثبان الرمال كانت السيارة تغرق في منحدرات ثم نصعد مرتفعات وترتعش مع الحجارة، تميل بينما تحيط بها كتل سوداء تمر بسرعة تحت تلك الضوء الغامض الذي نعكس على الرمال. توزعت داخل السيارة بمعدل ثلاثة في كل كنبه، وكأنا أمام كراسي لتعذيب من زاد عن الحد المطلوب؛ لمست أذني لماذا نصرت على أن يكون رابعنا في الجزء الخلفي يرقد فوق بطانية ومحاط بالشنط والزجاجات والأغذية التي تتقاذف في كل مطب ومنحنى، والغاية أن نكون أكثر راحة. نسينا بدرجة ما هذين للميكانيكيين المظلومين. فكرنا في أن ذلك هو التقليد المتبع.

## رحلة إلى السودان

في الثانية فجراً، وبعد ست ساعات من السفر، وصلنا إلى عقبة وهناك توقفت، كانت الليلة صافية، شهدنا وادياً واسعاً تحيط به المرتفعات في أحد الأطراف، ومفتوحاً من الطرف الآخر، يمتد حتى مجرى النهر الذي يكسوه الظلام، كانت هناك مجموعة من التكوينات الصخرية ترسم شرفات أو مصاطب نازلة وغير منتظمة، وعلى بعد كيلو متر واحد تلوح منازل بلدة كبيرة تغط في نوم عميق، لا تلمح حتى نقطة ضوء. كانت هناك جذران ممتدة مشكلة نماذج تكاد تكون هندسية، تقع على مسافات شبه ثابتة فيما بينها. ساعدنا ضوء القمر على ندلف بعض الشيء إلى كتل من الأحجار المنقوفة، وبعد هنيهة قرعنا على أحد الأبواب. صممت. أعدنا المحاولة مرتين أخريين. وبعد أن دخلنا، عرفونا بالمنزل الذي كان يبحث عنه البروفيسور، قد واصلنا رحلتنا الليلية، باب آخر، كان هذه للمرة باب المنزل الذي كنا نلمس مكانه.

رخب بناء أصدقاء البروفيسور، وهم شبه نائمين، كان الباب يؤدي إلى منزل من المنازل التقليدية في النوبة العليا، هناك صحن كبير يحيط به ما يشبه البانكة الوطنية التي يتكئ سقفها على عقود وتقوم على دعائم ذات نور أبيض. تحتها كان لكل واحد منا سريرته ومختة وألبانينة. كان هناك ما يزيد على عشرة. قدموا لنا آخر طعام أعدوه أثناء النهار. استلقيت واستغرقت في حوار بصوت خفيض، لا يكاد النوم يداعب جفوني، كانت عيوني تحاول أن تشرب ذلك الضوء الفضي الذي يتخذ من خلال البوائك.

عندما أصبح الصباح، عرفنا أين نحن. كنا في أكاشا Akasha، بلدة نوبية على شاطئ البحيرة؛ لقد انسحبت القرية الجديدة إلى أعلى بمسافة عن نقليات مستوى مياه البحيرة النوبية التي تروى شطآنها. كان يستعصي على أي مهندس معماري معاصر أن يتخيل بلدة مكتملة التكوين الهندسي، هناك الإبهة والسعة في المساحات، هناك التوازي والغموض الذي يشبه تصميمات المهندس

الأسباني الشهير إيريرا Herra ، هناك النسق الأفقي والفراغات التكعيبية الممتدة، والموزعة على المنحدرات، الأمر الذي يجعل المنزل في توازن كامل مع التضاريس الرمادية التي تحيط به، وتتغام مع المشهد العام والقضاء. تتسم المنازل كلها بالبساطة، يكسوها اللون الرمادي يطوقها شريط أبيض في الأركان؛ لتبدو من بعيد وكأنها رسائل ضخمة جرى وضعها فوق الصخور السوداء. مشهد ثابت لا حراك فيه، من البازلت الذي يحيط بالمنازل، به مساحة من المأساة والكثير من الحزن.

هولنا في الصباح في الصحراء، وأخذنا نتزحلق على المنحدرات وكثبان الرمال والصخور، كنا نتجه صوب النيل، حيث كان بعض الفلاحين يقومون بالعناية بحقولهم التي يظللها الخيل. لم يبد هؤلاء الفلاحين مجموعة من الأغراب دفعة واحدة إلا نادراً، كانوا يتسمون ويتعاملون معنا بلطف، بلونا على الطريق، رسموا بعض الخطوط على الرمال، إنها أول خريطة. كان يتحتم علينا أن نسير في خط مستقيم حتى نصل إلى دائرة. كان هذا كل شيء. كان الهواء المحيط بالمكان يحمل تلك الرائحة النفاذة لأعماق البحيرة. انطلق المكان على نفسه، عزته نباتات طويلة السيقان، جميلة المنظر، تتكلى منها كرات ضخمة ذات لون أخضر قاتم، تبدو خاوية من الداخل؛ تشتهر بأنها مامة، غير أن الفلاحين قالوا لنا إنها تستخدم لعلاج بعض الأوجاع.

وصلنا إلى بلدة أخرى، هي نكا الشرقية، بمنازلها النوبية المبعثرة وسط الرمال، لم تكن على ذلك الجمال الصحراوي الذي عليه أكاشا؛ كانت الحوائط تكتسي باللون الأصفر والبني، وحقولها أكثر نضرة وجمالاً، إذ تطل مباشرة على النيل قبل أن تبتلعه مياه البحيرة. وصلنا إلى الشاطئ، لنعبر النهر على متن قارب هش، كان المكان قريباً من الجندل الثاني. فالمرآب الجميلة بأشروعها في النوبة السفلى كانت غير معروفة هنا؛ كان التيار هوباً، وبدا القارب المصنوع



## رحلة إلى السودان

من شرائح معدنية ملحومة إلى بعضها البعض هشا في نظرنا ونظر المراكبية. بقي المسائق والميكانيكيان؛ ترحلقت على الطين بجلايتي البيضاء، وسرعان ما وجدنا أنفسنا مهددين بتيار شديد يصارعه فتى بمجدافين من خشب غير مهيا.

وضعت يدي في مياه النيل العظيم، للنيل القديم، نيل الفيضانات، وأتاني إحساس غريب، هو أن عمق القرون ينساب بين يدي. إنه النيل الأفريقي، هو النيل نفسه الذي كنا نتأمله في القاهرة ونحن على شطآنه، عندما يتغير لون مياهه. يطو منسوب مياهه ويصبح لونها مائل للحمرة، تحمل جزراً كبيرة طافية من النباتات، كانت تمر بمرعة. لقد انتزعها النيل الكبير من مناطق بعيدة، معلناً بذلك بدء الفيضان، وبذلك تتصل مباشرة بقلب أفريقيا.

استطعنا أن نصل إلى الشاطئ الآخر رغم كل شيء، وقفزنا وسط نباتات منتشرة بين أطلال حصن صغير؛ يطلقون عليه دكا الغربية؛ هي عبارة عن بلدة نائية، كانت أول قرية نوبية قديمة وجدناها، تقع في واد صغير، تتأمل النهر، تسيطر مبانيها المنتشرة على مصاطب متدرجة، على الحقول الخضراء المحيطة بالشطآن. النخيل يكسو كل مكان؛ استقبلنا مدرس آخر صديق للبروفيسور الذي يرافقنا، وأحد أقرباء يحيى من بعيد، دعانا إلى منزله. على مدخل المنزل هناك رأس تمساح الأمر الذي يذكرنا بطول التعايش بين النيل وأهل النوبة. كان للصحن الداخلي عبارة عن صخور سوداء وبوئك غير منتظمة وكثيرة الأمر الذي أضفى عليها طابع القدم.

عرجنا على الحصن الذي يقال عنه أنه المكان الذي شيدت فيه أول كنيسة مسيحية في النوبة، ومن هناك كان المكان يطل على الحقول وبها بعض للفلاحين، وعلى النيل والمنازل. هكذا كانت النوبة القديمة، وكانت تلك الأرض، الفربوس عند أهل النوبة، كان صورة النخيل والحقول والمنازل تتعكس على صفحة النيل، معزولة لكن لديها مؤونتها، هناك عمارة المعكبات والأرض

البيضاء alberos واللونان الرمادي والأبيض على الحوائط، ثم تكن هناك رسوم، كان كل شيء يتسم بالبساطة الهندسية، كانت الواجهات فقط هي التي تضم أنماطاً مختلفة من الطوب اللبن.

عندما رجعنا إلى النيل، ألقى يحيى بنفسه في المياه، وسرنا على هديه كل منا نحن الثلاثة، البروفسور والمراكبي وأنا. كنت أردي لباساً داخلياً ذا لون أبيض يميل إلى الوردية عندما يكون بجوار هذه الكتل السوداء، ونزلت حتى وصلت المياه إلى ركبتي في طين الشاطئ، كان تيار المياه رطباً ومفعماً بالحوية؛ فكرت في التماسيح هثيئة، غير أن الجسد انصاع لمياه النيل القديمة، كنت أرقص في هذه المياه المعتمة التي تتساب بين ذراعي.

أخذنا القارب لنصل إلى الشاطئ الآخر. تمكن يحيى في نهاية المطاف من العثور على المرأة التي كان يبحث عنها، وهي من عائلة صهره وابنة قريبته؛ كانت قد تزوجت منذ عشرين عاماً ولم تعد أبداً إلى مصر ولم تر أحداً من أفراد أسرتها. دلف يحيى إلى منزلها، وقد أحاطت به صيحات الفرح، مكثنا فترة طويلة ننتظر. ثم خرج علينا في النهاية وقد أحاطت به ثلة من النساء والأطفال يطالبونه بالبقاء معهم. كانت أول مرة يرى فيها أحدهما الآخر بعد مرور سنوات عديدة. إنها كل الأخبار وكافة للذكريات، هذه ثقة من النوبة، ثقة عودة اللقاء.

كان يحيى يود لو بقي، والاستمتاع بتلك اللحظات التي تحول فيها إلى ساعي البريد بين عالمين منفصلين؛ وحدّ بوجوده النوبتين اللتين كانتا منفصلتين حتى ذلك الحين واكتشف أن هؤلاء الناس كانوا جزءاً من قبائله التي تتحدث لغات متشابهة، إنهم هم. هذا اليقين لم يكن بالمتوقع، فمن ناحية هناك الكثير الذين يتحدثون عن النوبة السودانية في مصر إلا أن القليل منهم سافر إلى هناك. كانت النوبة العليا مجرد ذكرى غير واضحة الملامح في ذاكرة أهل سهيل وإلفانتين وأسوان ودرار وكوم أمبو.

## رحلة إلى السودان

أضف إلى ما سبق، أن القليل من أهل النوبة في السودان كان يظن أن يحيى هو واحد منهم، كما لم يروا أبداً أي نوبي مصري يشبههم كثيراً. كان يحيى يتعرف على نفسه فيهم ويكتشف أن النوبة هي نفسها سواء العليا أو السفلى. هذا الاكتشاف جعله يعيش الحيرة، وكان يريد أن يتمثل الأمر داخلياً بتؤدة. لم يكن هناك وقت، رأيته حزيناً ومستغرقاً في التفكير، ترسم على وجهه بعض سمات الحسرة. كان هذا الموقف هو أحد الأسباب القوية التي دفعت للقيام بهذه الرحلة، عودة اللقاء مع النوبة التي كثيراً ما تخيلها، إنها نوبة الصبا وبلدان النوبة المصرية قبل حلول الكارثة، هي النوبة التي عاد لاكتشافها من جديد وهو يعيش حالة الاستغراب عندما اكتشفها في النوبة السودانية.

تلا تلك مباشرة رحيلنا تحت شمس حارقة لمدة عشر ساعات مررنا فيها بالصحراوات القاحلة والموحشة التي لا ندانيها أية صحراوات في الدنيا في هذا. كان قدماء النوبيين يطلقون عليها كنين تو 'Kidim tu' أي 'بطن للصخور' أو 'بطن الحجر' عند العرب. تكسرت قشرة الأرض منذ زمن، وأطلقت حممها، صخوراً بركانية وأحجاراً سوداء، إنها ندبة مفتوحة لم تستطع الرمال أن تغطيها رغم مرور آلاف السنين؛ كتل من الصخور، وللهضاب ذات القمم المدببة وملايين كتل الحجارة ومنخفضات وقطع من البازلت في كل مكان. كان كل شيء يوحى بوجود احتفالية فظيعة، الجمال فيه قوي؛ كان الضوء للرهب يبدو وكأنه ينزل بشكل رأسي على الرمال البيضاء التي تغطي الأبصار. وفي للغروب يكتسي كل شيء باللون الأحمر ويتحول إلى جمرات. كان الأفق شاهداً على عصر تلك الهزة الكونية، التي اختلعت لنفسها طريقاً مقفراً وسط النيل، وفصلت السودان عن مصر إلى الأبد، من خلال قطاع من الصخور والتي تحول نون مرور مياه للنهر. النوبيون فقط هم الذين استطاعوا أن يتأقلموا على تلك الأرض المأملوبة بالبقاء إلى جوار النهر في هذه الصحراء، ولستأعوا زراعة مساحات من الأرض بالنباتات والتخيل.

كانت الموسيقى رائعة، تملأ جنبات الميمنة بهذا النغم الإيقاعي السوداني  
سالم، وسلام، ويتناغم مع الإيقاع الكورس النسائي، مع صوت المعني الشعبي  
منقطع الصوت، لكنه يكاد يكون غير واقعي، ويصعب تحديد ما إذا كان نسوياً  
أم صوت رجل، مع إيقاعات مكتومة وأخرى عميقة ورنانة. لم يكن هناك إلا  
شريطاً كاسيت، وعندما يتكرر الشريط عشرات المرات يتحول إلى شيء مبهين  
mantra، فأحياناً يتحرك للجسد كله وأحياناً أخرى لا يتحرك إلا الأيدي  
والأقدام، فمن خلال الموسيقى، يصبح المشهد المحيط أكثر إنسانية، ونراه بشكل  
آخر حيث تتراقص الصخور والهضاب وأشجار النخيل القليلة على تلك  
الإيقاعات التي تتحدث عن عشق نوبي وعن الأفيال والكفاح والعدل، هولوها  
عميق الأفريقية وعلى وقعها كنا نمسير شبه منومين.

جعلت الموسيقى كل شيء ممكناً وجميلاً، نقي من أية مخاطر، يبدو أنها  
تدفعنا إلى إيقاع القفزات، تختلط بالرياح وتعطينا اليقين بأننا نتقدم بسرعة كبيرة،  
نحو المجهول، نحو عالم جديد، مفعم بالنور والقوة، والأشكال، يفتح صفحاته  
أمام أعيننا. تحرك الموسيقى عقولنا ورؤوسنا بينما نمر مر السحاب بدوائر  
إحدى القرى وبالرعاة وسياط البلح. في هذا السهل الذي ينزل حتى قاع اليم،  
إنها جبال متباعدة، تكاد تكون بنفسجية على شكل أهرامات، تظهر بين الفينة  
والأخرى. كانت الموسيقى تلف المكان وتوحد بين الصور والأصوات، حتى  
المطبات تصبح إيقاعاً رغم أن الضربات اللاحقة ليست ذات صلة بالإيقاع.

شعرنا بالإجهاد، توقفنا عند قرية كبيرة، كان يوم الجمعة وكان يجب أداء  
صلاة الجمعة، تزودنا بالخبز الساخن الذي خرج للتو من فرن محلي، أما يحيى  
والبروفيسور والآخرين فقد دخلوا المسجد للصلاة. جلس كلانا أنا ويحيى على  
حاجز. كانت الشمس حارقة، كنا سعداء، كان بير متحمساً وأشركني في حماسه  
لهذا للعالم الذي كان يذكره بمرحلة طفولته؛ أما بير الآخر الذي أعرفه والذي

## رحلة إلى السودان

كان يتحفنا كثيراً بحكايات الطغولة فقد عاد من جديد، كان يرتدي جلابية بيضاء وجبته منفرجة وعبونه حاملة، كل تلك يتناغم مع الجو المحيط. لم يبد أنه بعيد عن ذلك العالم الريفي والإسلامي، فقد ترك العرب، لحسن الحظ، الكثير على أرضنا، ولم نفقد منه كل شيء، وهذا ما تؤكد عاداتنا وتقاليدها وملاحنا.

مرعان ما أحاط بنا الأطفال الذين خرجوا من المدرسة وهم يرتدون جلابيهم ويحملون شئطهم المدرسية على ظهورهم، الجميع يبتسمون يريدون مصافحتنا، ها هو بير في عالمه؛ كان عظيمًا أن نراه هادئًا، فعندما يبتسم يصبح التواصل معه بلا مشاكل؛ لكن الأمر كان مكلفًا بالنسبة لي. كان رائعًا أن أراهم وهم يتحلقون حوله بينما يقوم بتدريبهم على بعض الحيل باستخدام اليد وكانوا جميعاً يحاولون تقليده. وأفضل تلك الحيل كانت تلك التي تبدو فيها اليد مقطوعة أحد الأصابع من منتصفه؛ كنت أشعر بالمفاجأة عندما يفعلها، تبدو المسألة وكأنها حدثت بالفعل؛ كان الأطفال يضحكون، فمنا بجولة وتوقفنا عند مبنى مهجور، به عقد عربي رائع في المدخل، وصحن به بوائك، شُرته للرمال، إنها المدرسة القديمة التي حلت محلها مدرسة جديدة.

وعندما عدنا إلى السيارة، بين القفزات والمنحدرات، كنا نتسامر، وسألني بير، من أين هم أهل النوبة؟ إنه السؤال في الصميم، فحدثته عن هجرات ما قبل التاريخ وكيف قامت قبائل صغيرة منذ ما يقرب من مائة وعشرة آلاف عام، بالاتجاه صوب المكان قادمة من إثيوبيا هرباً من التغيرات المناخية الضخمة، وبذلك نشهد عملية الهجرة الأكثر أهمية في التاريخ، "الخروج من أفريقيا"، وهبطت القبائل إلى وادي النيل، وهناك ظلت تعيش على مدى خمسين ألف عام قبل أن تواصل رحلتها صوب آسيا وأوروبا؛ كانت هذه القبائل تمثل الأصول الأولى للعصر النيلي. ومن بين هؤلاء ولد أول الرجال المحدثون في منطقة ما بين النيل الأوسط ومصر العليا.

قلت له: انظر إلى يحيى، هو نوبي قح، ودائماً ما اعتقدت أن ملامحه قديمة للغاية. حسن، نعم، يبدو أن يحيى والطاعنين في السن من النوبيين من الذين ينسبون إلى إثنيات مماثلة لإثنية سان San التي لا تزال تعيش في إثيوبيا حتى الآن، وقلب إفريقيا، وفي كلهاري. إنهم البشر الأقدم في الدنيا، لغتهم تختلف عن لغات الآخرين، هم الأوائل، يطلق عليهم كليك Click وذلك من خلال فرقة في اللسان Chasquido. في النوبة العليا أيضاً يصدر عنهم "كليك" عندما يتحدثون، عثر في صنجا Singa، على النيل الأزرق، على أول إنسان في السودان يرجع عمره إلى عشرين ألف عام؛ هو من سلالة San مثل يحيى، وهذا يمكن القول بأن أهل النوبة يمكن أن يكونوا أحفاد السكان الأوائل لوادي النيل، ثم اختلطوا بعد ذلك مع الأثيوبيين، وكانت الثمرة هؤلاء السود ذوو القامة الممشوقة والبروفيل الناعم واشتهروا بالوسامة والجمال مثل إبراهيم، وغيره كثر. كان المصريون يطلقون عليهم مسمى "تهسي" Nehesi، هم الرجال السمر، السود في المقام الأول، وبعد هذه العجالة التبس الأمر على بير ولزم الصمت، كانت المعلومات كثيرة في ظل هذا الجو، كان ينتظر أن يكون ذلك أكثر إيجازاً.

في المساء، بعد هذه الساعات الطوال من السفر، وصلنا إلى شاطئ النيل، إلى حقول يانعة ومنازل مدهونة بالجير الأبيض، نبع وغابات من النخيل. تركنا السيارة تحت شجرة سنط ورفقة واقتربنا رويداً رويداً من الشاطئ، كان هناك قارب من الصفيح سوف يحملنا إلى الشاطئ الآخر. كان مجرى النهر عريضاً جداً لكنه أكثر هدوءاً، كنا جنوب الجنبل الثالث يقليل إنها الدال Dal أرض النوبيين المنكوت Sukkot، وعلى شاطئ النيل رأينا معبداً كبيراً، كان معبد سولب Soleb، أقامه أمنوفيس الثالث، الأسرة الثامنة عشرة، وكرسه لنفسه كملك إليه؛ كان "سيد أرض القوس" أي النوبة وكان "أسد بلاد الجنوب".

## رحلة إلى السودان

كان معبد سولب أكبر المعابد التي أقامها الفراعنة في النوبة العليا على مرتفع من الأرض محاطاً بالنخيل، تيجانه على شكل براعم نبات اللوتس، وكانوا يربطون بينه وبين معبد الإله آمون في الأقصر؛ كان المعبد، أثناء الفيضان، يبدو كأنه مركب يمزج عباب الماء الأحمر. كانت بنيته القوية والناعمة في آن، معبرة عن تحذير قاس للسكان المحليين؛ تضم الكثير من أعمدته مزينة بالنقش الغائر عبارة عن أسرى نوبيين مقيدون بالسلاسل وراكعين، مثلما نرى في معبد أبو سمبل، وجوههم سمراء يكسوها انطباع بالانصياح والمرارة.

وفي بلدة سيدنجا Sedeinga أقام لزوجته تي معبداً آخر. تشير هذه الملكة، التي حصلت على معبد لها في قلب النوبة، على التقاليد القديمة لمدار السرطان في أفريقيا، أي تقاليد الملكات السوداوات اللواتي ظهرن المرة ثلث الأخرى في النيل الأوسط. وابتداء من نفرتاري، للملكة جنوبية، التي استطاعت أن تدفع رمسيس الثاني أن يقيم أعظم معبد في مصر، معبد أبو سمبل، على الأرض التي تعشقها، وحتى ملكات مملكة مروى، ملكات الكانداك Kandake، ذلت السلطان مثل تي، كن جميعهن على الدرجة نفسها التي عليها الملوك.

عندنا إلى مكاننا دون أية حواشي غير عادية، كان الليل قد أخذ يرخي سدوله، انطلق يحيى من جديد إلى المياه، مولعاً بمياه النيل، وإنجاش نفسه بعد ذلك اليوم المضني. في هذا الركن الجميل من المتوقع فترة راحة مستحقة. أثناء العودة بين حقول قصب السكر عرض على البروفيسور أن نمكث الليلة ثم نسافر في الصباح الباكر؛ قبلت العرض على الفور، كنت على استعداد للاستمتاع بتلك الوقفة، أتمشى في هذا المكان الهادئ والمريح. ليذهب كل إلى ما يريد حسب السياق القائم فالكل متعب. أخذ السائق قسطه من النوم، وقام الميكانيكيون بتنظيف السيارة، كان هناك نبع وأشجار وارفة وحصائر مفروشة ومكان يبدو جميلاً.

بينما كنا نتناول الطعام، كل على راحته، ونحن مستقلون على الأرض نأخذ باليد ما يقدمه لنا الناس، خطر لي أن أقصر الأمر على عالمة الأنثروبولوجيا، حيث كنا. أخذت للمرأة في الصباح غاضية أمام دهشة الجميع، قالت: أنا لست مستعدة لتغيير خططي التي تتمثل في أن نصل إلى دنقلة قبل أي شيء، وربما إلى Karima كريمة ! كان هذا هو ما تم الاتفاق عليه مع البروفيسور، ولقد ضاع مني الكثير من الوقت. شعر البروفيسور بالحيرة وحاول تهدئتها. عرضت عليها وجهة نظري ببساطة قائلاً: يا سيدتي، في أوروبا وفي بلدك من غير المشروع أن يقود السائق السيارة لأكثر من ثماني ساعات، وهذا الفتى قاد السيارة لست عشرة ساعة متواصلة في يوم واحد، ونحن نعرف أنه لم يَتم منذ يومين! واصلت عالمة الأنثروبولوجيا صياحها: ليس لدي وقت! لقد وعدتني سيانك... وعلى ذلك فأنا آخر من يعلم!

بدا البروفيسور مفزوعاً، أما نحن الذين لم نكن نعرف درجة الصداقة التي تربط بينهما فقد لزمنا الصمت، كنت أريد أن أعبر عن عظيم احترامي للبروفيسور، وأترك له حرية القرار. وفي لحظة واحدة صدرت الأوامر اللازمة، وانفقنا على أن نلتقي هناك في التاسعة مساءً، ثمانية رجال وهذه الحبراء، ركبنا السيارة التي أخذت تهددنا فوق الحجارة، كان القمر رقيق هذه الرحلة التي شارك فيها أناس صامتون. وآخرون يشعرون بالهزيمة. هكذا فقدنا هذا المكان الجميل وذهب عن بصرنا، وأخذنا نصعد مرتفعات ومطبات في الطريق أثناء الليل. كان الطريق مستحيلاً، هضاب موحشة ومنحدرات غير طبيعية وآلاف من الصخور. كنا نسير بالقرب من النيل، كنا نتخيل المنظر على شاكلة ما رأيناه في وضوح النهار؛ الأمر عبارة عن أماكن جميلة لا تتسى وقرى نائمة وأخرى مهجورة بالكامل ونخيل وحدائق ورمال؛ كان كل شيء يذوب وتضيع معالمه في الذاكرة كأنه ضباب يتردد فيه صدى الفوبة النائمة.



## رحلة إلى السودان

توقفنا في منتصف الليل هنيئة في قرية من تلك القرى المجهولة بمنازلها البيضاء التي تطل من فوق هضبة؛ في العتمة وتحت شجرة ضخمة كان هناك مكان به درجيلة في الوسط. قررنا أنا ويحيى المشاركة، ها قد خلفنا وراءنا أرض النوبة، التي سوف نعود إليها في نفقة. كنا في أراضي تابعة لقبائل أخرى، كان يحيى يتحدث معهم بالعربية، فقد كانوا يتحدثون بلهجة مختلفة، إنها لهجة المهامس Mahas، لم يكونوا نوبيين، لكنهم، مع هذا، من القدماء، ترجع أصولهم إلى مينجاي Medjay وأوشك Aushek وبجا بالبحر الأحمر. هم من أحفاد المرتزقة من البدو الذين ساعدوا المصريين في غزو النوبة العليا. كانت ملابسهم أكثر كلاسيكية، الأثف مستقيم والسجنة اليونانية (البروفيل) سواد بشرتهم فاتم، وربما كانوا أقل إصرافاً في التعبير عن مشاعرهم.

وبعد ست ساعات، وصلنا، وقد أصابنا الإعياء في نهاية الرحلة الليلية، بل أقول في نهاية الكابوس، إلى قرية وسط فقر محيط؛ استقبلونا هناك في الثالثة صباحاً، في منزل ذي صحن كبير به شجرتا برنقال وأرنبان أبيضان كبيران، كانت الأميرة مبعثرة في الهواء الطلق. جلست للكاتبه دون أن تقول شيئاً وجهها ينطق بمزاج عكر، شككت من أننا شريفا للمياه الخاصة بها؛ لم نعتذر عن أنها أفقدتنا ليلة في النوبة العليا، وعرضت حياتنا للخطر. اعترف السائق أنه كان على وشك النوم أثناء القيادة أكثر من مرة، لكن هذا لم يقلقها ولو للحظة.

لم تلق بتحيةة الصباح على أحد، وتوجهت كملكة جريئة لقضاء حاجتها خلف بعض الحوائط وسط الحقول؛ واصلت إصدار أوامرها للبروفيسور، ولزمت الصمت وكسا قمها ابتسامة غير حقيقية، كانت هي الأقوى، يتوفر لديها المال والأكوات والبروفيسور الذي يرافقها مدفوعاً بالانترام والخوف؛ لم تكن تفهم ما عليه صديقها من رقة، بسبب أنانيته الصبانية؛ كان الصديق غاية في الأدب والكرم أكثر منها، ولم تحفل حتى باحترامنا لها. غير أن تلك الابتسامة

انمسلطة كانت التحدي الكامل، فأتناء الرحلة أدركنا أنها كانت تقوم ببرمجة الوقت المناخ، استولت لنفسها على واحدة من نوافذ السيارة، وعندما كنا نتوقف، وتذكر ما كانت تريد، كانت تصعد مباشرة على الجانب الذي به الظل. كنا نبتم داخلية عندما تخطيء في تقديراتها وتغير مقعدها، كان الطريق يتغير بالكامل، وتضربها الشمس وتشويها كأنها بيضة.

كانت تضع من الداخل فوطاً، وتشرب المياه من زجاجة صغيرة مليئة، رشقة رشفة. أما نحن فقد كان سلوكنا أكثر مباشرة وكنا نشرب من الزجاجات الكبرى الخاصة بها. كانت شكواها عن حق، لكن بعد ذلك الغضب وضرب الأرض بالإقدام ستأتي الحرب؛ عم التوتر الجميع حتى الثمالة؛ قررنا إيقاف عملية التعذيب وأن نجلس نحن الأربعة في المقعد الثاني، حيث طلبنا من الميكانيكيين أن يهبطوا من على ظهر السيارة، حيث كانا بين الموز والزجاجات، المكان أكثر أماناً من كونهم بين الشنط. كنا أيضاً نتجادل معها في حقها في النافذة؛ كان يحيى ذاهلاً عنها، ولم أعرها اهتماماً، أما بير فكان يحدثها بين الفينة والأخرى، وابتداء من تلك اللحظة أصبحت تسمى "رابطة الجاش غير الكاملة".

كنا قد تجاوزنا الجدول الثالث، وتغير المشهد العام فجأة. ظهرت أمامنا وديان ضخمة نون أن تكون هناك أحجار البازلت والجبال التي تظهر بين الحين والآخر التي كانت تثير استغراب يحيى. أنا أعرف الآن من أين نقل المصريون فكرة الأهرامات! كانت الجبال أهرامات ضخمة - معزولة وسط المشهد العام، ولم تكن هذه أول مرة نراها فيها، كانت تشكل جزءاً أساسياً من المشهد في كافة أرجاء النوبة العليا؛ كانت هناك جبال أخرى قممها مسطحة وثابتة، اقتربنا من شاطئ النيل بين أشجار السنط والنخيل، كانت القرى النوبية تتابع الواحدة تلو الأخرى، الحوايط المنتظمة، اللون الواحد، الانتظام في صفاء، أسوار بيضاء

## رحلة إلى السودان

alberos . كانت بعض القرى ذات لون بني مذهب، يكاد يلمع، تبدو وكأنها حصص من توع فاخر، اللون الأصفر الذهبي، بانعكاساته ووميضه، كان يكسو المنازل بالبذخ المعقد، لم يحظ بهذا إلا بعض القرى، كانت رمالها تبدو ذات لمعان أكثر من المعتاد. هذا كان يذكرنا أننا نعبر "واوات" بلد الذهب" كما أطلقه عليها المصريون القدماء.

كنا قد توقفنا في أماكن كثيرة وقرى عدة، كلها منتظمة وجميلة، المداخل وواجهاتها جميلة قديمة ورفيعة الشأن ذات هندسة جميلة من الطوب القديم، نجدها دائماً في المنازل القديمة والمهجورة، أما الميادين ففيها أشجار السنط والمساجد والجدران ذات الألوان المتعددة والنخيل، هناك حمير وأطفال يلعبون ويلهون ويجرون خلفنا؛ نعاء رشيقات يحملن طشتاً ورجال يحملون الفأس منحوا الظهور يعملون في الحقل، الجميع كان يحيينا بيده، الجميع يرحب بنا مثل الرعاة في الصحراء. إنه عالم قديم وهادئ، حيث يبدو أن الانسجام هو الملمح المسيطر، كان الفلاحون يحيوننا وهم يمتطون ظهور الحمير، كذلك من كانوا يمارسون أعمالهم الحقلية. سلام! كلمة يبدو أنهم يقولونها بينما تسير السيارة بمرعة.

شكنا أجسادنا من مشقة السفر وعدم وجود مراحيض، لم يكن هناك مرحاض إلا العراء وكانت المياه للشرب أكثر منها لغسل القدم أو الاستحمام. كان يحيى يؤكد أن البدويين يستجوبون باستخدام رمال الصحراء؛ لم تكن الفكرة مثيرة؛ أما حلاقة الذقن فكانت على الناشف، والدش لم يكن إلا حنفية في الأرض أو جركن مياه. كان جسدي يعبر عن هذا كله رغم أنني أرغمته ألا يشكو فلم يكن هناك وقت إلا لنعرف كيف نصل إلى المحطة أو المرحلة التالية. وكانت إجابته هي بعض التواءات الحميدة وبعض المتاعب في اللثة؛ كانت معدة يبر مقلوبة ورغم أنه كان يحمل كافة الأدوات المطلوبة في شنطة صغيرة، لكن بعض

المتاعب كانت غير متوقعة. كان أفضل شيء هو مضاد الناموس والـ aloe .  
بالله من اختراع.

كانت لدى شنطة الأدوية الخاصة بي، إنها يداي، حيث أفعل كما يفعل  
القنماء، أقترّب بها حتى تصبح على بعد ميليمترات من مكان الألم، ولم تخطئ  
مرة واحدة، كانت تنصّر الألم وتعالجني شيئاً فشيئاً وتملؤني بالطاقة. إنها واحدة  
من وسائل العلاج الأكثر قسماً وفعالية لدى للبشرية منذ نشأتها، ليس من  
الضروري أن يكون المرء ملكاً أو عالماً أو غير ذلك للقيام بالأمر؛ يمكن لأي فرد  
ممارسته، الهدوء هو كل ما هو مطلوب ومعه لمعرفة والصبر، أما الأيدي فهي  
من علدنا. وبالنسبة ليحيى، الأمر غاية في الصعوبة، فقد ظل بصوم رمضان،  
وكان يشعر بالوهن في أجزاء شتى من جسده. كان صوم رمضان غاية في  
الصعوبة عند المسافر، بدا جسده للدخل كأنه جسد مصغر لفقر محتاج، أما المرأة  
فبدت كأنها مصفحة، إذ تبدو ظاهرياً أنها لم تعاني شيئاً لا روحياً ولا جسدياً.

وصلنا كربة Kenna ظهراً، هي مدينة جميلة تطل على النيل، بها  
أشجار سامقة نوبات جنوع ضخمة، مدينة مفعمة بالحياة، كان هناك سوق عبارة  
عن مجموعة محلات تطل على النهر، هو نهر يعبر المكان بعظمته وضخامته  
وهدوئه. كانت المدينة مزدهرة وتمتد الحقول بزراعتها إلى العمق. أخذنا نتمشى  
فترة من الوقت تحت الظلال الوارفة لهذه الأشجار العتيقة، كانت المتاجر نصف  
مغلقة والناس قد واثاها النعاس. عندما أخذنا نصوّر مجموعة متراكمة من  
الأزيار الفخارية. نبهنا البوليس؛ لابد أنهم طنوا أن هؤلاء "الحاجوات"  
haguayat (الخواجات) هم أناس شديدي الغربة، إي يعجبون بأواني متهالكة  
بشرب منها الناس، وعلى أية حال كانت الأزيار طريفة. هنا كان يسكن النوبيون  
للدنقليون وتمتد رقعة المسكن حتى دنقلة، وكانوا يتحدثون بلهجة كنوز kunus  
مثل يحيى رغم أنهم يطلقون عليها دنقلوية.

## رحلة إلى السودان

أخذنا نسير هنا وهناك في تلك الأرجاء من الحقول المليئة بالاشجار والنخيل حتى وصلنا، خارج البلدة، إلى حيث أطلال العاصمة القديمة لقوش، تلك المملكة الأسطورية السوداء أكثر الممالك قديماً وواحدة من الممالك القوية في أفريقيا، تكاد تكون معاصرة لمصر القديمة، مصر الأهرامات. هناك معابد وقصور ملكية ومنازل وجبانات وأسور. كانت آنذاك في قمة مجدها عندما خرج العبرانيون من مصر. تحدث الكتاب المقدس عن قوش غير أن البيانات كانت متداخلة ببعضها، يؤكد للكتاب المقدس أن حام ابن نوح وابن ذلك الآخر، الملقب بقوش، هما أصل الشعوب الأفريقية بعد الطوفان. إنه تأكيد غامض وغير منسق، وحول هذه النقطة جرت أقلام كثيرة ونشرت أبحاث شتى في الغرب، وكاننا أمام التاريخ أو معالجة أحد العلوم. كان الأمر بالنسبة للمتخصصين في الكتاب المقدس يتسم بأنه جيد، حيث كانت هناك مملكة قوية مثل قوش في إثيوبيا البعيدة بلاد السود، ويستخدمون هذا الأمر لشرح أصول الأجناس البشرية، وبذلك يدافعون عن فكرة خاطئة تقول بأن السلالات الأفريقية ترجع إلى أصول سامية بينما هي في واقع الأمر على العكس تماماً.

كان النوبيون يطلقون على الأطلال المهمة في قوش مسمى "دقوفا" أي "الأطلال من الحجر" وكانت، في زملتها عبارة عن جبال اصطناعية، ومجموعة من مكعبات الحجر المجفف بحرارة الشمس، تشكل جزءاً من حوائط صلبة تقوم عليها المعابد، كانت عبارة عن ناطحات سحاب من طابق واحد يوجد أعلى المبنى، صعدنا جميعاً حتى أعلى "الدقوفا" الغربية، أي المكان الأعلى في المبنى، وأخذنا نتأمل من هناك الوادي الأخضر الذي يمتد حتى نهر النيل.

نظراً للثروة التي توجد في هذا المكان، تحولت قوش إلى أول مملكة في أفريقيا السوداء، كانت حدودها مترامية حتى وصلت إلى "أبو" (إيفاننتين، بأسوان) وذاع صيتها في كل أنحاء آسيا والبحر المتوسط. كانت كريمة، عاصمة

قوش، قائمة قبل ذلك بكثير، أي قبل أن تصبح عام 1600 ق.م. المدينة الأولى الأكبر في أفريقيا السوداء، كان المبنى الرئيسي للمقر الملكي، عبارة عن "دهليز لإقامة الشعائر"، مجرد خُصّ مستدير له سقف من القش. إنه عبارة عن كراال kraal أفريقي قح، بينما المنازل للعامة على شاكلة المنازل النوبية المعاصرة، أي من الطوب، والفرافات المنعزلة عن بعضها والصحن الذي يجمع بينها.

أطلق المصريون الأول على قوش مسمى "يم" وكانت قوافل الحمير تقطع المسافة بين "أبو" وهذه المملكة البعيدة في سبعة شهور، تعبر المكان عبر الصحراء وليس من خلال التيارات السريعة لمياه النيل. كان التجار المصريون يحصلون من هناك على المنتجات النادرة من بخور ومن فيل وأبنوس وجلود الفهود وبيض النعام وريش الطيور النادرة والذهب والعبيد، وربما كان هؤلاء هم الأفزام، لإدخال السرور على البلاط للفرعوني، ربما كان المكان حلقة الوصل بين أعماق أو قلب أفريقيا ومصر النحلة القديمة، إنه موق ضخم يضم الناس على مختلف ألوانهم وقبائلهم الأفريقية، كما كانت مركزاً للصحيح الذين يريدون الذهاب إلى الجبل الاصطناعي "النفوقا"، الهضبة المقدسة، الرمز الأساسي لأصول العالم والسلطة وملوك القوش. هناك كان تقديم القرابين بذبح بعض الآدميين تقريباً للآلهة النيلية.

كان السائق ينادينا بصغيره، كان الجو حاراً والوقت يمضي؛ أسرعنا جميعاً، ماعدا هذه المرأة. فقد ابتعدت عنا، ولم تكن متواصلة معنا وأخذت تغتش في الأثار. انتظرنا، كان البروفيسور حائراً. لست أدري ماذا أفعل! يا لها من امرأة عجيبة! أعتقد أنه قد حانت ساعة الحديث عن مقابل مادي لجهودي ومساعدتي، فكرت في أنه سيكون موقفاً صعباً. أخذت تتهاوى إرادته في تقديم معونة بلا مقابل، من هي تلك المرأة التي تُقرّع رجلاً على الملاء في السودان؟ وهو الإنسان الذي كان يساعدنا.

## رحلة إلى السودان

رحلنا وكانت مسيرتنا بمحاذاة النيل كانت كرمة بلدة ضخمة، وحرارة الشمس تطغي؛ بالقرب من المكان كانت بنوبس Pnubs ، على " دقيّ جل Duakki Gel ، أي 'الهضبة الحمراء' حيث أقام المصريون رقعة عمرانية جديدة مكرسة للعبادة، وبالتحديد للإله آمون، فهناك المعبد الأكبر في النوبة قاطية. أقيمت هناك تماثيل رائعة لملوك نبادة، مخبأة في مخزن طقسي؛ كان ينظر إليها على أنها مسحورة، مثلها مثل كافة التماثيل الفرعونية التي خبأها أهل قوش على مدى قرون طويلة.

وبعد فترة من الوقت ونحن نسير وسط التخيّل عبرنا ترعة ووصلنا إلى العوامة التي ستقلنا إلى الشاطئ الآخر. هناك توقعنا، فقد كان علينا الانتظار حتى تجمع المزيد من الركاب وتملئ عن آخرها. هنا أدركت أننا في جزيرة أرجو Argo ، على مسافة بسيطة من المكان الذي عثر فيه على تماثيلين كبيرين متحرجين على الأرض، أمام أطلال معبد كبير يرجع للعصر المروي، كنت أود أن أراه، وأن أذهب إلى طابو Tabo ، لكن لم يكن هناك متسع من الوقت؛ لم أتذكر لحظتها أم مفهوم الوقت في السودان هو في أغلب الأحيان مفهوم نسبي.

كانت السيارة فوق العبارة، غير أن كل الناس، أي المسافرين الافتراضيين، كانوا على الشاطئ، كانوا يستحمون، ويتزلجون على شاطئ طيني ليهبطوا إلى مياه النيل. تمكن يحيى من تجاوز منطقة بها تيار شديد واتجه صوب جزيرة بها نخيل. كان بعض الفتية يلقي إلى بالتحية وهم في الماء ويدعونني إلى مشاركتهم في الاستحمام، انهما الميكانيكيان؛ أخذنا يغسلان جسدیهما وملابسهما بالصابون والمياه. أجسادهما تقطر مياهًا، شبه عاريتين. غير أن ذلك النل وقف حائلًا بين الدعوة والرجاء، كان من المستحيل الوصول إلى ذلك المنحدر دون أن يكون المرء قد تمرغ في التراب. انتابني شعور

بالإحباط، فاخترت أن أصعد إلى سقف السيارة وأأمل مشهد النيل، تحت هذه الشمس الحارقة. يقول الناس إن مياهه ممغنطة، تصفي الحيوية والصحة على شعوب النيل. كم أود أن ألقى بنفسي في حصنه!

عبرنا نحو الضفة الغربية، أي اجتزنا مسافة تصل إلى كيلو مترين من المياه، كان هذا القطاع من النيل هادئاً، التيار فيه من أسفل يتجه صوب الجندل الثالث، نزلت من سقف السيارة عندما وصلنا إلى الشاطئ الآخر، كنت على وشك أن أملير في الهواء من جراء الوثبات التي فعلتها سواراً الجيب وهي تنزل إلى الشاطئ الطيني. أخذنا نسير بمحاذاة النيل الذي كان يتبدى بين الفينة والأخرى إلى يمارنا، وهناك مجموعات من النخيل تذكرنا بأننا قريبين منه، تمتد السهول دون أية هضاب أو مرتفعات مثل تلك التي تطل على شاطئ نيل مصر؛ لم نتوقف عند العديد من القوى النوبية التي مررنا بها، هي قرى لها جدرانها وحدائقها، قرى منتظمة، مبانيها نظيفة، كنا نسير على أثر سيارات مرت، بإيقاع كأنه إيقاع موسيقى.

كنت سعيداً لموضعي في وسط السيارة، إذ كان الظل دائماً إلى جانبي وكنت أجلس على مقعد جيد، كان المشهد عندي أقل، لم تكن إلا صوراً أراها من خلال النوافذ مربعة وكأننا نشهد شريطاً سينمائياً ولو أنه أضخم، أي سينما سكوب. هناك فلاحون يمتطون ظهور الحمير، أطفال يصيحون "حاجوايات haguayat وهم فرحون بما اكتشفوه، ونساء يرتدين ملابس زاهية ملونة تملأ الابتسامة وجوههن، كان الجميع يحيينا. كانت هناك مجموعات من النخيل تشكل ما يمكن أن ينظر إليه على أنه واحة صغيرة، تتتابع القرى على مسافات منتظمة تتخللها مناطق صحراوية.

كان يحيى نائماً، أما أنا وبيير فقد كنا في دردشة مستمرة، انظر، يا لها من واجهة باب! وهذا الآخر، وذلك اللون، والنخلة. كنا راغبين في البقاء



## رحلة إلى السودان

والشمس في المكان كله، كان المشهد يطير، أين سنكون؟ كان بير يقول: وأنا الذي كنت أريد أن أرى بورسودلن! ثم نضحك. أمضينا ساعات ونحن مصافرون، إنها ساعات مرهقة، نحرقنا الشمس فيها. كانت الشمس قد هبطت من كبد السماء لكنها كانت قوية. انتاب بير الملل للحظة، لماذا كل هذا؟ من هو القائد هنا؟ من الذي يستأجر السيارة؟، لنتوقف قليلاً. وبعد نصف ساعة توقفنا على جانب الطريق الذي كان في هذا القطاع، عبارة عن طريق تحف به الأشجار، أي أنه شارع رئيسي لبلدة صغيرة.

جلسنا على الأرض. كان الظل وارفاً وإلى جوارنا أزيار قديمة مليئة بالمياه، جردان وأبواب منازل ذات لون أبيض، وفي المواجهة، مسجد وحديقة بها نخيل وزهرة الجهنمية. اقترب منا بعض الأطفال، أخذت الكوز مثل أي مسافر وشريت من الزير الذي أشار علىّ به للميكانيكيان، الماء بارد ومنعش، ثم استأنفنا الرحلة بعد أقل من نصف ساعة، أي حوالي الرابعة، وصلنا إلى مدينة حديثة، تقع في منطقة سهلية، بعيدة عن النهر، إنها دنقلة!

دنقلة! لكن هذه مدينة بها منازل وطبقة وشوارع مستقيمة تحفها الأشجار في مشهد ليس به هضاب أو مرتفعات. هل هذه هي المنطقة الجديدة في المدينة؟ وهل نحن في الأرياض منها؟! كنت أعبر بهذه الكلمات عن استغرابي؛ لكن، يا يحيى، أين المدينة القديمة؟ قرأت في كتاب قديم أنها على مرتفع يطل على النيل والمنازل القديمة تعلّي الهضبة. لماذا إذن لا نذهب إلى الحي القديم للبحث عن مقام ونتأمل النيل من هناك؟ ماذا؟ ألا يوجد ذلك؟ هذا مستحيل. كانت المدينة موجودة منذ مائة وثمانين عاماً!... يا له من أمر عجيب، مدينة زالت من الوجود، بما في ذلك الهضبة التي كانت عليها... لماذا نحن في دنقلة؟ أخذ يحيى يتحدث ويتحدث. وفي النهاية بصيص من الأمل. دنقلة العجوز! دنقلة القديمة، إنها أمام كليوا Khilewa، نعم، إنها نحو الجنوب، لازلنا بعينين عنها. بدت

صورة دنقلة مستعصية على التحقق فلكما حاولنا الاقتراب منها تكفلت أمامناظرنا، دنقلة، لم تكن دنقلة، يا للغرابة. إنها بلاد السراب، ودنقلة هي السراب.

أول شيء قدموه لنا في دنقلة مكتبا فيه، هو عبارة عن فندق صغير على الطراز الكولونيالي، له فرندة تطل على الشارع ودراجة ملونة على الباب وصحن داخلي به أشجار فواكه وفي وسطه نافورة، كان هذا يذكرنا بصحن البيوت في سوريا، في دمشق. في دنقلة انتهت قصة رحلتنا مع السيارة الجيب. كان الموقف غريباً، فدنقلة هذه ليست هي التي تبحث عنها، غير أننا كنا نشعر بالسعادة. ها نحن في فندق به نض ودرجات مياه. سوف نودع رفاق الرحلة ونودع رابطة الجاش الناقصة، عالمة الأنثروبولوجيا. شعرنا بالألم لفراق الباقين، وتعلمنا القيام بجولة في انتظار موعد الإفطار. لم نفر بشيء من جزاء السرعة والاستعجال في الوصول، فهنا لا يوجد ما يمكن للمرء أن يراه، وكان من الأجدر أن نصل في ساعة متأخرة.

قالوا لنا إن علينا أن نذهب لتسجيل أسمائنا في مخفر الشرطة، هناك فنادق لم تكن تقبل الأجانب. أثناء وجودنا في الغرفة اكتشف بير أنه فقد نظارته. كانت نظارة جميلة على الموضوعة ماركة (Paston). قمنا بمراجعة خطواتنا، من المؤكد أننا نسيناها في هذه المحطة على قارعة الطريق. دلفنا إلى السيارة وجاءت بعدنا عالمة الأنثروبولوجيا والميكانيكي، وسرعان ما وصلنا إلى المكان الذي فيه الأزيار، لم نعثر للنظارة على أثر؛ استسلمنا للأمر؛ وفي هذه اللحظة ظهر على باب المنزل رجل يقول لنا بأنه عثر على النظارة وأنها لديه غير أن زوجته معها مفتاح الدولاب، وهي في هذه اللحظات تؤدي الصلاة في المسجد.

كان علينا الانتظار. جلسنا على الأرض، غمرنا جميعاً الصبر المشرق، ليس هناك أفضل من الراحة بعض الوقت، مرّ وقت طويل ولم تعد المرأة، لا بد أنها من الزاهدات، وفجأة قهرت "رابطة الجاش الناقصة"، كسرت جمود

### رحلة إلى السودان

صورتهاء، وأخذت تصيح، وقالت إنها ستذهب إلى مخفر البوليس، وما الذي ننتظره. لم أتمكن وأنا أنعم بهذه الهدية أن أقصّ عليها ما أنا فيه، شرحت لها أننا في انتظار استعادة النظارة ولأن الذهاب إلى مخفر البوليس هو أمر سوف نفعله جميعاً وكذلك السيارة. فقالت، وأنا هذا لا أدري ما للذي يحدث! أتى لنا فتى صغير بالنظارة، وودعنا الوالد وهو يشعر بالرضا لما فعله نحونا، ورفض تقبل أي شيء، لكننا استطعنا أن نعطي شيئاً للطفل.

كانت لزيارة سريعة للمخفر، عوملنا بلطف والابتسامات تكسو الوجوه، تحول يحيى إلى مشحوذ، لغت ظرفه لفتباه الضباط، وسرع من الإجراءات والاختتام والأسئلة، إنه وسط أهله، وهذا أكبر سند للمهاجر في ذلك البلد الذي نجهله. حاول يحيى أثناء تناول إفطار رمضان ونحن جالسون على الحصيرة أن يتسامر بعض الوقت مع "رابطة الجاش"، فحسب ما قال لي حتى لا تصورك في سردها لوقائع الرحلة على أنك نذب كابير وثينا المفترس، إنها لم تكن حتى ترمقي ولو بنظرة، أما بير فكانت تقدره، لا بد أنها سوف تصوّره على أنه أحد الرعاة.

حدث ما لم يكن في الحسبان في صحن الفتق بعد ذلك. فقد أدركت "رابطة الجاش" الناقصة أن نقلة التي نحن فيها هي آخر مطاف رحلتها، فأخذت تصيح وتصرخ؛ كنت أسمع الصرخات وكان المدرس يتلقى كل ذلك، غير أنه تغير مزاجه. أدرك من هو أمامه، وكنت ألاحظ غيظه الداخلي الذي كان يتجلى على تقاسيم وجهه ويديه وكلماته القليلة. ترك المكان وتركها وحدها؛ كانت لديه أمور عليه القيام بها، من بينها البحث عن محل النظارات لابتياح نظارة تهديها له، وبعد ذلك بيومين يعود أدراجه صوب وادي حلفا حيث على "رابطة الجاش" الناقصة أن تأخذ المركب.

كانت صورة نقلة في الليل أفضل فقد كان الطريق الرئيسي بها يتحول إلى سوق فيه حياة مليء بالمقاهي ومحلات الملابس والأحذية، اكتشفنا كشكاً به

عشرات من الطوافي من تلك التي يستخدمها أهل الملايو، وهي برابط مطرزة بمهارة ورقية؛ كان الاختبار صعباً، كان مصدرها بنجلاديش وباكستان والسعودية واليمن. البلاستيك في كل مكان، عبارة عن أواني وزهور من الصين، الكثير من الوحدات الصحية والمستشفيات والصيدليات توجد في هذا الطريق، وكلها مكرّسة، أو معظمها، لاحتياجات الأسهات والأطفال؛ كان الناس يتمشون في هدوء، يدخلون محلات الملابس، أو يأكلون وهم جالسون تحت الأشجار.

لاحظنا أثناء الرحلة أن الميكانيكيين لم يكونوا يأكلون اللحم إلا الخبز والبصل، لكن ابتسامتهم دائمة ونظراتهم وديعة. كان بير هو من أدرك ذلك. هنا قمنا بالانقلاب على عادة سيئة وطلبنا أن يشاركونا الطعام، كما كنا نشترى لهم بعض الأطعمة. انطلقنا إلى السوق في دنقلة يرافقنا أحدثهم سناً، كان يريد شراء بعض الملابس وصنّدل من البلاستيك على أحدث صيحة. وفي منتصف الليل، جلسنا لتأكل في أحد الأخصاص، على الرصيف. واكتشفنا البيبي الأبيض، ها هم هناك يبيعونه في عجوات أعيد استعملها، إنه اللبن المسكر. كان رائعاً.

كان بير يريد الاتصال بزوجه بأي شكل، حتى يهدئ من قلقها عليه؛ كان قد اتصل بها قبل لحظات من دخولنا المركب في أسوان، وما مضى من الوقت بدا وكأنه دهر، رأينا الكثير من مراكز الاتصالات ذات الألوان المختلفة، وتوجهنا نحو واحد منها يقع في شارع جانبي صغير. قابلتنا امرأة شابة غاية في الجمال ترتدي الساري الملون ولبت طلبنا؛ كانت هناك صور ضخمة لبحيرات في جبال الألب وحدائق غناء مرتبة ترتيباً جميلاً لقصور أوربية؛ إنها صور كثيرة الشيوع في وادي النيل الذي هو واحة خضراء وسط الصحراء؛ كان الاتصال سريعاً، قال بير لزوجه: نعم، هذا غاية في الروعة؛ أنا كنت أفكر في والدتي وفي تلك الفتاة اليونانية ذات العيون الجميلة التي طال انتظرها لي،

## رحلة إلى السوحان

فكرت في أصديقائي. لم أشأ أن أكسر الإيقاع، ولم أرد أن أعرف أية أخبار، طلبت منها الاتصال بوالدي اللذين تركتهما وليس في أيديهما إلا خريطة قديمة وإشارة وردت في كتاب هيرودوت.

في الصباح كانت "رابطة الجأش الناقصة" غاية في الخيظ من العالم، لم تلق بالتحية، كانت في ركن قصي من الصحن ومعها كتاباتها؛ أما بير فقد جلس على الطرف المقابل؛ وبعد هنيهة من انتظار الشاي الذي طلبه من النادل، رأى بير ذلك الرجل وهو يحمل فنجانين، وضع أحدهما على مائدة عالمة الأنثروبولوجيا، وعندما أخذ يبتعد ومعه ذلك الفئجان الآخر صاحت "رابطة الجأش الناقصة": لقد طلبت منك فنجاني شاي، ثم إن هذا الفئجان هو فنجاني! وتركت بير في دهشة مثله مثل الكاماريرو، الذي لا بد أنه فكر أن "الحاجويات" قوم غريباء، تطلب هي فنجاني شاي ويبقى بير بلا أي شيء. أعقد أنها ستصفنا بالكثير وهي تتحدث عن رحلتها، ربما أننا جمع من الذئاب.

وبعد هذه الاحتفاليات التي أضفت على الصباح لونا معينا، انطلقنا إلى السوق بحثاً عن بنك لتغيير العملة دخلنا أحدهما، وهناك قوبلنا بما أذهلنا، البنك لا يغير فقط إلا الدولارات؛ ربما تجد غير ذلك في البنك المقابل. وهذا ما حدث، فعلى الرصيف المقابل كان هناك بنك، هنا لا يقبلون إلا اليورو، لا يقبلون حتى مجرد رؤية الجنيه المصري؛ قالوا لنا: ربما تجدون ذلك في الخرطوم. وهنا تَسَمَّر بير في مكانه وأخذ يتحسس جيوبه المملئة بالجنيحات المصرية. خرجنا إلى الشارع المكتظ بالذاس. كانت المتاجر كلها مفتوحة، والأكشاك والبضاعة معروضة على الأرض من ملابس وبلاستيك زخرفي وفواكه، وخبز وخضروات، كان هناك بيض غريب الشكل يتناقله الناس. هناك تروسيكلات ذات موتورات، بدون أبواب، سقفها مقوس، تقوم بدور التاكسي (التك تك)، بدت وكأنها لعب مسلية. ضحك كلانا أنا ويحيى وقررنا أن نركب

أحدها، لكن بير الذي بدا عصبياً غاب عن نواظرننا بحثاً عن مياه، عن فاكهة، عن أي شيء.

وفي منتصف النهار، في الفندق، ودعنا الجميع، ورافقونا حتى شاطئ النيل، وقفنا خارج الفندق وقتاً، في شارع رملي به بيوت من الطين، وقفنا تحت ظل شجرة صغيرة، بينما كان يحيى يبحث عن شيء. مرّ بنا الأطفال وهم خارجون من المدارس، يحملون كتبهم في أيديهم؛ وكالعادة اقتربوا منا، ولتهدئ بهم الأمر إلى قهقهة جماعية أمام ألعاب بير، اقتربت من الباب الذي دخل منه يحيى. خرجت امرأة شابة تحمل ابنها الصغير على يديها؛ كان الجو خائفاً. قدمت لي مشروباً مثلجاً وهي تبسم. قلت: لا، أنا صائم. هل أنت مؤمن؟ فبرزت رأسي بالإيجاب، نعم، - فكرت - أوّمن بالطبيعة غير المرئية التي بين أيدينا واتصالها بكون لا نستطيع أن نلمسه مع أنه قريب، أوّمن باحترام العقائد الأخرى لأن الأسئلة واحدة بالنسبة للجميع.

عبرنا النهر مرة أخرى في مركب من الصفيح ملئاً عن آخرها بالناس؛ على الشاطئ الآخر صنعنا بأطراف أقدامنا منحراً طينياً وكل منا يحمل حاجياته؛ وهنا أدركنا أن حياة البذخ قد خلفناها وراءنا في سيارة الجيب المتهاكة. كانت الشمس تزداد ثقلاً كلما مرّ الوقت، كما كنا نجر أيضاً شنط بلاستيك كبيرة بها المشروبات والأغذية، فقد أخبرونا بأننا لن نجد شيئاً لنشتره خلال الأربعة وعشرين ساعة القادمة. كانت حرارة الجو لا تطاق، وعندما وصلنا إلى أعلى الهضبة ارتسينا ونحن منهكون على بعض أجولة الدقيق المرصوفة إلى جوار حائط. كان مسجداً في الهواء الطلق تكاد تغطيه شجرة وارفة كأنها قبة المسجد؛ كان هذا هو الظل الوحيد في هذا الخلاء، الضخم، الذي توجد به بعض الأماكن التي تضم محلات ومشروبات. هناك الكثير من سيارات النقل الصغيرة متوقفة، تبحث عن زبائن يكسو وجوههم الهدوء، أخذت

## رحلة إلى السودان

تمتلي، تخرج من العبارة (العوامة) سيارات النقل المحملة، الكثير من السيارات، والناس للسائرين الذين يجرون "بقجاً" كبيرة، أخذت الساعات تمضي وبسط قيظ الممساء.

أخذ يحيى في البحث عن سيارة، وهنا قمت أنا وبير بعرض شروطنا بشأن السيارة. نريد سيارة أفضل من سيارة الجيب السابقة، هذا كحد أدنى، أنا لم أرَ إلا تلك نصف النقل، وبدا الأمر صعباً بعض الشيء، كان بير عصبياً، كان يصصر على أن يحيى ومعه الجميع قد أخطأوا، وأنهم تركونا في مكان غير ملائم، وكان من الأفضل أن نبحث عن سيارة ونحن في دنقلة. لا، يا بير، هذا المكان هو محطة السيارات المتوجهة إلى كريمة Karima. الأمر في دنقلة مملاً لما هو هذا، لا يوجد إلا سيارات نصف النقل، أخرج بير كراسته وأخذ يرسم؛ كانت هذه لمحة محربة هيأتها تلك اللحظات التي عشناها أحاط بنا الأطفال الذين في المكان، كان الجميع يريد أن ينظر إلينا ويسألنا، ويضحكون، كانوا جميعاً يريدون أن يتم تصويرهم.

كان إلى جوارنا الكثير من الفلاحين ينتظرون، يضحكون هم الآخرون، وسيارة دفع رباعي بها اثنين من الأوربيين المحبوسين داخلها، يدوران كأنهما قطان في قفص. لم يكلفوا أنفسهم عناء التحية أو الخروج، اللهم إلا إذا طلبنا منهم شيئاً. كان هو ينظر إلى اللانهائي، أما هي فتتظر بطرف عيناها. ظلوا على هذا الحال وقتاً طويلاً، حتى تحركوا. وضعوا السيارة في العبارة، وظلوا فيها! إنها قفص مكيف وربما كانت هناك موسيقى كلاسيك، والكثير من الأنانية والمقاهيم المسبقة. صحيح، أنا كنت أرثدي جلابيتي البيضاء، ويحيى نوبي لسمير البشرة، إلا أن بير وأنا بدونا حاجوايات بما لا يدع مجالاً للشك، وهذا ما لم يتوقف الأطفال في القرى عن الصياح به، كنا. خواجهات جداً مثل القطط التي تنتظر إلينا من وراء الزجاج.

في تلك الأونة كان يحيى قد تحدث واتفق مع صاحب سيارة نصف نقل خلفيتها بدون سقف، وهي الميارة الوحيدة التي تمكن منها بسحر جيد، سوف أركب أنا وبير في المقاعد الأمامية وتذهب بنا السيارة إلى دنقلة العجوز. خرجنا بعد ساعة، أي في الثانية بعد الظهر. وضعنا "البقيج"، ربطوا التشنط في الجوانب، وأخذنا ننتظر. اختفى يحيى دون أن نعتز له على أثر وأخذ الفضاء يتسع، وريداً رويداً أصبحت سيارتنا وحدها. وفجأة أتت امرأتان ومعهما الأطفال وركبتا في كابينة السيارة. اغتصبتا مقاعدنا. أغلقنا الباب بقوة، وحدثت مشادة كلامية داخل السيارة، وبعد لحظات قليلة استولى عشرون فرداً على السيارة وهم يحملون أمتعتهم وجلسوا.

فكرت أن كل هذا سوء حظ وأمر يثير الضيق. ظل يحيى مختفياً، وشعرت أنا وبير بأننا غير قادرين على أن نوضح لهم أننا استأجرنا السيارة. وصل السائق وحدثت صيحات ونقاشات. كانوا يطلبون منا أن نركب لأن السيارة سوف تتحرك. لكن، أين؟ نحن في المقدمة، أشرت بإصبعي، وأنا غير مقتنع بما فيه الكفاية، أشاروا هم إلى السيدات. إنها لعبة كش ملك. كان الأمر إذن هجوماً مباغتاً بالمعنى الحقيقي للكلمة. لقد استولوا على السيارة ولن يتركوها. أخذت السيارة تتحرك وهي تحمل أمتعتنا ولكن دون أن نركب. نفعتني الفلسفة الشرقية فهزلت ولحقت بالسيارة وعدنا. بخيظ شديد أنزلنا أمتعتنا، ورحلوا هم. لم يعد هناك أحد في الموقف.

وبعد فترة انتظار خلا منها الأمل وبدأت كأنها دهر، عاد يحيى للظهور من جديد؛ شرح لنا الأمر ونحن في حالة غيظ وغضب. خلال ساعات قليلة سوف يحين موعد الإفطار، وهؤلاء الناس يريدون العودة إلى قراهم قبل الإفطار. وهذه السيارة التي استأجرناها كانت آخر أمل لهم للوصول في الوقت المناسب، ولم يكن هناك مناص إلا هذا الحل، سواء بالحاجويات أو بدونهم.



## رحلة إلى السودان

كانوا يقولون لنا، السيارة تمعنا جميعاً، ثم رحلوا. رحلة البحث من جديد. سرعان ما أتى يحيى ومعه رجل طيب، هادئ سمح، عرض علينا أن يأخذنا إلى كريمة Karima ولكن بسعر مرتفع جداً، فكان ردّ يحيى هو التأفف من العرض، ومع هذا فالتقدّر - كما يقول يحيى - أحياناً ما يكون غريباً؛ كان عليه أن يعود ويطلب منه أن يحملنا إلى هناك؛ لم يكن هاك أحد، وكان حظنا جيداً أن كان هذا السائق من كريمة، البعيدة عن نفقة العجوز، ويعود إلى منزله، وإلا فلن يرحل بنا أحد. كان السيارة أقل شأناً من الأولى، فالجزء الخلفي بدون سقف، ولم يكن هناك مقاعد ذات مراتب، ليس إلا، اللهم إلا أعواد من الحديد وبعض الكاوتش فوقها.

أخذنا نفقز نحو الصحراء، ها هو شريط كاسيت آخر، وأصوات أخرى، الإيقاع نفسه المتكرر الرتيب. كنا في 'منحنى نفقة' التي تنتهي عند 'جبل البرقل'، كان قلب النوبة، ذلك الإقليم البعيد، الذي احتفظ بعبادته واستقلاله الذاتي، حتى تحت الحكم المصري، وظلت الثقافة النوبية سليمة لا تمس في هذا المكان. ذهب بنا لنشاهد الأطلال القريبة من مدينة قديمة 'جم لئن Gem-Aten أو كاوا Kawa، عاشت قووش، في العصر الفرعوني، فترة من الازدهار والسلطان الأفريقي وتجلت ذلك في المعابد والقصور، كانت على صلة مباشرة بمعبد جبل البرقل، كل شيء تغطيه حتى الآن كثبان الرمال؛ كان النيل يسيطر على المشهد، إذ يمرّ مجراه إلى جوار تلك الأطلال، هادئاً ومسيطرأ.

كان في كاوا Kawa المليئة بمعابد الدولة الحديثة، معبد شيدته توت عنخ آمون، ومن هذا المكان استخرج الكميات اللازمة لصنع قناعه للذهبي وباقي الأثاث الجنائزي. كان للملك ألارا Alara، مؤسس المملكة القرشية الجديدة في نوبة، مقراً دائماً، خلال القرن الثامن قبل الميلاد. ولم يتبق من أكبر المعابد المكرسة لأمون التي شيدها طهارة إلا بعض الكتل الحجرية، وقواعد الأعمدة

## رحلة إلى السودان

التي تغير لونها واضمحلت بسبب الرياح والرمال، ضمت النقوش الكتابية هناك الإشارة الأولى لمروى. فن في الطريق الصحيح.

كان الوقت قد تأخر، واصلنا الطريق؛ وعدد العودة إلى السيارة صعد بحى ويبر إلى الجزء الخلفي، أما أنا ففي الدرجة الأولى، في الكابينة؛ أخذت تمكة المحلية Sekat el-Miheila تظهر أمامنا، هي نفس الطريق الصحراوي، بعد تجاوز المنحنى الضخم اللؤلؤ والوصول إلى ما وراء الجندل الرابع، أي إلى جبل البرقل. وسرعان ما دخلنا الصحراء؛ المهل ممتد إلى ما لا نهاية، هناك هضاب مرتفعة على البعد، وبعض اللؤلؤ، تتوه الآثار في الكثبان الرملية، فالسيارة بعجلاتها التي خلت من الهواء كانت تسير بقوة؛ كانت تنزلق فوق المنحدر، بشكل جانبي، وتصعد متباطئة. وتتطلق في اللانهاشي كان هناك شعور بالنشوة التي تضخم هذا الإيقاع وهذه الموسيقى والسيارة وهي تنزلق فوق الزمال وتكاد تنفخ وهي تسير فوق الأرض الطينية التي جفت وبها آثار سيارات أخرى.

وأحياناً ما نجد الطريق عريضاً لدرجة تصل إلى ما يزيد على مائة متر، وتزداد السيارة سرعة، ويمكن لها أن تسير حيث تشاء في هذا الطريق الفسيح. في هذه التجربة الجديدة نجد أن أبعد نقطتين هو ما بين صخرتين في الجزء العلوي من الهضاب، ثم يعقب ذلك تغير مفاجئ في الاتجاه، كنا نصعد على الساتر الترابي لننزلق من الجهة الأخرى، غير أن السيطرة على عجلة القيادة هي الأساس كأنها مقود الحصان؛ من هنا يقال إن أفضل السائقين هم السودانيون؛ لم نعان أية أعطال أو مشاكل تتعلق بكاوتش السيارة.

لم نعرف أين نحن فوقنا وسط العدم، السهول بلا حدود والقراغ في الجهات الأربع في دائرة قطرها مائة كيلو متر؛ كنا نسأل بعض الرعاة الذي يرعى عدد صغيراً من الماعز ويمتثل بنخلة، ونسأل بعض الجمالة. كانوا

## رحلة إلى السودان

يشيرون إلى أفق يتوالى وراءه أفق آخر ويمتد أمامنا كأنه نقطة أبدية وبعيدة. عندما تسرع السيارة، نبدو وكأننا نطير ونقفز فوق الصحراء، ويتغلّت منا نغم موسيقى كأنه طيارة تنفق الفضاء. كان القليل ممن يصانفوننا يحيوننا بأيديهم، كنا نرد التحية؛ أتمسك بمقعدي، بدون حزام أمان تنقبض محنتي، كان الأكرينالين يلف رأسي، لم أرد التفكير، وكان السائق يضحك ويضرب بأصابعه على انمقود على إيقاع الموسيقى.

وبعد ثلاث ساعات، بدأ يظهر في الأفق خط أخضر، وسرعان ما وصلنا إلى واحة، كان النخيل قليلاً عند المدخل، ثم تحول إلى غابة حولنا، غابة ممتدة، تتبدى منها مئذنة بيضاء؛ كانت السيارة تنزلق فوق الكثبان العالية الصفراء التي كانت تهيئ ثم تتداخل مع غابة النخيل. عند المدخل هناك شجرة كبيرة تمتد أغصانها كأنها مروحة. في الجزء العلوي هناك نسر بني عشه؛ طار النسر عندما مررنا.

سرعان ما دخلنا في مخاضة رملية، نزلنا. كان هناك الكثير من المنازل، من الجدران المستطيلة الممتدة تحت النخيل، الحوائط مدهونة بالجير الأبيض تمتد فوق الكثبان. كان يبرر يشعر بهرج بالنع، استعاد الروح السعيدة المرحّة؛ بقى مع يحيى في الجزء الخلفي منذ أن تركنا بلدة كيوا Kawa وصل وهو يشعر بطرب داخلي مما رأى من الصحراء، والسماء يقيتها والميهول التي تمتد بلا نهاية والإحساس باللانهاية، وأخذ يتجدد عنده ذلك الشعور بالخوف من الأماكن المرتفعة. سألنا، إنها واحة لاتي Lati الرائعة، كان السائق يبحث عن صديق، وكانت الشمس على وشك المغيب وربما نقضي الليلة هنا.

استقبلونا في منزل يقع أعلى الكثبان الرملية، كنا محاطين بالكثير من المنازل والنخيل، هناك عدد كبير من الأولاد، وبعض البالغين، يبدون وكأنهم عائلة كبيرة، تحركات الجميع قليلة وخاصة من ثلاثة منهم يبدون كأنهم أخوة،

وجوههم مليحة ومختلفون عن كافة من رأينا حتى الآن، كانوا من القبائل العربية. للمدخل معطي وكأنه مرآب سيارة مليء بالأمرة، ها هو المأوى لنا. وضعوا السجاد فوق الرمال وجلسنا، أتوا بالتمر في صينيئات كبيرة، خبز ممتاز، أطباق من الخضار واللحم، وبعض الأطعمة البدوية الرائعة، أما الشراب فكان ماء التمر (عصير التمر) والشاي وقهوة رائعة. انتهوا ثم بدلوا الصلاة، كان القمر مرتفعاً، قررنا القيام بجولة.

كانت صقوف الجدران تسير على إيقاع الكتبان، المنازل صامتة، الفراغات واضحة، والنخيل يؤكد على دخول الليل بظلمته، كانت غلالة ضوء القمر تغمر المكان بإحساس يذوب فيه معنى الزمن، كان يأتي كأنه من وجود غير واضح، من تلك الغاية التي ينعكس شعاعها الفضي على الرمال. سمعنا موسيقى تأتي من بعيد، أسرعنا الخطأ وأخذت أرجلنا تفرق في الرمل في صمت في كل حركة، اقتربنا من إحدى الجدران البيضاء اللون حيث هناك أربعة فتية؛ لم نكد نراهم بوضوح، كل يرتدي جلبابه الأبيض، كانوا يجلسون عند مدخل منزل ويندنون. يصطحبون عوداً بدائياً مصنوعاً من الأغصان والأوتار، وآلة إيقاع عبارة عن إناء من البلاستيك، كانت الليلة ساحرة، تتصاعد الأنغام من تلك الأوتار تصحبها الإيقاعات الصماء والصوت الأجلج، كلها في الهواء اللاواعي، نداعب ظلال البحيرة وصمتها. وسرعان ما انضم البعض منا بصوته إلى الأنغام المغناة.

لجأت إلى مكان مظلم، كانت الأنغام الصادرة عن العود تجعل الليلة مفعمة بالعذوية، كنت بجلابيتي الزرقاء الداكنة ظلاً مثل كل الظلال؛ نظرت إلى القمر، وإلى أشكال النخيل وصعدت الكتبان. كان الضوء الأزرق يبدو كأنه قطعة شاش ضخمة تلف كل شيء. كنت أخمن أكثر من أرى. كنت وحدي، شعرت بأنني ذبت وسط ضباب أثري، كانت الموسيقى تأتي من بعيد، وصمت

## رحلة إلى السودان

غريب ذلك الذي بلغني، شعرت أنني يمكن أن أكون من تلك المكان وهذا الفضاء. كانت الواحة تحتضنني بسلام لم أعهد قبل ذلك هو شعور بالحب والسعادة وهدوء النفس. كل شيء: صوت العود من بعيد، الأشكال الصامتة وغير واضحة الملامح الدور النائمة وكتبان الرمال الباردة وحلقة ظلام غابة التخيل. لاحظت ذلك السلام الذي يغزو جسدي، أيمكن أن أطير؟ هل يمكن أن أصعد إلى النجوم صوب الجوزاء Orion النجم الثابت هناك في السماء؟ أو هل يمكن أن ألمس قمم النخيل وأقطع الهواء فوق الواحة النائمة؟ يمكن أن ترافقني في هذه لارحلة أنغام العود التي لا تسمع عن بعد.

عدت إلى المجموعة إلى جوار الجدار، كانوا يترنمون بأغاني قديمة من أغاني الواحة، لم يكن الصوت واضحاً فيما إذا كان لذكور أو إناث، فالأصوات كأنها خرجت من فلات من تصعد وتببط وتبدو النغمات كأنها أصدا. تحدد آلة الإيقاع من البلاستيك الإيقاع للموسيقى، بدا العود أنه جوهرة من جواهر أحد المتاحف يعزف عليها أناس ينتمون لعصور أخرى، الجميع كان يغني، كنا ما يقرب من اثني عشر فرداً، وفي الظلام ظهر آخرون وهم يحملون البطاريات (الكشافات) الليلة رائعة، ولم تكن نريد لها أن تنتهي، المزيد من الأغاني والأنغام التي تدفع بالليلة إلى الحكايات القديمة للواحة، وحالات العشق وأسرارها ومخاوفها وطموحاتها. كم قرن مضى على الصور التي كنا نعيشها؟ كان الليلة مذاق قديم، مغرق في القديم، إنه نبض زمن لا بداية له؛ منذ ألف عام كان هناك فتية يعزفون على العود في تلك الواحة، يرنو إليهم القمر، لم تكن نحن قد أتينا بعد، لكن الشيء نفسه حدث، أغاني تبغثرت وسط الظلال المائلة للزرقاء للنخيل.

عدنا إلى أماكننا غير راغبين، إلى أعلى الكتبان، قدموا لنا العشاء، في منتصف الليل، تحت ضوء النجوم، تحدثنا نحن الثلاثة، كنا على اتفاق فيما نقول: لماذا لا نظل هنا؟ بعد عدة ساعات أتى للجميع وقالوا بأنهم سيأخذوننا إلى

كازينو البلدة حيث يلتقي هناك السهري، كانوا أكثر من عشرين فرداً، كلهم من الفتية، بعد مमार اتخذناه وسط النخيل انتهى بنا الأمر للجلوس على قمة جزء مرتفع من الكثبان يتجاوز ارتفاع الواحة؛ كان ذلك هو الكازينو، غاية في البساطة على شاكلة النماذج الأخرى، لكنه رائع. جلسنا حسبما اتفق على الرمال حتى لا ننزلق، أثناء الليل كنا نرى قمم النخيل تحتنا، كان المشهد يمتد في القبة السماوية، المترعة بالنجوم المتلاكنة، تبدو وكأنها شديدة القرب منّا، تشكل سقفاً مكوراً يبدو كأنه قطعة زجاج تتلألأ.

علا صوت الموسيقى من جديد، كانوا يتراقصون، البداية في صف وعلى الإيقاع، على طريقة النوبيين، وبعد ذلك ففرات غريبة، الجمدة كله إلى الأمام، القدمان معاً متخذتين أشكالا تذكرنا ببعض الحيوانات، ربما كان ذلك نوعاً من تقليد لمحاربين قداماء، أو رقصات قديمة اعتادها الصيادون. يحترق أجسادهم، ويرفعون أذرعهم على الإيقاع الموسيقي، دعوني فلحقت بهم وأسلمت نفسي لهذه الحركة المتموجة؛ في هذه المنطقة المرتفعة، فوق الكثبان يمرّ النسيم ويمسح ضوء القمر، والأصوات القديمة في مسامعي، وأبين العود بدغدغتي من الداخل. رقصت، في قلب النوبة، مثلما رقصت كثيراً في مصر. الإيقاعات تخصها، والتعبير عن الأسى على ما فات.

امتدت الجلسة طويلاً، أخذوا يغنون أغاني قديمة، كان نغمات العود تنتشر ومعها الإيقاع، كل ذلك يثري ساعات الليل. انخفضت الحرارة، شعرنا بالبرد؛ أخذنا نذهب وتواعدنا على أن يأتي كل واحد بأصدقائه في البلدة، وبعد فترة وجيزة أصبحنا وحدنا أنا والموسيقيين الاثنين، ظلاً يعزفان ويعفان حتى مطلع الفجر. تقريباً؛ تمت القليل من الوقت لكنه كان يوماً عميقاً. كان الناس جميعاً في ذهاب وإياب قبل أن تطلع الشمس. أخذ الضوء البارد يفتش وسرعان ما أذاب سحر الليل؛ لا يمكن أن يكون هنا أكبر تقابل بين الليل والنهار أكثر من

## رحلة إلى السودان

ذلك، كل شيء واضح ومحدد؛ صنبور واحد، ودورة مياه واحدة، عبارة عن حفرة في الأرض. كان ذلك هو ما حصل عليه السائق لنا. كنا راكبين صوب دنقلة العجوز، لم يكن أهل الواحة يعرفون جيداً أين هي، فلم يذهب إليها أحد أبداً، كانوا يقولون: نحو الجنوب.

ركبت في الجزء الخلفي، مع يحيى، لم أكن مهياً لهذه الجلسة، طارت الطاقة مني وطلبت من السائق أن يقلل السرعة؛ لم يجد ذلك، كانت السيارة تندفع على الكتيان متجهة إلى أسفل، تتقاذف بين المخاضات، تمتد الواحة، تتخللها قنوات ونخيل عال وقصير، ومنازل بيضاء اللون على الأرض. كانت تشبه الفردوس؛ سرعان ما خرجنا إلى الصحراء، وأخذنا نسير في العدم بسرعة عالية، كان يحيى راكداً على فرد كاوتش، منكوراً كأنه شكل اسطواني، يحتفظ بتوازنه ويبدو أنه نائم؛ أمر غريب كنت أمسك أعواد الحديد بقوة، أجلس على كتبة حديدية فوقها بطانية مهالكة. كانت الزجاجات تقع خلفي، وتصب الشمس حممها فوق رأسي، جسدي متصلب ويدي تمسكان بأعواد الحديد؛ كنت أنظر إلى الخلف أعطي وجهي حتى لا تؤثر فيه الرياح والرمل كثيراً، إنه الإحساس بأننا نعيش الانخفاض والارتفاع كأننا نلعب لعبة "الحبل الروسي" التي تزداد قوة وحدة.

كنا نتقاذف بالسيارة، وكنا لن نظير جميعاً من السيارة في إحدى هذه اللحظات. لم أتمكن من الاستمتاع بالمشهد وأخذت أفكر. كيف تمكن بير من الاستمتاع به في المرحلة السابقة؟ كنت أقول إنه كان هائلاً ويغلب عليه التأمل عندما كانت السيارة مسرعة؛ حقاً، عندما دخلنا الواحة كانت الأرض ناعمة والشمس آخذة في المغيب، لم تكن تلك حالتي. إنها مسألة البقاء، كنت أنظر إلى الصحراء وكيف أنها تفر وتغلب بينما أقبض بيدي على الحديد. أين منتهانا؟ سوف يكون الهلاك بالاصطدام بصخرة أو أي نخلة. ولن يعثر علينا أحد؛ هذا ما كنت

أفكر فيه، تركت كل شيء لعناية السماء، كاليت السيارة تدور وتقفز وتزلزل، لم أتمكن من تناول شيء لأنني ممسك بيدي لأحافظ على توازني، ربما بلغت الحرارة 50 درجة، أشعر بأنني أنصهر، لكن التوتر كان كبيراً. ذلّب دماغني ثم أخذ يسيل.

أخذت أفكر في ذلك اللثائي الأسباني الذي أجزّ جمالاً للوصول إلى وادي حلفا، لاشك أنهم تائهون مثلنا، استغرقنا أحد عشر يوماً من نقلة حتى المحطة التالية، يا لها من علة! وبعد فترة كنت أشعر أنها دهر؛ توقفت السيارة ونزل ببر. مضت عدة ساعات من السفر، كنت أشعر بشيء من الخوف دعاني للجلوس في الكابينة، كان قد خمن صرخاتي الذهبية التي أطلقها في الفضاء وطالباً التجدة، ظل يحيى على حاله منكوراً في المؤخرة. تحسن المشهد كثيراً وأنا في الكابينة، الموسيقى العالية، هناك مقعد وسقف، تفتح الصحراء أبوابها لكن كنا هناك. إنه اتجاهنا، البحث عن مدينة مفقودة لا يعرفها أحد؛ نحن بين يدي مائق رابع، دائم الابتسامة ينقل إيقاع الموسيقى إلى المقود، يظهر السراب في الأفق، يغمز لنا ببخيرات الضخمة المتلألئة، ثم يذوب فجأة في جبال من الرمال كل شيء لا واقعي، كل شيء حقيقي.

بعد وقت طويل ونحن نرحل عبر الصحراء لمحنا، عند بعد، بعض الأطلال السوداء التي تعلو كثباناً مرتفعة من الرمال، وعندما اقتربنا اتضح أنها غابة من القباب المدببة تبدو كأنها أهرامات، نطحتها الروابي؛ كان ذلك جبانة إسلامية قديمة؛ تذكرنا القباب المفتوحة بخلايا النحل، كأنها غرف صغيرة من آجر أحمر علاه السواد، وفي الجزء العلوي للهضبة هناك مبنى كبير يبدو أنه قصر قديم، هو مسجد قديم. وفي المنطقة المحيطة، خاصة في الجزء السفلي، اكتشفنا تيجان أعمدة بيزنطية، والبازليكا ذات الأعمدة، وأبدان أعمدة من الرخام الرمادي تحيط بها الرمال من كل جانب؛ ظلت على حالها لم يمسسها أحد؛ كما كانت حوائط أنيرة كبيرة وقديمة.



## رحلة إلى السودان

في الجزء العلوي، المظل على النهر، عثرنا على أطلال مدينة مهجورة، إنها دنقلة العجوز العاصمة القديمة للنوبة! لكن أين هي المدينة الفخورة بنفسها التي تقع على هضبة عالية تطل على النيل؟ وأين هو بحر النخيل الذي كان يحيط بها؟ أين هي الأبراج العالية التي شاهدها كيلود Cailliaud ، بأبوابها الضيقة التي تؤدي إلى دهاليز، ثم أين الكثير من المنازل؟ أين هي الشوارع في الأجزاء العليا التي تصغر فيها الرياح حاملة الرمال؟ لم يعد هناك شيء من دنقلة، أصبحت مهجورة تماماً؛ عبارة عن ذكرى دفنتها الرمال، لازالت حتى الآن حية بعد مأساة شنيعة. لقد قضوا عليها في الحروب الاستعمارية، في نهاية القرن التاسع عشر، لازالت هناك حيطان المنازل والأبواب، والنوافذ مبنية مفتوحة، وصوامع الغلال والمطابخ. غزت الرمال كل شيء وإسود لون الدعامات الخشبية من جراء الحريق، وتهاوت المحيطان.

كان من البدهي أن تطوف الأشباح ليلاً بالمكان، بهذه المنازل والشوارع، يسكنها وصلاتها، لا بد أن الرياح كانت تضرب بأعقاب الأبواب وبالضبائت، وتثخن كمرات السقف الخشبية كأنها تتعرض لأقدام من يمر، وترسم الرمال ظلالاً ثم تتوه بين أطلال الأبراج والكنائس، تبدو خطواتي وكأنها ترن في الواجهات القديمة، أين هي تلك النظرات النسوية التي تطل من وراء النوافذ، وأين هم أهلها من الرجال من ذوي الشأن والفلاحين والرهيان، وثروتها الحيوانية؟ كنت أدخل عبر الأبواب المفتوحة وأأمل الأشكال المرسومة التي تتسم بالبساطة، على الحوائط؛ كانت أشعة الشمس تعبر من خلال الكمرات المكسورة، بينما هناك جبل من الرمال يغطي نصف المكان، في الطابق السفلي كانت "الزوايلع" مرصوفة، في انتظار الحصاد التالي، لكنها لا تعرف أن قد اختفت صيحات الأطفال والخطوات المتسارعة على الرمال. دنقلة التي نبحث عنها لم تعد موجودة.

نكرني كل هذا بأبراج ماني Mani المهجورة جنوب بيئو بونيسو Peloponeso في اليونان. بعد دفقة التي لم يعد لها وجود خرجنا إلى الصحراء مرة أخرى، كان النيل يتعد، عن يميننا، عبارة عن خط من النخيل؛ كانت هناك مزارع أيضاً؛ نلمح بين النخيل كثرة من أضرحة الأولياء، إنها المقامات أو "قبة الفقير" حسب التسمية الشائعة، هناك أبراج ضخمة من الطوب ذات أشكال مرتجلة كأنها هياكل كتلك التي توجد في شرق آسيا تقطن ذلك للمشهد الليلي، لمحا أحدها، يتسم بالضخامة مكون من عدة أدوار بالقرب من كرمة؛ لا بد أنه كان مقصد الحجاج الذي يفد إليه بالآلاف؛ ولا بد أنهم كانوا ينامون تحت غابة النخيل المحيطة به، وهو مولد ينبض بالحياة. في إطار البساطة التي هي طابع النوبة العليا، نجد بساطة حياة الفلاحين؛ للمشهد المكثوف، وتلك الأضرحة الرائعة كانت عبارة عن زخارف رائعة، إنها لمحة فريدة في ذلك العالم، جوهريّة في أبعادها وبسطة التنوع الزخرفي.

توقفنا في الطريق دون أن نتشاور، شعرنا بالراحة لما فعلنا ونزلنا؛ كنا في قرية، المنازل قليلة في وسط قاحل، إلى جوار فرندة رطبة، كان بالقرب من المكان هرم صغير شهناء في قرى أخرى، إنها ميني إنجليزية لازالت قائمة في مكانها. عبارة عن بناء أسمنتي به زيران، سبيل للمسافرين. اقتربت. على أحد جوانب، المدخل رسم أحدهم برصاص أسود أرفع نمط من الجرافيت عرفته في حياتي، يبدو كأنه واحدة من للمتمنات الفارسية. هناك عصفوران يزقزقان داخل قفص مفتوح. من رسم المنظر؟ إنه شاب مجهول من هنا ذات يوم.

كان هذا المبنى غرفة مريحة ورطبة ومليئة، بها مروحة سقف، مدهونة باللون الأخضر، ومبطنة بعلب الصفيح المتعددة الألوان. كانت هناك أجولة، وخلف ذلك المحل هناك رجل ذو شعر مجعد يعلو ملامحه البشر. نظر إلى مبتسماً؛ ملامحك تقول إنك عربي؛ ظللت أرمقه محدقاً فيه وأنا أشعر بالرضا. لم

## وحالة إلى السودان

يصبق أن قال لي أحد هذا، عربي، يا للفرحة عربي، نعم، وزميلك لبناني، هذا أكيد. شكراً يا صديقي، لما يحيى فلا يمكن أن يصدق أنه ليس نوبياً من حلفاء. كانوا يتحدثون اللهجة نفسها، لهجة كنوز بأسوان وكوم أمبو وسهيل، حيث يطلقون عليها متوكي Matoqui .

خرجت وقصصت ذلك، فرحاً، على بير الذي كان يأكل ويشرب ويدخن بلا توقف ويشعر بالرضا، يجلس على سرير في الفرندة تحيط به مجموعة من الفلاحين الذين تملو الابتسامة وجوههم. أنار أحدهم إلى يحيى، ونظر إلى قائلاً: لكن هذا بلون بشرته الشاحب لا يمكن أن يكون عربياً إنه رمادي. لا يهم. تذكرت أن قصص الأطفال التي كانت تقدمها لي والدتي الرحيمة بعنوان 'البلاد البعيدة' كنت أنظر إلى نفسي على أنني ابن المفتي وليس ابن القس لمبشر. تمكن صاحب المحل من أن يكشف في دخلي ماضياً كنت أشعر أنه يسيل في مسامي، ها هو واحد آخر، حلقة في سلسلة هؤلاء، لكنه ربما كان أكثرهم شاعرية، وعميق الإنسانية.

عند مخرج القرية تركنا السيارة ونخطنا منطقة خالية، كانت هناك أطلال منتشرة على الرمال ومداخل لمقابر تحت الأرض محفورة في الصخر. وما بقي من تلك الآثار الضخمة هو هذه الأكوام من الحجارة؛ كانت عبارة عن مصاطب كبيرة لتلك الأجيال التالية في كل من قوش وكاوا Kawa ، أي مؤسسي المملكة القوشية الجديدة، وبعض الأطلال المتهاكمة لهرم عبارة عن كتلة صماء، إنه أقدم هرم في النوبة، هرم بيانكي Pianky أو بيي Piye ، نباتي (من نبات) المصريين، السيد الجديد "لأراضي الجنوب" من غزا مصر، مؤسس الأسرة الخامسة والعشرين، الأسرة السوداء خلال الفترة بين القرن الثامن والسابع ق.م. وهي أسرة مكونة من خمسة فراعين وعاصمتها نباتة.

كنا في كورو Kuru، الجبانة القديمة لمملكة قوش، حيث تولى فراعنة

آخرون من السود هم شاباكو Shabaqo، وشيبكو، وآخرهم ثانوت آمون Tanutamun. ومن بقى كان طهارقة الذي ذهب للإقامة على الشاطئ المقابل. هناك أيضاً تم دفن ملكات مثل كالحانا، وملوك آخرين من قوش، وكذلك خيل من خيول العربات الحربية، في أربعة وعشرين مقبرة، كان الملوك يحبونها. اقتناءها، استأنسوها في "منحني دنقلة" لتقديسها كقرابين وتصديرها. فتحوا لنا المقبرة الصخرية لقانوت آمون، بها نقوش زخرفية جئاترية رائعة الألوان، عبارة عن نماء يرتدين أزياء الأبهة، وأشخاص ملونين بألوان غريبة، وأسرة فوقها الموني، وهذا ملمح غير مسبوق في الثقافة النوبية القوشية التي لا زال يهتدي البدو يهديها.

عندما خرجنا قم لنا الحارس كرامة، هي كتاب تسجيل الزائرين، فتح الكرامة ودعانا إلى الكتابة، قرأنا الإهداء الوحيد في ذلك اليوم "نحن أسبان نقوم بزيارة السودان..." عندئذ تذكرنا أن دنقلة للعجوز كانت مقصد بعض السيارات القادمة من الصحراء، إنها سيارات دفع رباعي لها زجاج محتم، منها نزل عدد كبير من السائحين؛ على البعد، لم نذكر أنهم مواطنون منا من نوي الطبقة العالية.

واصلنا الرحلة، اتخذنا طريقنا بالقرب من النهر، هو طريق تحف به الأشجار والمزارع في الجانب الأيسر، وغابة من النخيل على الجانب الأيمن، بمحاذاة النيل. عندما انتصف النهار ونحن سائرون، أخذت القرى التي نمر بها تفقد جمالها. لمحنا الجبل المقدس عن بعد. إنه جبل البرقل، كان جبلاً وحيداً في عمق السهل، له نتوء عجيب في ذلك الطرف المطل على النيل، عبارة عن شبه عصا؛ واصلنا السير على هدى الأثر حتى دخلنا فيما يبدو أنه قرية كبيرة. إنها كريمة، لم يكن هناك بها إلا فتنتان، لا خيار بينهما في الموء، لكن المشهد هو الذي يجذبنا؛ لا بد أن سحنتنا خانت أفكارنا. كان السائق قد دعانا إلى منزله في

## رحلة إلى السودان

تلك الليلة وكان يلح في هذا، ثم يستأجر لنا مكاناً في اليوم التالي، وسوف يدخل المرور على قلوبنا ويقيم حفلاً موسيقياً حتى ننسى الواحة بعض الشيء.

عبرنا البلدة، صعوداً على المنحدر حتى وصلنا إلى منطقة خالية كأنها ميدان، هناك كان منزله، به شجر وصحطان ومساحات كبيرة، سقطنا من الإعياء على سريرين في الهواء الطلق، انطلقت إلى المرحاض، فلم أذهب لقضاء حاجتي منذ أن كنا في دنقلة الجديدة. رحب بنا سائقنا الكريم في منزله، جلسنا تحت شجرة فاكهة، أتوا لنا بالحصر البلاستيك وإفطار غني، له عائلة كبيرة، فكان كل الشباب يساعدون في أعمال المنزل.

كنا مرهقين لدرجة أننا قررنا مواصلة ما نحن عليه، لم نخرج ولا للحظات؛ تذكرنا لاتي Lati بحنين، يا لها من لباتي مختلفة عن بعضها، تحيط بنا الجدران من كل جانب، لم نر إلا القليل من النجوم. نام يحيى، لا بد أنه كان مرهقاً بعد هذه الرحلة المضنية، فقد ظل في خلفية السيارة راقداً من دنقلة حتى كريمة. قلت لنفسى: لن يفعل تلك إلا فيلصوف شديد الزهد دون أن ينبس بكلمة. شعرت أنه ضحى كثيراً من أجلنا هو وأصدقائه. أعجبت بجرأته وشجاعته وهنؤه ونظراته الحزينة الهادئة، بدا أنه منصاع لأقداره، كأنه يعرف ما يحدث، كل شيء.

حل الظلام، وبعد تناول الشاي قررنا الاستسلام للنوم. كان هذا مبكراً على وقت النوم الذي اعتنناه وهو الثالثة فجراً. كان يحيى قد استيقظ وأخذ ينظر حوله ساهماً، لا تعجبنى هذه البطانية، تبدو لزجة فقلت له: عندي واحدة أيضاً على نفس الشاكلة لكني لا أشكو منها. آه، وهذه الأخرى، الحمراء، التي تبدو جديدة؟ شدها ببر نحوه وهو يبتسم، وقال: هذه بطانيتي، لقد أتى إلى بها ابن صاحب الدار وأعتقد أنهم اشتروها للتو، فلم تكن لديهم بطاطين بما فيه الكفاية. آه يا ببر، إن أخاك الصغير على استعداد لمبادلة تلك البطانية معك لينام ملتحفاً

## رحلة إلى السودان

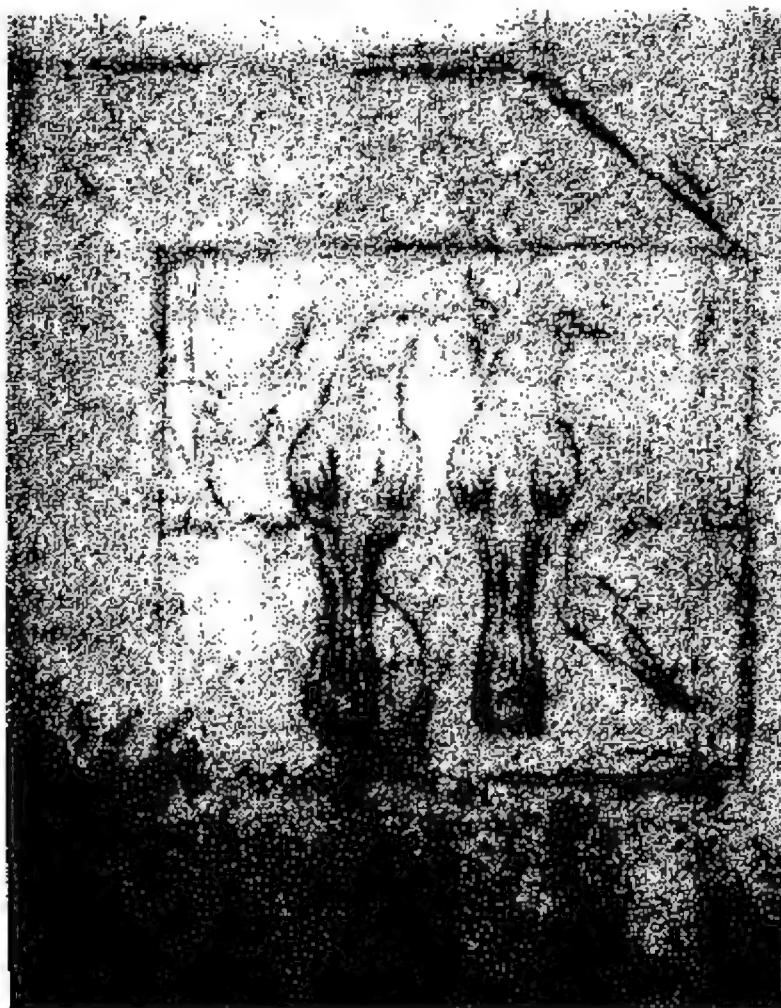
بهذه البطانية النظيفة والناعمة. أعتقد أنك سوف تتمسك ببطانيتك. هكذا بدأ مشهود البطانيات، ودار نقاش كثير.

في الصباح حملنا حاجياتنا مرة أخرى إلى السيارة، وركبنا وبينما نسير في شوارع البلدة خرجنا على منطقة خالية تبرز فيها كتل الحجارة، هي أطلال مقابر نوبية. اتضح لنا أن كانت دارنا الجديدة هناك، إنها فيلا تعود إلى الخمسينيات من القرن العشرين؛ كان المائق نفسه من الصحبة الغربية الذين يرافقوننا. كان هناك صحنان بهما حوض وخزان مياه في الأعلى، وصلات كبيرة ومرحاض ومطبخ. إنه الترف الأميوي. كان بير مستغرقاً في التفكير، أخذ يغسل كافة ملابسه في الطشت الوحيد الموجود؛ كان متوتراً، وصامتاً، ومنغلقاً على نفسه، كانت مياه الغسيل عكرة جداً مليئة بالتراب. قمنا بترتيب المنزل وخرجنا جميعاً، ولكن ليس قبل أن أقدم ليحيى بطانيتي.

طفنا بكريمة متجهين أسفل المنحدر حتى وصلنا إلى منطقة خالية إلى جوار خط السكك الحديدية، وعندما تجاوزناها، وجدنا السوق الذي يحج بالناس، ليس بعيداً عن النهر؛ شهدنا من جديد المنازل التي رأيناها قبل ذلك. تختلف عن باقي القرى النوبية، فقدت جمالها الهادئ وأشكالها الرقيقة والمنتظمة وتلك الألوان الزاهية والنظيفة، أي ذلك التعبير عن ثقافة مشتركة. في كريمة، ذابت النوبة. للطريق مستقيمة، ترابية، تتقاطع بزوايا قائمة، المنازل كلها صغيرة، من الأسمنت أو المكعبات الرمادية أو الباهتة، لا توحى بأي طرافة. القليل من الأشجار، قاحلة وخاوية على عروشها؛ لا تبدو أنها شديدة النظافة؛ هناك الكثير من الأنقاض، جرداء، يبدو كل شيء كأنه قديم. هرونا للبحث عن بنك، فهم على وشك أن يغلقوا، كانوا يغيرون اليورو دون مشاكل. لا يقبلون الجنيه المصري. كان بير يشكو من أنه مغلول اليد، فليس في يده شيء. أخذنا نتقاسم ما معي من نقود. قلت مازحاً: ها أنت تملكه وكنت تفكر في المجيء إلى السودان

### رحلة إلى السودان

حاملًا معك "الفيزا الذهبية" وحذرك من هذا، فقال: هذا ليس صحيحًا لقد حملت  
معي الكثير من النقود لكن سامي هو الذي جعلني أقوم بتغيير كل ما سعي. لابد  
من أذان سامي تصن من هذا الاتهام الرخيص والذي لا معنى له.



"Tenía el encanto de una miniatura persa..."

شكل رقم 2

كان السوق في كريمة كبيراً، به التندرات وتحفها الكثير من الملابس والأثاث وللسلع الغذائية، وتحت كان الظل منعشاً، بينما كنا نبحث عما نريد. الحرارة كانت مرتفعة، تحت وهج الشمس؛ فكر يحيى وبير في طهي طعام بالمنزل. كانت الشمس حارقة في كريمة، تكاد تصبح المرء حياً، والهواء ذا طعم ترابي نجف منه الأفواه. اتجهنا نحو التندرات التي تحتل وسط المساحة؛ في هذا السوق، المقام في الهواء الطلق، كان البائعون يتمشون أمام طاولات كبيرة تحت ظل سقف كبير، يقدمون شرايح لحم وخضار وفواكه وأسماك. كل شيء حقيقي بما في ذلك النياب. كان البائعون لطفاء، يبتسمون، لا يحبون التناط الصور. غضبت امرأتان من بير لمجرد المحاولة. خرجنا من السوق ونحن نحمل ما اشترينا، نسير تحت وهج شمس حارقة.

عدنا بالكفور وضعناها في الثلاجة، واصل بير الغسيل. خرج كلانا، يحيى وأنا، إلى الأرض الخالية التي تضم الكثيرين تحت ثراها، واتجهنا بالسيارة صوب جبل برقل حيث ستحصل على تصريح بزيارة الأطلال. كانت الرابعة بعد الظهر، وأخذت تخف حدة وهج الشمس. صعدنا تل الرمال، نرنا حول سور من الطوب. كان ظل الجبل علامة على ضخامته وقربه وقوته؛ عبارة عن كتلة رأسية ضخمة، تبدو أمامنا بالضبط. إنها العصا. على اليمين، ظهر مبنى كأنه قصر كبير من الطوب، له بوابة ضخمة مزخرفة، جدران ممتدة شديدة البياض بها أشرطة تضم أشكالاً زخرفية على امتدادها. وفي الداخل نرى قباباً تبدو كأنها هندية، إنه هنيان الخيال الشرقي، واحة لعلماء الآثار الإيطاليين.

اتضح أنها محاكاة للمنازل النوبية القديمة، بواجهاتها الرائعة، غير أن الأسلوب المبالغ فيه يتناقض مع كل ما شهدناه. فقدت النوبة العليا ذلك الميز إلى الزخارف، ولم تعد النموة ترسم على الواجهة، وعادت الجدران النوبية لتكون هندسية الشكل وبسيطة، ألوانها رمادية وبيضاء وناصعة البياض، دون أية



## رحلة إلى السودان

نقوش. ومن جهة أخرى، خرجنا من النوبة، وكان لمنازل كريمة شكل شديد الاختلاف. هذا الخيال النوبي في كريمة كان خارج السياق، رغم أنه كان كأنه إصيص ورد يزين الطريق صوب جبل برقل.

لم يكن المدير موجوداً، وجهونا نحو منزله، عدنا من جديد صوب للجبانة، الغناء، ثم توجهنا على عجل إلى المنزل بحثاً عن بير. لم يكن يريد الخروج، وعدنا. في الشارع كان ينتظرننا رجل شاب، طويل القامة وجاد الملامح، نظراته ودودة وبشرته سمراء، كان يرتدي قميصاً وبنتلوناً. صعدنا إلى مكتبه في منطقة مرتفعة إلى جوار الأطلال، دخلنا عبر دهليز، وأمام أحد الأبواب فتح قفلاً ضخماً. دخلنا غرفة خالية سقفها مرتفع، بها لولاب خاو على عروشه، وترابيزة نظيفة وكريسيان. السقف به لمبة. أخرج بعض الأوراق وقلم رصاص وكراسة. كان هذا هو كل ما لديه. بينما كان يحيى يشرح له ما نريده، وكم حجراً وكـم معبداً لاحظت أن نظراته ثابتة. كنت قد غرقت في كرسي وطبيء مستغرقاً في هذه البساطة التي عليها هذا المشهد الإداري. كان ينظر إلى بفضل فيه رافة، لست أدري ما الذي يقوله يحيى له. هل تريد أن أشرح لك الأطلال في الجبل؟ - قالها لي بصوت ناعم. قبلت ذلك شاكراً.

أخذ يحيى السيارة، كان يريد أن يساعد في إعداد العشاء، لما أنا فقد سرت متحمساً مع ذلك الفتى، أخذ يشرح لي قصص معبد آمون بينما نسير مسرعين حول الجبل. كان الفراعنة يطلقون عليه "الجبل المقدس"، الجبل المصحف. شرح لي أن آمون نباتة كان ذا رأس كبش، بينما كان آمون طيبة إنساناً له رأس كبش على أنه حيوان مقدس. كان هناك وحي آمون، الذي يشرف عليه الكهنة المصريون. إنه المكان المقدس الأكثر أهمية سواء خلال الإمبراطورية القوشية أو المملكة المروية. الذروة التي تبدو وحدها أمام الجبل، وكانت - طبقاً لقوله - صورة حية على رأسها التاج الأبيض رمز مصر العليا،

## رحلة إلى السودان

خادمة آمون الذي يقيم داخل الجبل، كما توضح ذلك النقوش في "أبو سمبل" وهناك صور أخرى ترجع إلى الدولة الحديثة.

أخذني إلى أسفل هذه الصخرة الرأسية، وفتح باباً يؤدي إلى معبد صغير منحوت في الصخرة. ربما كان كفاً قديماً؛ كان هذا ما يطلق عليه تيفونيوم Typhonium، مقدساً عند طهارة على أساس أنه مقام الآلهة موت، زوج آمون؛ غير أن هذه النسبة غير المنطقية لم تنعش أحداً الحماة الإلهيين الحقيقيين، فهناك نقوش، تغمز المكان، على الحوائط حيث تظهر الآلهة حثور وآلهة أخرى قدامى وعمالة؛ هناك الإله ست على شكل أسد، وكلها يرافقها الإله القزم Bes. خرجنا.

كانت هناك أعمدة صغيرة وتيجانها رؤوس بقره مقدسة، تحيط بفراغ مكشوف تحت الكتلة الصخرية. أخذنا نفقز من صخرة إلى كتل حجرية، اتجهنا نحو سلسلة من الأهرامات الصغيرة، تبرز بقممها بين الرمال. كانت مقلات كاملة تتبدى معتمة في الصحراء، كانت تشكل منظراً يكاد يكون شاعرياً، تقع أسفل ذلك الجبل المتوحش الذي يطل بقوة إلى جوارها.

قال لي: لا توجد هنا أهرامات للملوك، فكلها قائمة في كورو Kuru وخاصة في نوري Nuri. أما أنا فقلت: وفي مروي القديمة إلى أين نحن ذاهبون؟ قلتها وأنا أتحدث لغوياً في نطق الكلمة هل هي مروي Marawi؟ نعم، يبدو أنهم يسمونها الآن هكذا، Marawi؟. إنها هناك على الشاطئ الآخر للنهر، ليس بها أهرامات. هناك فقط بعض القصور والمعابد، لم أكن أريد أن أفهم شيئاً، الغموض يطل برأسه من جديد، هناك مدينة أخرى لا ندري عنها شيئاً؛ غير أنني هذه المرة لن أتراض. لا، لا مروي Mirawi! - قالها وهو يضحك، إن ميراوي Mirawi بعيدة عن المكان، عند منحني شندي، وهذه بها أهرامات جميلة. كل هذا خرج عن إمكانياتي، ما أسيطر عليه معلوماتياً هو ابتداء من

## رحلة إلى السودان

وادي حلفا حتى هنا، فقط؟ - فكرت - لكن كيف؟ لم أعد أتذكر جيداً هل هي Marawi؟ أو Mirawi؟ الأمر سواء. وجنتها، غير أن كل هذا جعل البلد وقد أحاطت به مجموعة من الألغاز. المرء هنا يجمع البراهين، كانت مروي Meroe هي الهدف.

تذكر أن القدماء يحكون أن للنيل كان يعبر إقليماً غامضاً، فيه تحول مواره وأخذ يسير في اتجاه عكسي. شك الكثيرون في هذه الرواية. فأجاب: هذا صحيح، إن المكان الذي جرى عنه الحديث هو هذا، ففي منطقة جبل برقل يرمم مسار للنيل حرف S أي أنه يتجه إلى الجنوب بدلاً من مواصلة المير شمالاً وهو المسار الطبيعي. هكذا أخذ قطعة من الخشب ورسم على الرمال منحنى النيل الذي يتحدث عنه. وقال: هناك ظاهرة غريبة تمحضت عن ذلك في كلا شاطئ النهر. أخذ يضع نقاطاً بالخشب على الأرض؛ الشرق والغرب يغيران مواضعهما في علاقتهما بالنيل. وبالتحديد نجد أن الشاطئ الشرقي للنهر يقع في الجهة الغربية، مع جبل للبرقل، أما الشاطئ الغربي فهو إلى جهة الشرق، حيث نباتة، وهذه حالة فريدة في مسار النيل بالكامل؛ فكرت، يا له من كلام مستغلق. لابد أن الأمر بدا للناس المقيمين هنا على أنه سحري وأسطوري.

أخذ يتجه نحو الجبل، أخذنا نصعد جبل البرقل رويداً رويداً، تزداد الوعورة كلما صعدنا، علينا أن نمسك بالصخور حتى نكزحلق في الرمال، فهذا أمر سهل وقوعه والمرء يرتدي الجلابية، كان الجبل يأخذ في لحظة ما شكل الرأسية المقلقة، بينما أصعد، لاهثاً، أمسك بيدي وقمائي حسيماً اتفق. أما ريفي فقد كان أكثر سرعة وخفة في الحركة، كان ينتظرني بين الحين والآخر. كانت قمة الجبل مسطحة بالكامل، خليط من الصخور وكتل الحجارة، كانت الأراضي ترتفع قليلاً، هناك طفرة في الوسط تم تستمر. يبدو المكان وكأنه ظهر مركب عابر للمصيطات يتجه من الصحراء صوب غابات النخيل والنيل.

وصلنا إلى المقدمة، أسفل كان وادي النيل يمتد، يبدو صغيراً. في الجهة اليسرى، كريمة، عبارة عن منازل وطبقة وصحون من الرمال وأشجار. أما في المقابل فهناك الواحة التي وصلنا إليها في اليوم السابق، موازية للنيل. وبعيداً، نجد الشريط الأزرق للنيل، واضحاً وبعيداً. على اليمين وفي العمق نجد الصحراء، وفي الأسفل تبرز كتلة القمة، تكاد تصل إلى حيث نحن واقفون على الأرض، هناك أطلال المعابد التي تحيط "بالجبل المحض" أي معابد آمون وحتحور، تبدو وكأنها مدهوسة، تتوافق أفقياً مع آخر خيوط ضوء النهار.

اقتربت من الحافة وأنا أحيو، ونظرت، إنها هوة سحيقة، للحمد لله على أنني لا أعاني الخوف من الأماكن العالية، تجولنا في الواحة حتى شهدنا فتحتين اسطوانيتين، غير عميقتين، إحداهما إلى جوار الأخرى، أعلى الجبل، تتوافق مع الكتلة الخاصة بالقمة. شرح لي: نعم هذه للقمة تمثل الحية المقدسة عند المصريين من أهل طيبة، أي Uraeus؛ هذه الفتحات هي، طبقاً للاثاري د./ كندال - الدليل على أنهم لقاموا هنا "شاموفاً" يساعد على الصعود حتى هذه القمة، حيث عثر هنا على تمثال ذهبي صغير لطهارة، وسجل اسمه بحروف مذهب، بدا الشرح غير متوائم مع تنسية الجبل.

شمريت عن ساعدي، هذا الجبل هو أقدم بكثير من طهارة وحكام طيبة من المصريين؛ كان هذا الجبل مقعماً على زمن ما قبل التاريخ. وعلى بعد أقل من متر من الهوة أشربت إلى النيل، كنت أشعر بالهواء. كان المدير يرمقني باهتمام خوفاً من اصطدامي بشيء وأنا متحمس... لكن من هنا مرت أكبر عملية تهجير في التاريخ، "الخروج من أفريقيا"، ربما كان جماعها من بقي من قبيلة سان San أو القبائل الأفريقية الأخرى العريقة، ثم أتى كثيرون بعد هؤلاء وهم للصحراويون - السودانيون. وبعد كارثة طبيعية كبرى، وقعت منذ ما يقرب من عشرة آلاف عام، ظهر في وادي النيل الأوسط من يطلق عليهم المتوسطيون

## رحلة إله السوحان

الأريتريون والأثيوبيون، صوب مصر، أرضهم الجديدة؛ توجه من يسمون Proto-capsienses نحو المغرب (الشمال الأفريقي) و Proto-semitas نحو الشرق الأوسط وشبه الجزيرة العربية. "الجبل المحض" كان موجوداً في تلك الأزمنة، كان المركز المقدس في وادي النيل. للجميع مرة من هنا.

على زمن ما قبل التاريخ كان كل جبل أنثوي، يحمل في داخله الحية، سيدة الزلازل ومبدعة الأشكال الأولية؛ غير أن هذا الجبل مختلف، كان ذكراً وأنثى hermafrodite مثل الآلهة القدامى في هذا الكوكب. فمن أحشائه خرجت هذه الصخرة الضخمة على شكل عضو ذكري واضح، ولاشك أنه كان الرمز المقدس للخصوبة منذ أزمنة بعيدة، لأسباب بديهية، كما كان رمزاً للفيضان، عندما استقرت هنا أوائل قبائل الرعاة في بداية العصر الحجري الحديث شعرت بهذه المسحة السحرية السائدة في هذا المكان وهي أن مياه النيل تأخذ اتجاهها معاكساً، وأخذت تتأمل جبل البرقل، وكريست الجبل لآلهة الخصوبة.

عندما وصل المصريون إلى هذا المكان أثناء النوبة الحديثة لم يتمكنوا من القضاء على المفاهيم الدينية القديمة المائدة، عندئذ ربطوا بينها وبين آمون طيبة "أي المختبئ" إله الخصوبة. انظر إلى هذه المساحة المستوية أعلى الجبل والفتحات الغربية، يمكن أن تكون هذه تمثيلاً رمزياً للعينين الأسطوانيتين والمتجاورتين اللتين ينبع منهما - من الأرض -، هنا في أثيوبيا، النيل الأزرق، بمياهه الغزيرة والضرورية لحدوث الفيضان. إلى هنا كان يصعد الكهنة المكلفون بالطقوس، كانوا يأخذون مياه الأمطار التي تجمعت في هاتين الفتحتين، وهذه المياه دليل على درجة الفيضان، ثم يلمسون من أعلى مقدمة الكتل الصخرية الشبيهة بالعضو الذكري، ثم يرقصون، يرجون النيل فيضاً مسحاً غناً، أما باقي المتعبدين، فيقفون ويرقصون في أسفل الجبل في معبد الإله بوس، الكبير ومعبد الآلهة حتحور، سيدة الحب والعشق والمرح، وفي أيضاً سيدة

## رحلة إلى السويدان

الموالتيد، بينما يقوم المتعبدون بالحضور إلى قنص الأقداس حتى يهبهم الكبح للفترة على إنجاب الأبناء ووفرة في المحصول.

هكذا ظلت قوة جبل برقل كما هي، هي الرمز المقدس للنيل الأوسط، وأبرز للصخور الرئيسية على الإطلاق. كان ينظر إلى بحماس. قلت له: نعم لأبد من الرجوع إلى ما قبل التاريخ، فبدون ذلك لن نفهم على الإطلاق ما حدث في النيل. علينا أن نعيد النظر، أن ننظر من جديد ونحاول فهم منهج التفكير البسيط الذي كانت عليه تلك القبائل. أن نشعر بالاحترام والوقار والخوف الذي كانوا عليه وهم يرون هذا الجبل.

تأخرنا، أوشكت ساعة الإفطار، وأخذ ضوء النهار ينسحب بسرعة. عذا صامتين. في لحظة ما كان المدير الشاب على حافة الهاوية، حيث انعكست على وجهه آخر خيوط ضوء الشمس، جلس ليخلع نعليه؛ لم أفهم ما يحدث ولم أر أي طريق وظننت أنه يود أن يرتاح. جلست على صخرة إلى جواره تحت أقدامنا كانت هناك كتابان رملية شديدة الاتحار، كانت الرمال تصعد حتى قمة الجبل. إنها أكثر من مائة متر، هذا ما فكرت فيه، أمسكت بما حولي خوفاً من... نهض الفتى، أشار إلى بيده ثم مشى. برئت بعض الشيء، وسرعان ما فهمت قصده، كان ذلك هو طريقنا!

ربطت أطراف الجبلية وفقرت في الهواء، أصبح جسمي كالريشة، أصبح في الهواء. كانت الرمال تتلعق قدمي العريانتين، لأعود فأقفز من جديد. لم أشعر من قبل بهذه المتعة، الإحساس أنك تطير، اللانجانية، كان الهواء رقيقاً ذلك المساء، والشمس عند المغيب، والأهرامات عبارة عن مثلثات صغيرة تحتنا، تغوص قماي في الرمال المرة تلو الأخرى، يزداد الإحساس بالخفة، بدا هذا السقوط الرأسي بلا قرار بدون نهاية، كنا تطير مرة بعد مرة، فقرة في الهواء ومقطوع. كنت أطفو. تملكني إحساس بسعادة غامرة.

## رحلة إلى السودان

كنت أشعر أنني خفيف الوزن، يعتريني سلام داخلي، سعيد وكان الجبل المقنص قلم لي هدية عظيمة، إنها عملية الخطوات الأولى للمبتدئ. تجربة فريدة في حنايا الجسد. وصلنا إلى الجزء السفلي، مررنا بمعبد آمون، أشار المدير إلى بعض قوالب الطوب اللبن المجفف بحرارة الشمس، ملقاة على الأرض. قال لي بأن الحجيح كانوا يملكون تلك القوارغ بالحبوب ويقدمونها قرابين للإله، ويكسرونها أمامه؛ إنهم يستوحون الطفوس الأوزورية المتعلقة بتجدد الطبيعة سنوياً. ودعته على وعد بزيارة أخرى، دخلت المنزل وأخذت أقصر عليهما كل شيء بما في ذلك هدية المبتدئين، أصاب الحماس يحيى، لكن بير لم يكن على الدرجة نفسها، حقاً! حقاً! - كنت لأقول - سوف نذهب أنا وأنت غداً ونتناول الإفطار أعلى الجبل!

أعدنا طعاماً فاحراً. كان على أن أغسل الأطباق، هذا طبيعي، فأنا آخذ صفراً في الطهي. أما الشاي ففي صحن المنزل، نردمنا. كان يحيى ساهماً منذ عدة أيام، لكنه قال لنا تلك الليلة: إنني أحب! تحب زوجتك. لا، أحب أخرى، زوجتي هي رفيقة حياتي؛ لكن هذه هي حالة مختلفة. إنها أسبانية من الشواطئ المتوسطية. قضينا أسبوعاً كاملاً ونحن في فندق في الأقصر، كانت تمعة أيام في حقيقة الأمر، أعجبتني كل شيء فيها، عينيها، رائحة بشرتها، جسدها النحيل، أخذ يشرح التجارب التي عاشها سوباً حتى الفصل الأخير. هنا سكنت شهر زاد عن الكلام المباح، يا له من حظ طيب، لن يشعر المرء بأنه في حاجة للأخر! شربنا الأنخاب بالمياه العادية والغازية، في صحة الشوق!

خرجنا، كانت النجوم تحدد ملامح السماء في هذه الظلمة الدامسة، وكانت الرياح تصفر، لم يكن هناك أي ضوء، إنها نقطة ضوء واحدة، أخذنا نتسلق ونداعب الأخ الصغير. اتصل بير بزوجته من محل. كل شيء يسير بحالة جيدة! وماذا عنك؟ هل تعرضت لحادثة بسيطة؟ الآن لا، حسن، سوف تقصين

على. وصلنا إلى منزل المدير، دخلنا صحناً كبيراً من الرمال متصل بالصحن الآخر، كل شيء يتمم بالبساطة، كانت هناك ترابيزة موضوعة في الهواء الطلق إلى جوار أعمدة من الأسمنت، كانوا يلعبون الكوتشينة بجِد واهتمام، هم أربعة.

حيونا أطيّب تحية عند وصولنا، من أين أنتم؟ وجهوا هذا السؤال ليصبي بطريقة مهذبة. نحن أمبان. ساد صمت. ذهبت تلك الصيحة التلقائية والابتسامة العريضة التي رأيتها وسمعتها في الشرق الأوسط طوال سنوات. تحدثوا بصوت خافت بينهم، كنت أفهم ما يقولون، ما استطعت فهمه لفظة حرب وجنود... لا شيء أكثر. واصلوا اللعب وقدموا لنا الشاي، وقهوة سودانية طيبة وبعض الحلوى. كان اللعب هو محور الاهتمام خلال تلك الليلة وتركز اهتمامهم حول الكوتشينة.

عندئذ تذكرت تلك الصيحة التي لم نسمعها منذ بداية الرحلة. إسبان! إخوة! الأندلس، طارق، الحمراء في غرناطة هل هناك من يؤدي الصلاة الآن في جامع قرطبة؟ هذا الترحاب كان رفيقي دائماً في بلاد المشرق ابتداءً من سوريا وتركيا وحتى مصر والأردن، كنا، معشر الأسبان، مختلفين عن باقي الأوربيين، كنا أشقاء، لم نقم باحتلال أراضيهم أبداً، بينما أتوا هم إلينا لطرح ثقافتهم العظيمة على جزء من الفرحوس، الأندلس، إقليم الأندلس. متى سنكون على الشاكلة نفسها من جديد؟ رغبت لو أن ذلك حدث بسرعة؛ لكنني فكرت في التاريخ والذاكرة العنيدة للشعوب.

واصلوا اللعبة لمدة طويلة، إنها لعبة الكونكان، حيث يسقط اللاعب ثلثي الآخر، كانوا يركزون انتباههم على الورق وفي صمت. كانت الليلة ظلاماً، تهب نسمة لطيفة في الصحن، ودعناهم، بعد أن اتفقنا على الذهاب غداً لمشاهدة أطلال نباتة ونوري بصحبة المدير الذي كان عليه، أن يكتب تقاريراً. خرجنا، سعداء، برفقة نسيمات الليل، كان المدير يرافقنا، كانت مساحة الرؤية ضعيفة



### رحلة إلى السودان

وحاولنا عدم الاصطدام بالطين، وسرعان ظهرت الباحة والجبانة. حينئذ وودعناه، حيثما الخطى، درنا حول تلك الحجارة التي تبرز عن مستوى الأرض. لم ترقني أبداً هذه المنطقة وأعتقد الشيء نفسه بالنسبة لبيير.

كان الجو بارداً، أطفأنا للنور، كان يحيى ينام في مكان منعزل، أما أنا وبيير فكل أمام الآخر إلى جوار النوافذ والصحن. نظرت إلى بيير الذي تغطي جيداً بالبطانية الحمراء، وأغمض عيني. ليس هناك صوت. أطفأت الللمبة واقتربت ببطء من سريرى. لمست بطانية لزجة، أنها بطانية يحيى! لقد نسيت، وضعتها فوق قدمي وكورت نفسي تحت جاكته خفيفة لم تغط إلا الجزء العلوي من جسمي حتى الحزام. حاولت ألا أعطس كثيراً، بنسيان البرد. إنها ليلة قاسية، ليلة المبتدئ (أمريد).

كان بيير هو الذي ينهض مبكراً، لاحظت ذلك الصباح أنه قد غطاني بالبطانية الحمراء، بينما ذهب إلى الدش، شكرت له ذلك بينما كنت أقوم بممارسة تمارين الصباح وأنا مغمض العينين بأن أضغ نفسي في البداية (الألفا) وراجعت بيدي مكراس Chakras الأزرق والأخضر، لشحنهما والتزود بالطاقة ومواصلة الرحلة. أثناء تناول الإفطار، تمدد بيير هانداً. أعتقد أنني نسيت في بنطلوني الذي وضعته في المكنة التي فقدتها مبلغاً كبيراً من اليورو. قالها وهو يبخن ويتناول الشاي. لكن ماذا نقول مبلغ كبير؟ نعم، هذا أكيد.

شعرت بالحسرة، لكن هناك أمر لم أفهمه جيداً؛ كان بيير دائب عد ما معه من نقود، ومع ذلك نسي مبلغاً كبيراً من المال لمدة طويلة. يبدو أنه لم يعر الأمر اهتماماً. عجباً، المال لا يهم، لكن الشيء الذي يضايقني هو أنه يرتدي بلوفرًا كنت قد وضعتُه هنا! ظلت الأسئلة حائرة تبحث عن جواب، ولم تغارقني، ولم أشأ فتح باب الجدال. ما الذي دفعه ليقتص علينا ذلك، حيث لا يبدو أنه منطقي، فيه توضع مسافة بعد نفسي بينه وبين أصدقائه؟

لم يجد يحيى سبباً للجدال رغم أنه قد لا يعتقد أبداً في هذه المقولة الغريبة. أتذكر أنه كان يكرر قائلاً: آه يا صديقي، لست أدري ما الذي كان يحدث لو كنت سافرت معه بمفردي. لنحمد الله أن ألهمك المجيء معه. نحن نعرف كيف هم الأصدقاء، لكل واحد منهم شطحاته، لكن لو كان بير وحده لكان قد فعلها معي في السودان في وسط الصحراء، ولكن قد عدت إلى منزلي في اليوم الثاني. كنت أضحك، الحمد لله أننا ثلاثة، كما أن المضايقات والتوترات تزول بمجرد أن نغير الطريق.

من البدهي أن بير كان يشعر بانفصام، يصطدم مع خيالاته ولوهامه المرة بعد الأخرى. بدا أنه منعزل بشكل ما، وأنه تائه. فرحلته العقلية تتجه صوب منحى آخر، وهي على أية حال لا تتفق مع الواقع، أحياناً ما ينزل إلى أرض الواقع لكن عالمه الداخلي يحول دون أن يرى جيداً. كان يهدأ فقط، بعد أن يجعل عنده ممن حوله يضيع عليهم صوم رمضان، إنه كاميكاز روحي، كان يشعر بأنه بخير ويبتسم برضا ويعرف جيداً كيفية التعامل مع البسطاء والذين يرحبون بنا.

اتجهنا إلى منزل المدير وأخذنا سيارة، كنت أرتمي جلالية، لا أحمل معي أي شيء، كنت أريد الاستمتاع بنبأته ونوري دون أية عوائق، أردت أن أشعر بالحرية التي وهبني إياها الجيل قبل ذلك بيوم. وصلنا إلى الشاطئ، وجلسنا في وحدة من الصباح تبدو كمركب، عندما وصلنا إلى الشاطئ الآخر، كان بير يشعر بالقيظ، لكنني ظننت أننا سوف نذهب في العيارة حتى الأطلال ولهذا أتيت معي بأشياء كثيرة. هناك زجاجتان من المياه - لتر ونصف - إضافة إلى أشياء أخرى. عندئذ لفت انتباهي لغة كبيرة كان يحملها بير، وفكرت أنه بالغ فيما فعل، فلا أحد سوف يحتاج كميات كبيرة من المياه في ساعة زمن.

## رحلة إلى السودان

لم أنبأ أن أساعده في حمل أي منها، ولو كنت مكانه لتركته لأول مجموعة من الأطفال تصادفني في الطريق، حتى أتخلص من هذه الحمولة. غير أن بير واصل ومعه ما يحمل، تحت هذه الحرارة الشديدة. عبرنا، سيراً على الأقدام، مروي، هي قرية أكثر تواضعاً من كريمة؛ يوجد خارجها حاجز يحدد مكان أطلال قصر ومعبد، لم يكن هناك الكثير، كان من المفترض أن تلك كانت نباتة، المدينة الأسطورية التي همت أكثر من مرة، كان آخرها ما فعله الرومان بها. كانت عاصمة الفراعين العبود، فراعنة الأمرة الخامسة والعشرين، وكان لطهارة قصره. لابد أنها كانت مدينة تتسم بالطابع الديني، إنها "طيبة النوبة"، هكذا كانوا يطلقون عليها، فالعاصمة الإدارية، (والسيامية بعد ذلك) كانت في مروي، في تلك الجنوب القصي.

أخذنا سيارة نصف نقل لنذهب بنا إلى نوري تلك البلدة القريبة، هناك جبانة نباتة. كنت قد ألححت على القيام بذلك عبر النيل، لكنهم قاوموا، لأننا سنستغرق وقتاً أطول، دلفنا إلى داخل السيارة آمين أن يكون قد اكتمل عدد ركبائها، صعدت امرأة مسنة، مبتسمة وودودة، ترتدي ساري أخضر مزهراً، وقالت لنا إننا نجهدو كلنا أبناءها، لم تتكلم، كانت تضحك. نحن أيضاً. وفي القرية ففزنا وصعدنا الكتبان الرملية. أمامنا نجد سلسلة من الأهرامات الكثيرة.

اقتربنا حتى وصلنا إلى ذلك الهرم الذي يسيطر على الوادي، هو الأكبر والأول، هرم الفرعون طهارة، أعلى هرم في النوبة، نموذج لمئات الأهرامات القوشية التي سارت على هديه في نوري وبقرل ومروي، هو أهرام منببة لها درجات صغيرة، ومنصة في الجزء العلوي، وغرفة جنازية تحت الأرض. كان هذا الهرم هو بداية ظهور هذه الجبانة الملكية على الشاطئ الآخر من النهر، أي الشاطئ الغربي الحقيقي للنيل رغم أنها تقع في القطاع الشرقي، هنا مجد رفات عشرين ملكاً وثلاثة وخمسين ملكة من مملكة نباتة خلال الفترة من 300-650

ق.م. هناك استثناء، إذ دفن أحدهم في كورو، وهو الفرعون الأسود الذي تولى الحكم بعد طهارة. أما آخرهم - في نوري - فكان الملك ناستاسن Nastasen . ترك الجميع نقوشاً توضح تقديسهم لجبل برقل وعلاقتهم الحميمة بكاوا.

شعرت بقوة انعكاس ضوء الشمس على الرمال، فاتجهت لتأمل الأهرامات السوداء التي تشكل ما يشبه الطريق فوق الكثبان. كانت تتسم بالقوة والمتانة، ذلت لون قائم، الأمر الذي جعلها تبدو قوية، بدائية بالمقارنة بمجموعة الأهرامات الأخرى. تتكئ بقوة فوق الرمال، تبدو وكأنها تشعر بالفخار والقوة أمام كل هؤلاء الذين مروا بالنيل. ورغم أنها صغيرة فإنها بشكل أو بآخر تذكرنا بأهرامات النجيزة في مصر. إنها إرادة السيطرة نفسها والوعي بالسلطة.

بينما كنا في انتظار السيارة في القرية لرحلة العودة، أخذ بير يرسم في كرسيته في ظل تندة يداعبها نسيم من الهواء، هناك في مقبلة للصورة زوجان من النخيل وفي العمق بعض المنازل الوطيفة، وبعد ذلك الكثبان العالية والأهرامات التي تتوه بالقوة والانتظام. نزلنا حتى شاطئ النهر، مررنا بلسان كبير من الرمال إلى جوار الشاطئ، كان زمن الخريف وكانت مياه النهر قليلة، وعندما ابتعدنا، بدت الأهرامات السوداء كأنها تودعنا.

عندما وصلنا إلى الشاطئ الآخر، عبرنا بعض الحقول وغابات النخيل، ووجدنا أنفسنا من جديد في كريمة، تبادلنا التحايا واتجهنا لشراء طعام. وتكرر الأمر، كميات كبيرة من الطعام مرة أخرى؛ أكد بير أنه سوف يبقى في المنزل هذا المساء حيث سيقوم بإعداد العشاء. اعتقد أن الحرّ تمكن منه، لم يبد أنه متحمس، لا للجبل ولا للآثار؛ عبرنا المنطقة الخالية ثم خط السكة الحديد، صوب محطة اتاكسي؛ لم يكن هناك أحد. بحثت عن ظل، كادت الشمس أن تصهرني، إنها مجموعة من العناصر هي الضوء والتراب والجفاف؛ مرّتك

## وحلة إلى السودان

من هذه الوسائل القليلة، التي تطوف بأنحاء كريمة، وأخذناه، جالسين في الخلف.  
برافو! الموسيقى من جديد، الإيقاع السوداني.

قرر المساق الممرور من طريق جانبي ودخل غابة النخيل، ظللنا نسير  
في الطريق الصغيرة التي تمر بالترع المليئة بالمياه، وبالجسور المشيدة من  
الطوب البارز عن الوضع المعتاد، لم نر إلا النخيل ومساحات صغيرة مزروعة  
وبعض الجدران، كان التروميكل البخاري (التوك توك) يدخل الوحل، يقفز،  
ويميل. تعطل مساره في إحدى هذه المناطق الموحلة نزلنا جميعاً. أخذ المساق  
في إصلاحه دون أن يفقد ابتسامته، بينما نحن نتمشى في الواحة؛ ابتعد بير،  
بينما جلسنا أنا ويحيى في منطقة خضراء. عدنا من جديد لداخلنا الشعور  
بالسلام، كأننا نشعر بالجمال الذي يتولد عن هذه الظلال التي تداعبها أشعة  
الشمس، كنت أنظر إلى يحيى في هذا المشهد الجميل؛ شعرت أنه لا يكاد يكون  
من أرض الواقع والنخيل يحيط به، أنه أحد الرعاة الذين ظلوا دائماً هنا؛ تقضي  
فترة القليلة تحت الظل الوارف بلغنا السلام.

ركبنا من جديد. أخذنا بير وواصلنا طريقنا، وصلنا إلى حافة الواحة،  
وبالتحديد أمام جبل برقل لكن لا يمكن أن يمر التوك توك بكثرة الرمال المترامية.  
كان على المساق أن يعود من جديد، صاح بير ونزل، نزلت خلفه. رغم أن الجو  
كان شديد الحرارة فإننا كنا قريبين من المنزل ويمكن أن تقطع المسافة المتبقية  
سيراً على الأقدام. وتكفل يحيى بأن يحمل الزاد إلى المنزل. شهدت كيف أن بير  
كان يبتعد، بحث الخطى دون أن ينظر ورائه، في اتجاه كريمة. كانت الشمس  
عندة خارج الواحة؛ حثت الخطى أنا أيضاً محاولاً أن ألحق به، من الواضح  
أنه تعكر مزاجه. وفجأة شعرت بالجبل. إنه يثابني، أدت رأسي بسرعة  
فوجدته هناك، جبل برقل. هل نسيني؟ يبدو أنه كان يتساءل. نظرت إلى بير،  
كان يواصل طريقه بسرعة على حافة طريق ترابي. لكن ما الذي كنت أفعله -

فكرت-، هل أواصل الطريق وراء إنسان قرر أن يغضب من الدنيا في لحظة غير مناسبة؟ ولماذا نحبس أنفسنا في المنزل لتناول قهوة سيئة بدلاً من البقاء في هذا المكان الرائع، الذي لا يتكرر، بعض الوقت؟

عدت، اقتربت من الجبل دون تردد. كرست له من الوقت ما بقي من النهار. جلست تحت شجرة سنط لأتأمله مرة أخرى؛ لمحت ببر عن بعد، الذي نظر خلفه لأول مرة، اكتشف أنه وحده، توقف لحظة دون أن يدري ماذا يفعل. شعرت أنه كان يجب لفت انتباهه، ناديت عليه بالإشارة لكن المسافة قد بعدت. أحاطت به مجموعة من الأطفال وذهب في طريقه. عدت للجلوس مرة أخرى. أمامي، هناك جبانتان كبيرتان تنتشر فيهما الحجارة (الشواهد) على الرمال؛ هي جبانان قبايل قديمة إحداها لقبيلة الجبل، أي جبانة الجبل، لا بد أنها أكثر قدماء؛ أما الأخرى فهي جبانة جبل برقل. الجبانان تحيطان بالجبل المقدس. تروي الأساطير أنه ذات يوم من الأزمنة القديمة، خرجت آلهة رائعة الجمال من بطن الجبل، وعشقها فلاح. عاشا سعداء، وأنجبا أولاداً، وفي يوم من الأيام طلبت الآلهة كل أصناف الهدايا، فتحت الجبل واختفت إلى غير رجعة.

كنت أفكر في قبائل الصيادين الرحل التي طافت بشطآن النيل، ولا بد أنها مرت من هنا، وتأمّلت كتلة الجبل على الطريقة التي كنت أفعلها، والفرق هو الشعور بالنوازع الديني. ما الذي كانت تفكر فيه تلك القبائل؟، وما هي الحكايات الأسطورية التي كانت تتسجها؟ وهل كان جبل البرقل هو المنطقة الأكثر غموضاً في وادي النيل على مدى آلاف السنين؟. ربما يرجع ذلك لتسعة آلاف عام مضت، عندما وقعت الفيضانات الساحقة للنيل وقعت على الوادي بالكامل، ونحتت أشكالاً غريبة في المناطق الصخرية. وربما يرجع الأمر إلى أكثر من ذلك، إلى خمسين ألف عام، عندما خرجت من أفريقيا أولى الموجات البشرية الحديثة، إنهم أبناء النيل من العصر الحجري القديم.

### رحلة إلى السحابة

رأى الجبل كل شعوب العصر النيلي، مروا أمامه، في هجرتهم صوب مصر والشرق الأوسط وشمال أفريقيا. يقول المصريون أنفسهم أن أصولهم ترجع إلى بلد الرجال السمر، من النوبة والسودان وأثيوبيا. هل ولد هذا أول فصل من الميتولوجيا المصرية، أي أولى أجيال آلهتهم القديمة؟ ربما ظهر هذا أول إله لمصر - أتوم - من القوضى ووضع نفسه على الصخرة الرئيسية، ثم أمسك بقضيبه ولسمى، ونشأ النور من قطرات منيه ثم صعدت الشمس لتأخذ مدارها؟ لابد أن هذا الجبل (البرقل)، خلال الأزمنة الغابرة، قد هيا للإله أتوم للصخرة التي "أنزل" فيها ونشأت الخليفة. وفي معبد الوحي لآمون رع يتداخل هذا مع كل من Harakhty وأتوم، كما يتم تبجيل ابنه أتوم، الآلهة تقنوت، الرطوبة الأولية.

فكرت في تحتس الثالث، الفرعون الأول الذي وصل خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد، إلى ذلك المكان المقدس، الذي لم تطأه قدم، قيل أن تبنى معابد وقصور. لقد رأى هذا الجبل المقدس على ما هو عليه من الأزمنة الغابرة، يتقدم أتياً من الصحراء. شعر بالعظمة، فأطلق عليه، 'تاج الأرضين' وكرسه لآمون. إنه آمون نباتة، الذي يتوافق مع آمون الكرنب. عبرت منطقة مصطلحة مباحنة أخذت أفقر من مدة حرارة التراب في منطقة كانت طريق الكباش المقدسة التي كانت ترافق الحاج إلى جبل الوحي لآمون، على زمن الازدهار، بأبوابه وحوائطه المغطاة بالذهب وتمائيله الغامضة وغرفاته التي يفوح منها البخور.

هناك جرت إقامة التماثيل الكبرى، التي يزيد ارتفاعها على أربعة أمتار، إنها تماثيل طهارقة وتماثيل أربعة ملوك قوسيين؛ تم الكشف عنها فوجئت منكسرة، لكنها موضوعة في مخبأ تحت الأرض. أضف إلى ذلك وجود العديد من اللوحات التي تحكي تاريخ تلك المملكة الأسطورية، تاريخ "انتصار" بي

Piye ، وتاريخ "الحلم" الذي حملت به تانيت آمون، و"الخيار" Eleccion عدد أمبلا Aspelta وفي العمق، كان هناك التمثال الذهبي لآمون في قفس الأقداس يرتدي قناع الظلام، رأسه رأس كبش وعيناه ثابتتا النظرة، من الزمرد، يحرك ذراعه صامتاً، ويضع يده على الأمير الذي تم اختياره ليكون الملك الجديد لنباتة.

لم يبق شيء من هذا المعبد الذي شيده كل من ميني الأول ورمسيس الثاني، ثم قام بتوسعته كل من بي وطهارة، إلا المحيط الخاص به، الذي يلتصق بالواجهة الرأسية للجبل، وكذا بعض الدواليب وقواعد الأعمدة التي اصفر لونها. عبرت عدة صحون، وفراغات بها بقايا حوائط ونقوش غائرة تكاد تتمحي. لم تستطع الأحجار الجيرية الهشة مقاومة عوامل الزمن، هي الأحجار التي استخدمها القوشيون والمرويون في بناء آثارهم. كانت متأكلة، فقدت شكلها بسبب المياه والرياح؛ لا زلنا نرى حتى الآن ملامحها الأفريقية، وأسلوبها الذي يميل إلى الكثرة، وعدم الإتقان، كان أسلوباً شيقاً للغاية لهذه السمات التي ينقلها على طبيعته، وهي النماذج الفرعونية، في هذه كلها نشعر هنا بوجود أفريقيا بشحمها ولحمها.

كانت الشمس تضرب برأسي رغم أنني لم أشعر بما يحدث. وصلت إلى قفس الأقداس وجلست أحاول أن أقتصر هذه للموجات الأرضية التي تتبع من بطن الأرض، ربما كانت صامتة، وربما كانت جافة، كانت هناك كتلة من الجرانيت ذات لون يميل إلى الزرقة تحتل المركز، عليها نقوش فرعونية لطيفة؛ كان عمق قفس الأقداس يلمس الجبل بشكل مباشر، وكأنه يريد أن يمتص طاقته الغامضة، يقوم بدور المصد أمام كتل صخرية ضخمة كانت تتساقط بين الحين والآخر. لابد أن بعض هذه الكتل سقط على السقف وهدمه. إلى الجوار جلست بين أطلال قصر بي وأطلال معبد مؤسس مملكة قوش في نباتة والآرا وكاشتا.



## رحلة إلى السودان

بقيت بعض كتل الحجارة، وبعض الجدران، قفزت إلى صحن من وحشور، تحت الذروة، وأدركت أن هذه لم تكن إلا المكان المفضل للرقصات والحفلات والموسيقى والطرب.

دريت حول الجبل من جديد وأنا أتعرض لنثار شديد من الهواء ينفث بالرمال في عيني، اقتربت من الذروة من الناحية الخلفية واكتشفت كتلة من الصخور والكتل الحجرية المبعثرة بين الصخور، تصل حتى منتصف الطريق. قررت الصعود، صعدت خطوة خطوة، محاولاً ألا أثير حفيظة تلك الصخور التي تبدو أنها على استعداد للتهامى لمجرد لمسة خفيفة. عندما كنت على أمتار قليلة من الذروة، توقفت، خفتت أنه يجب أن تكون هناك مصادفة فاصلة ولا أستبق الأحداث، خوفاً من قيام تلك الأحجار بتورثها وابتلاعني.

كنت أشعر بالسعادة، أعرف أنه من السهل الوصول إلى الذروة معتمداً على حذائي - الصندل - ويدي وقدمي؛ وهناك استطاع الأولون الوصول بسهولة إلى القمة، وذلك بوضع بعض قطع الأخشاب بين الجبل والقمة، فهناك حروز على الطرفين تؤكد استخدام تلك التقنية. وهنا فإن الشادومب الذي تحدث عنه رجل الآثار أصبح غير ذي معنى؛ فحتى يصعد المرء إلى هذه القمة على زمن طهارة يكفي استخدام بعض الأدوات الصغيرة للوصول إلى هناك ونقل اسم الملك ووضع تعثال صغير من الذهب، وما كان كافياً من هذه الأدوات هو السبب والحبل بمجرد أن يصل المرء إلى القمة. كل هذا قد أكد لي أن تلك الفجوات التي توجد أعلى الجبل ربما كانت لأغراض طقسية وليست ذات طبيعة تقنية. عدت للتزول، وهي مهمة أصعب بكثير من الصعود.

توجهت للأهرامات، صنعت الكنان ببطء بينما تضرب الرياح وجهي، بين الحين والآخر وبدرجات متفاوتة، كان عليّ أن أصعد من أحد الجوانب لحماية نفسي. منظر الجبل يبدو وكأنه حيوان ضخم قد ألقى، كان له ظهر

## رحلة إلى السودان

ومؤخرة، وكان له ذلك الـ "menhin" الطبيعي الذي يقوم مقام للرأس. كلن يوجد في ذلك المشهد الغريب الذي يستدير فيه مجرى النهر. لا يوجد أي وضوح في الأمر، فمجرى النهر في هذه المنطقة يقلب الأمور رأساً على عقب؛ الشرق كان الغرب، هناك تداخل بين أرض الأموات والأحياء، غموض يثير الدوار، جبل مقدس، كان وجوده جوهرياً لرسم معالم هذا المشهد الأسطوري في تلك المنطقة العنيدة الخصوصية. كل هذا يمكن أن يكون تفسيراً لإقامة جبل لصطناعي في قوش، وهو صورة رمزية لجبل برقل، ذلك للجبل العتيق، ويوضح كذلك تلك الحاجة الملحة التي كان عليها ملوك مروى لزيارة جبل برقل للتبرك بالمكان.

أمر مهم ذلك المتعلق بالمشرق والمغرب في تلك الأزمنة، فالتعرج الذي عليه الجبانات الملكية، في هذا الجانب أو ذلك من النيل، كان علامة على تغير جذري في تأويل النصوص المقدسة، وخاصة في هذا المكان - ظهرت أقدم تلك الجبانات - جبانة كورو - إلى جوار جبل برقل، في الغوب، أي أنها تحترم مسار النهر، وهي أبرز منطقة لدفن الموتى؛ لكن كان الشاطئ الشرقي للنيل رمزاً على مدى الأهمية التي يوليها ملوك هذه المنطقة للجبل المقدس؛ فطهارة "الملك القوشي" الذي توج عام 690 ق.م، وعاش في كل من طيبة ومفيس رداً طويلاً من الزمن وأراد أن يعيش مجد زمن الفراعين العظام، لا بد أنه أخذ في اعتباره تلك التقاليد القديمة التي كانت عليها منطقة النيل الأوسط؛ وعلى هذا اجتاز النهر صوب المشرق، أي شاطئ الأحياء حيث مدينة نباتة، وهناك أقام هرمه إلى جوار الشاطئ الغربي للنيل مثلما كان يحدث في مصر، وبذلك احترق قدسية النهر.

لا بد أن منطقة النيل الأوسط شهدت ثورة دينية حقيقية، ومع هذا فإن جبل البرقل لم يُمس؛ فقد قيل إن طهارة ربما حاول أن ينحت لنفسه تمثالاً

## رحلة إلى الصحراء

ضحكاً أمام الجبل أو في القمة مقلداً في ذلك رمسيس الثاني في "أبو سمبل"؛ ولو كان الأمر كذلك فإن التقاليد الضاربة في القدم في منطقة النيل الأوسط قد حالت دون هذا للدنس. كان للجبل شيئاً لا يمسّ في هذا المشهد، واصلت طريقي في الدوران حوله، رأيت الكثبان الرملية للقائمة من جديد وكأنها لسان ضخم يمتد حتى أعلى للجبل؛ تحت وهج الشمس الحارقة لم نكد نرى ما بقي من معالم أقدامنا ليلة أمس. لم تتركني الرياح وشأني، صعدت على ظهر كثبان رملي، من الجهة الخلفية، ثم أخذت في الهبوط من الجانب الآخر، أتقدي الصخور. وفجأة وجدت كلباً برياً في الصحراء، يرقد وحده في ظل صخرة ضخمة، ظننت أن عملية الصيد كانت على مقربة من المكان. لكن لا، لم يكن كلباً بل نبتاً، احتلت مكانه، وهو أفضل مكان يستطيع المرء فيه أن يظل على الصحراء بالكامل؛ ابتعد الحيوان لكنه كان ينظر خلفه كلما بضعب خطوات، وكأنه يريد التثبت من أنني لم أغادر المكان. كنت أنظر إليه وأقول له لا، أنا باق هنا.

تأخر الوقت، عدت إلى المنزل وأنا أشعر بالهدوء الداخلي بغمري، دخلت وألقيت التحية على بير الذي كان جالساً. لم يرد عليّ، كان التوتر هو العنصر المسيطر، والوضع لا يشجع، كانت مياه الخزان قد فاضت، وأخذت تتساقط من أعلى البرج كأنها شلال، أغرقت المياه الصحن الأول وأخذت تهدد الصحن الذي كنا فيه. استطعنا إيقافها، ثم لختفى بير دون أن ينبس بكلمة؛ كلن يحيى نائماً في انتظار إفطار رمضان؛ لقطع التيار الكهربائي وكان المطبخ معتماً وبارداً، لم يَم أحد بطهي أي شيء، رغم أنني أرى عن بعد أحد الأطباق على حوض السمبل، اقترب الخلود للراحة، على أمل أن تهدأ الأمور، لم يكن في استطاعتي فعل الكثير. نمت.

عاد بير بعد أن حل الظلام بالكامل، شعرت بشدة عذبة، لقد انتزع مني البطانية الحمراء التي كنت أغطي بها قدمي، بحثت عن شمعة وأيقظت يحيى.

كان عليه أن يتناول الإقطار. قمنا بإعداد ما استطعنا، وبعد ذلك خرجنا، لكن ماذا حدث لبير؟ لم يحدث شيء، إنه يشعر بالغيرة، حسب قول يحيى. الغيرة من ماذا؟ مما تعرف. إنني أقص عليكما القليل الذي أعرفه وذلك حتى يكون هناك تداخل مع الجبل بالطريقة التي أشعر بها. إنه يعد أسطوري وسحري. كانت الليلة نتسم بالغراية والرياح تهب بعنف، لدرجة أنه تم إلغاء الأمسية الموسيقية. توجهنا نحو منزل المدير، فهو لم يكن يلعب الكوتشينة تلك الليلة؛ وبعد تناول الشاي، وتوجيه النصيح لنا بكيفية الوصول إلى مروي - عبر الخرطوم - اتفقتنا على ما سنفعل في اليوم التالي.

خرجنا في الصباح للباكر، وتوجهنا من جديد إلى الأطلال، غير أننا توجهنا قبل ذلك إلى ميدان صغير قريب من اليعتة الأسبانية التابعة "المؤسسة كلوس للدراسات الأثرية" التي كانت لها منجزاتها؛ كان كل شيء مغطى ولم تر الكثير، كل شيء مرتب ونظيف. غاب بير عنا، فلم يتحدث لأحد ولم يلق حتى بالتحية؛ ذهب بنا المدير إلى المخزن، هو عبارة عن غرفتين خاليتين عن أي زخرف مليونتين بالكتل الحجرية المنحوتة والموضوعة على الأرض؛ كان يمكن إقامة متحف على أساس تلك القطع؛ بدلاً من أن يدفنها التراب؛ هذا كل ما تبقى من أعاجيب جبل البرقل. أخذت أفكر في تلك التماثيل الرائعة في الـ Omphalos الخاص بالكيش المقدس، وفي كافة الكنوز التي رحلت من هنا وكانت دول العالم للخارجي مآلها، وأصبحت بعيدة عن أرضها إلى الأبد. وماذا عن السد؟ مآله، السد الصيني؟ لقد وصل إلى درجة متقدمة، وهو يقع بعيداً عن كريمة، بالقرب من الجندل الخامس. حذار! إن زيادة نسبة المياه الجوفية سوف تحدث تأثيرها الضار على الجبل وسوف تسقط المزيد من الصخور على المعابد.

خرجنا إلى العراء في الشمس، وواصلنا رحلتنا نحن الثلاثة. أخذنا نلعب

## رحلة إلى السودان

مع الأحجار حتى المعابد. استخرجت الكنز الأنبي الوحيد بين يدي، هو كتاب بل. شيني، بعنوان "مروى حضارة السودان" (1967) ثم أخذت أقرأ عن آمون وحتحور والآلهة القديمة والنوئات. أخذت أقصّ عليهم الكثير؛ لكن بير لم يفعل ذلك أبداً. صعدنا تحت وطيس حرارة الشمس، صعدنا ببطء عبر الكثبان صوب الأهرامات، جلسنا في ظل رطب، هو ظل الهرم الأكبر؛ لم تكن نرى هناك غير الصحراء.

فجأة، فرد صقر جناحيه وحلق على ارتفاع منخفض، وظل يطير وهو يكاد يلامس قمة الهرم الأصغر. ماؤ وجوده المكان بنوع من العبق، هناك إحساس بأن حورس كان هناك، قريب جداً لدرجة يمكن معها أن نتصّسه. هل ولد حورس - الصقر المقدس عند المصريين القدماء - في جبل البرقل؟ هل ولد بين تلك الطيور التي تطير قريبة من سطح الأرض؟

قررنا عبور الواحة سيراً على الأقدام، حتى نصل إلى كريمة. نزلنا من على إحدى الوهاد متخذين الكثبان طريقنا، عبرنا الجبال الغربية، وجلسنا بضع دقائق في الظل بصحبة بعض الفتيّة من الجمالين الذين كانوا يسقون حيواناتهم، ثم دلفنا إلى غاية النخيل، أخذنا الطريق الأول، دعنا بعض الفتيات للدخول، كان هناك صحن كبير، به الكثير من الأطفال ظليل بالكثير من زهور الجهنمية وشجرة منط كبيرة، وغرف متفرقة لها دعائمها من الطوب اللبن. رحبت الأسرة جميعاً بنا.

وصلنا في الطرق الترابية وأخذنا نقفز فوق القنوات ونضع أقدامنا في المياه الجارية، ونحاول أن نتماسك ونحن نفعل ذلك، كنا تحت مئات من أشجار النخيل، الضوء أقل بعض الشيء والظل. كانت المياه تغمش الهواء. هناك مشينا أكثر من ساعة حتى وصلنا إلى نهر قليل. كنا نتوقف بين الفينة والأخرى ونسامر، نسير ثلاثتنا في صف واحد، وبين لحظة وأخرى تطل علينا بين النخيل مساحات

## رحلة إلى السوحان

خضراء، خضرة كثيفة كانت تتلألأ عندما تداعبها الشمس. وبعد ذلك الظل. وأحياناً - قليلة - كانت هناك منازل قليلة تختلط مع الأرض. لم يكن هناك أحد، فقط وجدنا فرناً من الفخار في الهواء الطلق وسط كثافة الخضرة بدا وكأنه شيء سريالي في ذلك المحيط. كانت هناك الكثير من كرات الطين التي تتبدى متفرقة بين النخيل، وكأنها قبيلة من كائنات غريبة تقضي القيلولة. كانت شطآن النهر مزينة بالكثير من الحقول الممتدة التي ترتفع عن مستوى سطح المياه، فوق هضاب من الطمي؛ كنا نسمع صوت موتورات ماكينات المياه التي ترتفع المياه من الليل، كان الصوت متقطعاً. أما في مياه النهر فهناك للصيادون، كل يجري سعياً للرزق.

رأينا مجموعة من الشبان قائمة بين النخيل، كانوا طلاباً في المرحلة الثانوية، كانوا قد انتهوا من دراستهم. من أين أنتم؟ لسيان! كانت الفتيات تمضي أما الأولاد فقد بقوا على البعد وتحلقوا حول أنفسهم في هدوء وأخذوا يراقبوننا، لم يقتربوا منا. صاح أحدهم: إيراك! لم يكونوا معادين أو مصانقين، ورغم هذا شعرت بطوية تسقط بالقرب منا. واصننا طريقنا. لم يبد الإرهاق على بئر رغم المشوار، لم نتبادل الحديث، بدت التلقائية والرغبة في المشاركة والرفقة كأنها غائبة كلها بين الطرفين، كنا نتواصل من خلال يحيى؛ كنت لتضرع حتى لا تتعرض الرحلة للفشل.

دعونا لتناول الشاي في الحديقة الغناء في أحد المنازل، كان هناك أكثر من عشرة أصدقاء يقضون القيلولة في الظل؛ دخن اثنان منهم أو ثلاثة مع بئر. من هناك توجهنا من جديد إلى سوق كريمة، حيث كان علينا أن نشترى التذاكر إلى الخرطوم لنسافر في اليوم التالي. أخذ يحيى على عاتقه القيام بذلك بالتعاقد مع أفضل شركة حيث كانت راكبة بعض المياريات الفارسة. ذهبوا بنا إلى مكتب قصي في حارة جالبية وقدموا لنا صورة أتوبيس رائع سوف يحملنا من المنزل فجر اليوم التالي. من الطبيعي أن تدفع مقدماً ويتم حجز المقاعد.

## رحلة إلى السودان

عدنا إلى المنزل، لإزال الخزان يقذف بالمياه الفائضة التي تدخل إلى الصحتين، ولم يكن هناك تيار كهربائي؛ يبدو أن هذا البيت به مس من الجن. وبعد أن تخلصنا من عالمة الأنثروبولوجيا وعبرنا الصحراء الشاسعة تحول كل ذلك الذي رأيناه وكأنه واحة ومساحة حرية وبضعة أيام من الراحة، شيئاً مختلفاً تماماً، وأثار حفيظتنا. وانعكست التوارث علينا بقوة، فظل بير في حالة الصمت ولف إلى سريريه، فلم يكن يشعر أنه في حالة جيدة حسب قوله.

وضع يحيى الكثير من الأغراض في شنطة بلاستيك وخرجنا. عدنا إلى الميدان الصغير الخاص بأعمال الحفائر الأسبانية وإلى القصر غير الحقيقي. سرنا صوب خلفية جبل البرقل وأخذنا نصعد الكتبان ببطء، وعندما صافنا أوليات الكتل الحجرية أخذ يحيى يصعد نحو ظهر الجبل، كنا نسير بخفة وسرعان ما وصلنا. تقدمنا نحو مقدمة الجبل، وهناك جلسنا. كانت الشمس قد هبطت من كبد السماء، وكسا المكان اللون الذهبي، فرش يحيى فوق الحجارة ووضع طعام إفطار لذيذ وشهي، هناك المياه والتفاح والبيسكويت. أخرجت كتابي. أخذنا ننتظر أذان المغرب.

حل الظلام وعدنا أدراجنا. ذهبت به ليرى تلك الفجوات ثم ذهبنا إلى حافة الوهدة، وأمام الكتبان توقفنا هنيهة، لم يتمكن يحيى من المقاومة، وقف بنفسه إلى أسفل، وتبعته، كنت أعرف ما كان ينتظرني، لم يكن الشيء نفسه، لكنه كان شعوراً قوياً. عندما كنا نفقز في وسط الطريق ونحن نضحك رأينا شكلاً صغيراً كان يعبر الطريق كأنه كلب، لم يرنا رغم أننا كنا شديدي القرب منه نتدحرج على هذا المنحدر الحاد. فكرنا أنه ربما كان الحارس.

عدنا من الطريق نفسه، عبر الكتبان الخلفية، وسرنا كثيراً للطواف حول المكان. كنت أشعر بالإرهاق. عندما وصلنا إلى المنزل كان الباب مغلقاً. أصبحنا في الظلام وبدون مفاتيح، لا نكاد نرى شيئاً. أليس بير نائماً؟ طرفنا

الباب، صرخنا، لم يرد أحد. وهنا استعد بحبي للقفز فوق لثتين من الأسوار العالية، وعندما دخل، ظهر بير فجأة في المارح. لم يقل شيئاً، فتح الباب، ألبته وسألته أين كان ولماذا لم يترك الباب تحت قطعة من قطع الحجارة.

كان التوتر واضحاً للعيان. تراكمت مظاهر التباعد. أشعلنا شمعتين، وذهب بير إلى مريره وغطى نفسه بالبطانية الحمراء حتى أذنيه. ذهب إلى المطبخ لأعد شيئاً من الطعام، لم يكن هناك إلا القليل من الماء، عدت لأسأل بير: أين هي زجاجات المياه الأربعة التي اشتريناها؟ والأخرى؟. شربت واحدة. وبالفعل، كان قد بقي القليل جداً من الماء بعد العشاء، كنت أشعر بالسخط، لم أكن أفهم هذا البرود الظاهري في التصرفات وتلك اللامبالاة. فكرت، ربما كان باستطاعته أن يحرمنا أيضاً من تناول الشاي في منتصف الليل. عندما خرجت من جديد مع بحبي تصرفت بشكل أستغربه على نفسي، فأخرجت الزجاجاة الوحيدة المتبقية بعيداً عن المطبخ ووضعنها إلى جوار المدخل في الظلام الدامس. كنت أشعر بالخجل من نفسي، لكن تمكنت من الرغبة في عدم الجدل من جديد والتصايح.

ذهبنا تلك الليلة لتودع المدير ونفخ له إيجار المنزل، فقد اختفى السائق من الساحة دون أن يقول لنا شيئاً محدداً، ولم يقل حتى متى سيعود؛ ربما يقبل المدير بتقديرنا للإيجار. كان هناك الكثيرون عنده، من الكبار والشباب، يجلسون على الأرض، أو أمام موائد يلعبون الكوتشينة ويتناولون الشاي والمرطبات، كانوا يتسامرون وهم معداً ويتصاحكون.

عندنا نمشي الهويناء ونحن نتحدث عن صديقنا، ماذا يحدث؟ ماذا فعلنا به! ولماذا هذا الموقف الأذائي من أجل بطانية! أنا أيضاً لا أستغرق في النوم وأنا أستخدم بطانيتك، لكن لا فرق عندي في تقاسمها معك. إنه متوتر يصمت لساعات ولا يلقي بالنحية على أحد. عندما وصلنا إلى المنزل تأكدت أن زجاجة



## رحلة إلى السودان

المياه! اختفت من المكان الذي وضعتها فيه. اشتكى بير ليحيى، والآن تخفون عني الماء! ما هذا الذي يحدث؟ صاح يحيى منبهاً، ثم جلسنا على ضوء شمعة. علينا أن نتحدث وأن نقول ما الذي يحدث بيننا. إنني لم أذكر أي رحلة كنت فيها بحاجة إلى مثل هذا المسلك، كانت كلها رحلات فيها تعاون بين الجميع.

حسن، ماذا بك؟ لا شيء، لم تعد نطاق منذ أمس، لا نتحدث ولا تلقى بالتحية، ولا تساعد. حسن، حسن، يحدث أن أغضب من حين لآخر، وخاصة في الصباح. وهذا أمر يتعلق بي. لا يا بير، عندما نكون في رحلة فالأمر يتعلق بنا جميعاً. وهذا أمر لا يتحمله الجميع، فلم يحدث أي شيء بالأمس، فليت إلى المنزل وأنا معي، ثم خرجت لرسم بعد ذلك، وقمت بجولة واليوم أيضاً. لكن ماذا عن موضوع الماء؟ لقد رفضت أن تشتري المزيد من الماء، لقد تأكدت أن لديك قدرة على البقاء مدة طويلة دون أن تشرب شيئاً. أما أنا فأحتاج ما لا يقل عن لترين من الماء يومياً. ربما تريد أن تؤمن بالأشياء حسب شريك لها - أحببت - غير أن الواقع مختلف عما نراه. فأنت غاضب منذ ليلة أمس، تتصرف بسلبية وقررت عقابنا ولكن ببطء، والتوتر الذي تخلقه زلزلني ودفعني لتصرفات لا أفعلها أبداً.

وخشاماً قال لنا: آه، لقد شاهدتكما وأنتما تتدحرجان فوق الكئبان! هل كنت أنت الذي كان تحت؟ نعم، ولماذا لم تتوقف أو تلقى التحية باليد؟ عجباً! كنت أريد النزهة وكنت برفقة الحارس في مهمته الليلية، لم أكن أريد أن يراكما، فقد كان دائب البحث عنكما. قمنا بإعداد شاي الوداع ثم عدنا إلى موضوع يحيى المثير. لكن ماذا بعد الأقصر؟ ظلت عدة أيام وأنت معي إلى المنزل. وهناك؟ واصلنا هناك.

خلدنا إلى النوم ونحن نشعر بالراحة والاسترخاء؛ وعلى أية حال، نجحت للعبة التي لعبتها ليلاً، فقد أخذ بير يبحث عن المياه في الظلام ونحن خارج

المنزل، وعثر عليها لكنه لم يشربها كلها بل أبقى على شيء منها، وبالتالي لم نخلد إلى الأميرة وجوفنا خاوي الوفاض؛ وهذا لم يكن بالعشيء القليل، وقد لاحظت أيضاً أن يحيى أعاد لي البطانية، يمكنني أن أنام ولو ليلة واحدة؛ في الثالثة فجراً نهضنا من على الأسرة والنوم يشدنا إليها، كان الظلام دامساً، وكان الانتقال من النعاس إلى الهواء البارد أمراً غير مشجع. كان النش في الظلام تصحبه رعشة القطرات الأولى من المياه الباردة. جمعنا أمتعتنا حسبما اتفق، كانت هناك أشياء مهمة يشغل المرء بها فكره، كانت الساعة قد بلغت الثالثة والنصف فجراً ولم يظهر الأتوبيس بعد. خلدنا إلى المضاجع مرة أخرى في محاولة لاختلاس بعض دقائق من النعاس؛ مضت ساعة ونحن بين النوم واليقظة، أخذنا نقول ونحن متوترون ومستسلمون: لن يأتي. كان يحيى ذا إيمان لا يخالجه الشك بأنه سيأتي. وأتى، لكن بعد ثلاث ساعات من الموعد الذي حددناه معه، وكأنه يرتدي قناعاً، فبدلاً من أتوبيس ضخم ورائع تم الاتفاق عليه ليلة للبارحة وجدنا أتوبيساً مهالكا، مليئاً بالركاب هم مجموعة من الفلاحين بين الكثير من الأجرة والبقيج.

كان النعاس يغالبنا، الأمر كذلك بالنسبة لي، ضاعت كل أحلامي سدى عندما رأيت هذه المركبة التي لا تصلح للخدمة. سوف نقضي سبع ساعات في علب الصفيح هذه، بدلاً من أن نكون في أتوبيس جيد وعدونا به. كان الجو بارداً، صعدت بسرعة يغالبني النعاس، لا يوجد أي مقعد خالي. رحب بنا من كانوا في الممر بين الكراسي. جلست ببصري فوق وعمائم المسافرين، كانوا مرهقين أيضاً والكثير منهم نيام. في آخر الأتوبيس اكتشفت مقعداً خالياً ليس به أية عمامة؛ هناك، فوقه، الجديد من الصناديق والبقيج، تأرجحت وأنا أثبت بصري وعازم على الجلوس في المكان، وما إن رأى جاري في الكرسي المجاور موقعي أخذ يرفع الأمتعة عن الكرسي، فعل ذلك بنوع من التناقل والاستسلام، غير أن قضاء سبع ساعات جالساً كان أمراً يستحق هذا الموقف.

### رحلة إلى السهول

لم يكن كل شيء على ما يرام، فعلى أية حال ترك لي جاري صندوقاً كبيراً تحت الكرسي حال دون أن أضع قنماي على الأرض. كنت قد اتخذت وضع القرفصاء على المقعد الذي كان يقوم على الأرجل الخلفية فقط؛ هبات نفسي على هذا للوضع لعبور ثلاثمائة كيلو متر عبر صحراء بيوضة، ويحيى إلى جوالي جالساً على كرسي يهتز في كل حركة. كن يحيى سعيداً، وأخذ يقصر على أن كل شيء سار على ما يرام؛ لما أنا فقد قلت له رأياً مخالفاً ونبرة صوتي بها مسحة من التوتر، ولله قد أخطأ هذه المرة في حكمه على الأمور، فقد خدعنا، وتعاهد مع أتوبيس من الدرجة الثالثة بينما سددنا نحن ثمن السفر في أتوبيس فاخر. حاولت التمدد ما استطعت وأغمضت عيني، ومن المؤكد أنني سأصل إلى الخرطوم وأنا على هذا الوضع جالساً. كنا نسير في الطريق نفسه الذي سارت فيه قوافل الجمال، صوب قلب أفريقيا، فلم يكن هناك مجال للخطأ.

كان الأتوبيس يسير في طريق متعرج، مرة أخرى عبرنا إلى جوار جبل برقل، توقفنا في بعض القرى، بينما أخذ ضوء الصباح يغزو الجو المحيط، كان الطريق ترابياً، درنا حول الواحة ودخلنا كذلك وسط النخيل، كان الطين قد جف لحسن الحظ وعلى جانبي الطريق بعض المأخذات الواقعة بينما الناس يسرون هذا وهناك؛ كانت هناك عشرات من السيارات الكبرى، كلها ملونة بألوان زاهية، كان يمكن أن تبقى عدة أيام لانتظاراً لدورها لعبور النهر، في ظل نسمات الصباح الباردة كان الجميع تعلق وجوههم بالسعادة، يتسامرون وهم مهياون ذهنيلاً لانتظار الوقت اللازم لبلوغ دورهم في عبور النيل، ونحن أيضاً علينا أن ننتظر فسحة طيبة من الوقت، خلا الأتوبيس من الركاب ما عداي. نزل يحيى وبيير وانخرطوا وسط المسافرين، كانا سعيدين وهم بين سائقي سيارات النقل والفلاحين وأخذوا يعتليان جبلاً من التراب والطين والنخيل ويهبطون، لا، لن أبرح مكاني. بدا الأمر وكأنني تسمرت في مقعدي، لم أتحرك قد أنملة،

كنت أشاهد النيل من خلال نوافذ الأتوبيس بهدوئه وضخامته، إنه نفسه ولو كان مجراه يسير عكس الاتجاه. وفي نهاية المطاف نزل الناس جميعاً، كل مكانه.

سرعان ما بدلت "الكركرة" وكأننا نسمع وقع سير جحش غير أنه أكثر قوة، كنت أجلس القرفصاء وعمودي للفقرى يصطدم بمحور العجلات في كل مطب من المطبات. خرجنا إلى الصحراء الواسعة، صحراء بيوضه Bayuda، القاحلة والتي كنسيتها الرياح، كل ذلك ونحن على الجانب الغربي للنيل صوب أم درمان. ومن جديد تظهر الجبال كل على حدة متفرقة وكأنها موائد، الآفاق التي لا نهاية لها وكثبان الرمال والحجارة؛ هناك مطب أقوى من الأخرى لا بد أنه أدى إلى الأضرار بعظم الحوض، كان المطب كأنه ضربة مرزية على العصعص. لا جديد في الأمر، رغم أن هذا المطب كان قظيماً. ثم أكن أطل كثيراً على المشهد، نعتريني غفوة، أغضض عيني وتمر الساعات على إيقاع الموسيقى، السلوى الوحيدة. مرت لحظة لثناء السفر والمطبات حيث اختفى يحيى عن ناظري، كنت شبه نعسان ومع هذا أقسم أنه كان قد تبخر من المكان. فتحت عيني، وجدت أن ظهر المقعد الذي كان يجلس عليه قد تزعزع قليلاً مع آخر مطب، واكتشفت أنه ملقى وسط الممر وساقاه مرفوعتان.

كان بير يجلس على مقعد آخر في الجزء الأمامي، وبالتحديد في منتصف الأتوبيس، إلى جانب الباب، كنت أراه ينهض من مقعده طوال الوقت، وهو يتنعم ويترك فسحة للذين يصعدون وينزلون من أهالي القرى المختلفة، يا لها من تمرينات رياضية يقوم بها ومع ذلك كانت تلك لحظات طيبة مر بها طبقاً لما قاله لنا، كان محاطاً بكل هؤلاء الفلاحين الذين كانوا يحدثونه ويبتسمون له باستمرار، وأحياناً ما يغنوا أو ينام بعضهم على كتفه لبعض الوقت.

كانت الصحراء تجري بسرعة من خلف النوافذ وتثير في جريها

### رحلة إلى السودان

الترايب والرمال، كنا نتجه صوب المنطقة المدارية، وبدت الأرض كأنها مزروعة بشجيرات شائكة وبعض أشجار المنط. تصورت أن ملك قوش/ أسيلتا Aspetta، الذي فر هارباً من نيابة عام 591 ق.م، متجهاً إلى مروي، وكان ذلك بعد تدمير نيابة وبرقل على يد المصريين الذين كانت عاصمتهم سابيس، وأخذ يسير في هذا الطريق بالسرعة التي نحن عليها، ولابد أنه كان قد وصل قبلنا. فكرت أيضاً في الملك ناستاسن Nastasen، الذي عبر تلك الصحراء بعد ذلك التاريخ بمسافات قليلة - في منتصف القرن الرابع ق.م. - ولكن في اتجاه معاكس، أي من مروي إلى نيابة ليتم ترويجه، لأخر مرة، ملكاً في معبد آمون إلى جوار الجبل المقدس مثلما فعل ذلك سلفه. فهل يفعل ذلك مثلاً وهو يحمل الشمسية ويرافقه العديد من الناس، البسطاء، أو أن يفعله وقد رافقه المحاربون؟

يقال إن كهنة النبوءة، كهنة الإله الكبش، في جبل لبرقل، هؤلاء الذين كانوا يتخذون القرارات المتعلقة بالاستخلاف بين ملوك القوش في نيابة، كانوا يسرون على عادات قديمة ذات أصول أفريقية، ترجع إلى "جبال القمر" و "البحيرات الكبرى" وكانوا يضحون بالملوك في ظل خطوات طقسية على شاكلة ما كان يجري في الأزمنة الغابرة. وكانت هذه عادة تثير الضيق ثم إلغائها على يد من خلف ناستاسن، وهو الملك أراكاماني Arakamani وقد فعل هذا متأثراً بالأفكار الجديدة التي أتت بها الفكر اليوناني، وكان مصدره البلاط البطلمي لبطليموس الأول في الإسكندرية. ما فعله هو أن قضى على كافة كهنة آمون في نيابة، وانتقل إلى مروي بشكل نهائي عام 300 ق.م. ولم يكن من الضروري لمام المرويين عبور صحراء بيوضة Bayuda حتى يصبحوا ملوكاً أو أن يتم دفنهم، فهذا الحزام الرملي والناري حماهم دائماً من جشع البطلميين والرومان.

كانت تتتابع الجبال المسطحة القمم والجبال البعيدة والوديان التي لا تنتهي وتواصل تتابعها؛ أنعاب وأنكر المشهد الداخلي. كنت متكوراً على مقعدي وأهتز مثل باقي الركاب. كان الكثير منهم دائماً يستندون عماثهم على أيديهم، كلهم يرتدون جلابيب المفرد المتهالكة بعض الشيء. كان هناك عدد قليل من النساء ترتدي كل واحدة ساريها الأسود؛ أرى الصحراء من جديد، قاحلة وواسعة. تركنا ببوضة Bayuda منذ سبع ساعات؛ هناك بعض التجمعات للسكنية التي تسبق مدينة حضرية، وعلى بعد خمسين كيلو متراً من الخرطوم أخذ يظهر خط رمادي، أي طريق أسفلتي في الأفق، كان ذلك الطريق الأول المسفلت الذي تراه بعد ما يقرب من ألف ومائتين كيلو متراً.

واصلنا طريقنا حتى نزلنا في شوارع متقاطعة على الطريقة العربية؛ هناك ميادين صغيرة وأسواق أرضها ترابية ومنازل غير مرتفعة ومساجد. هذه المدينة هي لم درمان، أرض المهدي، وهناك نزلت الأغلبية الساحقة من الركاب، وكذلك نحن، لكن يحيى قرر أن نواصل؛ عبرنا فوق كوبري معدني طويل يمتد على النيل الأبيض الذي يكاد يخلو نصفه من المياه، وتظهر السنة من الرمال في مجراه؛ عبرنا أيضاً "الأباي" أي النيل الأزرق الذي يفيض بمياهه، وفي نهاية المطاف وصلنا إلى منطقة خلاء هي عبارة عن تقاطع طرق، وهنا قرر يحيى أن تنزل؛ كانت الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر وكانت الشمس قوية كأنها تعمل مؤقتاً، أخذ إيماننا بضمحل كثيراً بالآخر الصغير؛ فقد أخذت أنا وبير ندمن تلك لفكرة، ونحن مطوقون بكافة الشنط والأحمال. جررت اثنتين منهما تحت الشجرة الوحيدة وأخذت أصب لعناتي الداخلية. لا يظهر حتى أمل في وجود تاكسي أو أية مينة، الحقول وبعض الأشغال في الطرق وبعض المنازل المتناثرة.

وعلى عكس كافة توقعاتنا ظهر يحيى من جديد وهو يطل من ميكروباص بدون ركاب، ثم رحلنا. لم تظهر الخرطوم، هناك بعض المدن

## رحلة إلى السودان

الباهية والحواري الترابية والحدائق المتربة، والظل المتواضعة وغير الجميلة. أين إذن هذه المدينة الإنجليزية، مدينة جورين وكيتشنر، وحكام السودان الإنجليز مصريون؟ أين هي المدينة الكولونيالية التي تنعكس صورتها على صفحة النيل الأزرق وكأنها حي الزمالك بالقاهرة؟ أين هي تلك المنازل الضخمة والفخمة المشيدة بالأجر الأحمر، وكذلك الحدائق الغناء التي تضم أشجار النخيل، أو ما يطلق عليها "ملكة الصحراء الشابة" وهو المسمى الذي أطلقه عليها الهولندي ج.م. شوفر عام 1881م... نحن نبحث من جديد عن مدينة لم تكن موجودة.

كان بير قد نوه بأن نؤجر مكاناً فاخراً في الخرطوم، أن نقيم في فندق راقٍ له حمام سباحة. فعلنا ذلك، لم يكن معنا أي نقود، ولم يكن المكان هو الذي نبحث عنه. عبرنا بعض الطرقات، ودون أن ندري وجدنا أنفسنا أمام فندق "أكروبول" في الوسط، ومع هذا فقد وجدنا أنفسنا محاطين بعدد من الشوارع الترابية ومنازل غير مرتفعة وكتل من الأسمنت وواجهات وبعض التفاصيل الأخرى التي لا تختلف كثيراً عما هو في كريمة أو بعض القرى الأخرى.

كان اسم "أكروبول" جميلاً، وهذا اجتررت: ذكرياتي في منزلي في أثينا التي تخفي تحت الأكروبوليس Acropolis، وأمام نافذتي البارتيون، ثم طارت الذكريات إلى محطات كثيرة في الإسكندرية، وبالتحديد في فندق أكروبول الذي كان يهتز في الصباح الباكر عند مرور الترام وتتأرجح اللمبات والنصف، كانت نسمة الصباح تدخل، وفي عمق مرآة ترتعش هناك انعكاس لشكلين عريانين. كان فندق الأكروبول بالخرطوم يطل فقط على شارعين جانبيين، غارقين أثناء الليل في سكون محري، كانا شارعان ترابيين ولم تكن تمر بهما السيارات، وعلى أية حال كان هو المقصد الوحيد والمضمون في العاصمة المودانية، يمثل فخراً يونانياً وسط الصحراء ويمكن مقارنته بفندق "البارون" أو فندق "بيرا بالاس" في اسطنبول الذي كان تقضي به لوتي Loti بعض الوقت.

في الخرطوم نجد من كل لون أغنية، لم تكن مكاناً جذاباً ومع هذا بقينا فيها عدة أيام، كان فندق الأكروبول مشغولة غرفه بالكامل لكننا استطعنا أن نحصل على غرفة لثلاثة لها شرفة كبيرة، كان الفندق نظيفاً ومرتباً. كانت الوجبات ثابتة ويتم تقديمها في موعدها. كان هناك الكثير من الغربيين، هم أناس جانون شاحبو الوجوه يبدو وكأنهم يقومون بأعداد تقارير بشكل دائم. يبنون كذلك حتى عندما يتحدثون بصوت خفيض، لا يضحكون أبداً، وبالتالي لا بد أن ضحكائنا كانت مستعربة لديهم. كنا نتصاحك فيما بيننا ومع السقاة. هل أنتم قادمون من كرمه، من نقلة؟ الجو حار هناك! كانوا يكررون هذه العبارات.

كان المدير أو كوبيوس جيورجوس K. giorgos مشهوراً بأنه مضيف، فقدمني لرجل تعلق البشاشة وجهه، طويل القامة، هو الدكتور. تيم كندل T. Kendall بشحمه واحمه، كان يقول: فندق الأكروبول هو منزلي! دعاني في اليوم التالي إلى محاضرتة التي ألقاها. إنها محاضرة عن جبل برقل! عندما جلسنا في حدائق المعهد البريطاني، تحت النخيل كان الجو شبه كولونيالي، بينما كان رجل الآثار الشديد الحماس يشرح لنا من خلال اللوحات والصور محاولاته إثرائة لتسلق قمة الجبل وبذلك يكتشف ما بقي من طهارة. يبدو أننا أمام قراءة حديثة يقدمها مكتشف قديم من القرن التاسع عشر، وأننا، معشر الحضور، أعضاء هيئة ملكية علمية من هيئات القرن التاسع عشر. فكرت في جبل برقل وفي تلك الدردشة وبدا لي الأمر صدفه علية في الأهمية تساعدني على فهم المزيد من الأمور المتعلقة بالمغموض الذي يلف الجبل.

قمنا بالتمتزه، خلال الليلة الأولى، لم يكن هناك مارة بالشوارع والطرق العامة؛ هناك بواب بنام في للهواء الطلق، وهو يلتحف ناموسية، داخل ما يمكن أن نطلق عليه مهدأ، كان الكناسون يمضون في هدوء، توجهنا إلى النهر، عبرنا للطريق أمام قصر الرئاسة، ذلك المبنى الكولونيالي الجميل، في حدائقه هناك



## رحلة إلى السودان

أكشاك على شاكلة الهياكل البيضاء في الشرق الأقصى، على الطريقة الصينية، لكنها لم تكن ملائمة، وتحت جناح الظلام بدا الشاطئ الخاص بالنيل الأزرق وقد اصطف به أشجار عملاقة هي أشجار البوباب Baobabs ذات الجنوع المفرغة، وحائط قليل الارتفاع والكثير من الحجارة التي خرجت عن مواضعها.

تصطف على جانبي الطريق قصور قديمة ضخمة ليس بها الكثير من الجمال المعماري، وهي الآن مقار للجيش أو الوزارات، لغت التباهي أجملها، هو مبنى Carreteras . هناك القليل من الجمال للفني في التوبة العليا شعرنا بالاستغراب، لم يكن هناك شيء مفتوح. كنا نسمع موسيقى ونرى أنواراً، ولكن من بعيد، بعيداً عن النهر. انتهى بنا المطاف في إحدى العفش المنزوية، أمام النيل الأزرق، تمكنا من تدخين الشيعة، كان هناك فتية يتعشون الفول، إنهم المملوكية والصيادين والعمال والحراس وكافة هؤلاء البسطاء من الذين يعملون ليلاً. لم تكن هناك تاكسيات، لكن عدنا في صحبة رجل شرطة لطيف لمصطحبنا معه في السيارة.

ذهبنا في صباح اليوم التالي إلى المتحف؛ كان قريباً من تلك العشة، لابد أنه على ما كان عليه خلال الخمسينيات من القرن العشرين، أضف إلى تراكم التراب وقلة الإضاءة. غير أن مقتنياته الأثرية فاقت توقعاتنا، قضينا فيه ساعات طوال؛ كان يحيى سعيداً بوقوفه إلى جوار تماثيل طهارقة، وهي تماثيل كثيرة إحداها كبيرة، وفوق الرأس التاج أو غطاء Onuris ؛ كان شاباً ووسيماً، من سلاله الأبطال الذين عاشوا في الزمن القديم. كان يحيى يشعر بأنه قريب منهم، فكلاهما نوبي، إنه جزء من ماضي أرضه. رأيت رجل سنج Singa والكثير من الفئوس التي ترجع لعصر ما قبل التاريخ. كانت الأواني الفخارية غلبة في الجمال، من أفضل ما أخرجته يد الإنسان، تذكرنا بأواني أفريقيا السوداء، وتنسب إلى الثقافات الكبرى التي ترجع إلى العصر الحجري الحديث في الخرطوم، وهي من أهم الثقافات في وادي النيل.

لكن ينقص للكثير! هناك الكثير من اللقطع التي فُرت وهي قطع مهمة تساعد على تصور أفضل لتاريخ نباتة وعروى- إنها الخاصة بكافة فراعين مصر وبعض الملكات. وكانت عملية النهب تتمثل في إجراء الحفائر مقابل الحصول على 50% مما يتم العثور عليه، واستمر هذا مع الحكومات المتعاقبة، وهناك يقرّر الأجانب ما هي القطع التي يجب أن تسافر إلى أوربا والولايات المتحدة؛ أي أن الأفضل يخرج بعيداً عن الحدود، ويبقى الكسر. تاريخ النوبة إذن موزع بين العديد من المتاحف والمجموعات الخاصة؛ حتى الإنجليز أخذوا لوحة رائعة للإمبراطور أوجوستو، كان المرويون قد استولوا عليها في مصر أخفوها تحت كتل حجرية في أحد المعابد؛ وما فعلوه هو أن أعطوا للسودانيين نسخة طبق الأصل. أما الطابق الثاني، فنجد لوحات الفريمنك الرائعة لـ Faras المسيحية التي تؤكد أنه لم يذهب كل شيء من المكان.

وصباح يوم آخر، وبعد البحث، بلا جدوى، عن مدير المتحف، حتى يعطينا تصريحاً لزيارة الآثار المروية في شندي، لم نجد بدأً من الذهاب إلى سوق أم درمان الشهير. عبرنا النهرين من جديد، كان الناس كثيرون والحر شديد، نزلنا من التاكسي الذي كان يتقفي خطواتنا. أخذنا نحث الخطأ، هناك المئات من المحلات مفتوحة في البوائك، مفعمة بالبضاعة، على طول الشوارع الممتدة والمنازل الحديثة، التي تخترقها طرق ترابية. هناك كل أصناف البشر، من النوبيين والأثيوبيين والعرب والباننو الأفارقة، كل يسير في طريقه، لا يكاد يلمس أحد الآخر. غير أن امرأة صاحبت في لحظة ما وهي وسط الطريق وهي تنظر بازدياء لرجل إلى جوارها.

هناك عدت لمشاهدة هؤلاء البشر نحيفي العود بحيث يبدون وكأنهم مرسومون بضربات ريشة. كانوا جياكوميتس Giacomettis حقيقيين يسرون على الأقدام. أتوا من الجنوب ويقال أنهم من سلالة قديمة جداً هي سلالة نكا

## رحلة إلى السودان

Dinka. لم نعثر على هؤلاء الرجال العرايا الذين يأتون سيراً على الأقدام من قراهم، وقد غطاهم رماد أبيض. كانت العمائم البيضاء والجلابيب تتدخل في تناغم مع العديد من ملابس "الساري" المتعدد الألوان، وقمصان أهل الجنوب الذين يتسم السواد فيهم بأنه الملمح الرئيسي. كانت هناك بعض الميادين التي تتكدس بها دكاكين البلاستيك، وأخرى للأثاث والملابس والمنسوجات والخياطين والجواهرجية في ممرات ظليلة وشوارع مليئة بالمطاعم. ووسط هذا الزحام وجدنا باناً لديه بعض البضاعة من المشغولات القديمة، إنها من إثيوبيا. لها من السودان فلم نجد شيئاً. اشترينا أربعة من أكياس الفول السوداني وبعض التوابل وقطع قديمة من خشب الأبنوس وفررنا.

كنا نتمشى يوماً آخر على شاطئ النيل الأزرق على دراجة بخارية من الصفيح، قمنا بجولة طغنا فيها حول الخرطوم و "الجزيرة"، كنا نبدو كأننا منمنمات وسط النهر الفياض والواسع. أول شيء فعلناه هو أن اتجهنا إلى "الجزيرة" وذلك للحصول على الكثير من الأعشاب، لنقلها إلى الشاطئ الآخر، إلى سوق الأسماك. كانوا هناك يبيعون ما يصطادونه من النيل، أسماك ضخمة ذات أشكال مختلفة، كلها متراكمة في قفص كبيرة. كان الصيادون الطاعنون في السن يجلسون على كراسي في شبه حلقة تحت أشجار المنط، يرتدون صديري، وبمباتشو (سروال) مثل أهل الإسكندرية، على الطريقة العثمانية. أما الشبان منهم فكانوا يقومون بتنظيف الأسماك على الحجارة تلبية لما يطلبه الزبائن. أما على الشاطئ فهناك مجموعة أخرى تقوم بغسل تلك الأسماك في النهر.

غير بعيد عن المكان كان هناك مسطح ضخم من المياه، وكأننا نرى بحيرة كبرى؛ كان ذلك ملتقى النيلين الأزرق والأبيض "المجريان". هناك كننت بداية نهر النيل الكبير الذي يروي النوبة ومصر، يضم المشهد المسجد الأبيض

"النيلين"؛ وهو أكبر مساجد الخرطوم، المدينة التي يقول عنها أهلها بأنها تضم ستمائة مسجد وثلاثمائة وخمسين كنيسة مسيحية أغلبها قبطية.

تجولنا كثيراً في الخرطوم القديمة، حيث كنا نعيش، كنا نحترق، المرور الكثيف، نبحت عن ملاذ من الشمس الحارقة والتراب. كانت هناك محطة أتوبيس كبيرة في الهواء الطلق بالقرب من الفندق، وكان هناك الكثير من البئر يغنون ويررحون. كان هناك المئات من الشبان الذين يلجأون للراحة، إلى ظل المساجد وفي الشوارع المجاورة، يجلسون على الرمال، يبدون وكأنهم غير عابئين كثيراً وبلا حراك، ونظراتهم تائهة. إنهم اللاجئين الذين قدموا من الجنوب ومن الغرب ومن الدول المجاورة مثل إريتريا وتشاد وأوغندا. كانوا مستلقين حسبما اتفق ومتجمعين أحياناً. إنهم الوجه الآخر للحرب. هم الذين فروا من الحرب، لا يملكون شيئاً.

بالقرب من هناك نجد العديد من المحلات وخاصة محلات بيع الجواهر، الفخارين مليئة بالذهب وبعض الفضة، هناك عقود وبروشات وخواتم وغوايش والتيجان وقطع حلي مصنوعة يدوياً cinceladas، كلها تومض أمام عيون النساء المنبهرة. هناك محلات الملابس حيث الأولاد يجربون مقامات القمصان والبنطلونات وهم في هرج ومرج. وغير بعيد عن ذلك اكتشفنا أحياء أكثر هدوءاً، كانت طرقاتها ترابية، محفوفة بجدران وفل نيس لها أسلوب معماري واضح الملامح هناك كنيسة قبطية وبعض المساجد وبعض السفارات. بحثت عن التي كانت سفارتنا وجمام سباحتها الجميل، ولكن لم أتمكن من العثور عليها.

قصر على بير ذات أحد الأيام التي قضيناها في الخرطوم أنه منذ أن بدأ الرحلة وهو يعاني من الكوابيس، كنت أستمع إليه مستغرباً. نعم، لقد بدأ كل شيء في أكاشا Akasha ! كنت أشعر ليلاً أن هناك كائنات غريبة تحيط بي، تكلا تلمسني، وكنت أنهض من نومي مفزعاً، فأفتح عيني وسط ظلام دامس

## رحلة إلى السودان

وصمت. لكن ما هو أسوأ حدث في كريمة؛ كانت تتأرجح أمام ناظري امرأة مغطاة بخمار أسود من رأسها حتى أخصص قدميها، وتدخل جسدي. كنت أقول واصرع ذلك الخيال، واصيبح طالباً منها أن تذهب معكما. يا لها من فكرة! لكن المرأة لم تتركني وتغطيني بالخمار. كان عندي انطباع بأنني سوف أفقد زوجتي.

كنت أتذكر الموتى في جبانة كريمة وأنا ساهم، ذكراهم تحدث تأثيرها على الموجات، وتنتشر في الهواء. فهل تتسبب في الكوابيس للجيران؟ لم تكن أعرف أن زوجة بير قد تلقت خبراً درامياً خلال تلك الأيام؛ كانت العملية الجراحية وشيكة، فلم تخبر زوجها بما سيحدث لها حباً له ورغبة منها في عدم تعكير صفو الرحلة. كانت وحدها بعيداً تمر بهذه المرحلة، كانت عصبية ومتوترة، غير أنها أثناء الليل عندما تستسلم للنوم يتحرر عقلها، ويتحول إلى صرخة وسط الظلمة الحالكة، ويهيم دون توقف ويخترق حدود الزمان والمكان وقد فقد الأمل. سمعت أحياناً صرخة الروح تلك، التي تصدر عن هؤلاء الذين يبحثون عن أعزائهم بدون أمل، كانت تلك المرأة التي ترتدي للنقاب تبحث عن عنق بير وتلبس زوجها العزيز، وهذا الأخير لا ينام من الهذيان.

لم تكن الأمور في الخرطوم واضحة أيضاً، أخذ الثور يتملكنا، أخذنا نعد الأيام المتبقية وآلاف الكيلو مترات التي تتمثل في العودة إلى وادي حلفا. كان يحى يريد العودة في الوقت المناسب، ويكون في قريته مع حلول عيد الفطر، ولم يكن بير يرغب في أن يفوته موعد الطائرة في القاهرة، ولا أنا أيضاً، لم يتبق أمامنا إلا أسبوعاً وأيام قليلة، وكان علينا أن نصل إلى شندي، وأن نزور مروي ونلحق بالقطار في عطبرة، في منتصف الطريق. كانت رحلة القطار واحدة كل أسبوع، وإذا ما ضاعت الرحلة تغير كل شيء؛ وصل الأمر مع بير إلى أن هدد بأنه يمكن أن يستقل رحلة بالطائرة من الخرطوم ويتخلى

## رحلة إلى السودان

عن باقي الرحلة. أخذنا نتدبر الأمر من جديد فيما يتعلق بالوقت. لم يكن هناك مشع وكان علينا أن نغادر الخرطوم بسرعة. عاد شبح النقود ليطل من جديد؛ كان الفندق غالياً واقترح بئر سداد الفاتورة بتحويلات، وسوف نتأخر يومين لتصفية الحساب أمام العصبية المكثومة التي عليها مدير الفندق اللطيف، إضافة إلى الكثير من المكالمات والفاكسات.

ذهبنا خلال إحدى تلك الأمسيات لزيارة أحد الرسامين المشهورين في السودان؛ رشيد دياب، صديق يحيى منذ زمن الإقامة في مدريد. كان الرجل قد تزوج رسامة أسيانية، وظل مدرّساً للفنون الجميلة خلال سنوات عديدة، لكنه عاد. كان على اقتناع بأن بلاده في حاجة إلى هؤلاء الذين رحلوا عنها. دعانا لزيارته في فيلته الواسعة وبها مرسمه، ولوحاته والكثير من الأشياء المثيرة للفضول وبعض المنحوتات. كان متحمساً، ويؤكد أن الخرطوم كانت مدينة مليئة بالحياة، ففيها كان كل شيء. لكن هذا تأكيد ليس لدينا ما نستوثق منه مع أننا كان يمكن أن نشعر به.

وفي نهاية أحد تلك الأيام، بعد أن تعبنا كثيراً في البحث عن أحد للكتبيين وما إذا كانت لديه كتب تحكي عن التاريخ والآثار مثل مكتبة "L-oriental" في القاهرة، تمكنا من الوصول إلى المنزل المتواضع للكتبي الوحيد الذي يبيع كتباً قديمة باللغات الأجنبية. وعندما رحل الأوروبيون عن المكان أغلق المكتبة أمام الجمهور. فلا أحد يقرأ شيئاً إلا بالعربية، هكذا قال لنا. دفعت ثمناً خيالياً في بعض الكتب المهمة ومنها كتاب لـ H. Dafalla عن النوبة، كان البروفيسور في حلقة قد أراني إياه. وحتى يدخل على السرور تركني أتصفح للسويسري ج.ل. بورخارد كتاباً يتعلق برحلاته في وادي النيل خلال عام 1813-1814م، فتحت الكتاب ببطء وكلي شغف، كتاب ضخم غلافه من جلد أصابته عوامل الزمن، كنت أقرأ وأرى بورخارد وهو ينتقل بين المشاهد

## رحلة إلى السودان

التي مررنا بها. كان الأمر وكأننا نلتقي بزميل رحلة، أو بإنسان معروف منذ زمن مضى.

في الليلة الثانية انتهينا أيضاً إلى العشة الكائنة إلى جوار النيل الأزرق. كانت اللبنة قد احترقت. كانت العشة مليئة بالشباب الذين يتناولون طعام العشاء، قدم لنا المطعم بقايا حلويات من التابوكا (النشا) والفواكه اللذيذة والمسكرّة. "شربت" شيشي التفاحة وأنا أتأمل كيف كانوا ينتقلون إلى الجزيرة في ظلمة الليل وفي صمت، على متن قوارب متهاكّة مليئة عن آخرها. وصلنا متأخرين جداً في الليلة الثالثة، لأننا قضينا وقت أطول من اللازم في أسواق وسط البلد، هناك العديد من الأرصفة المليئة بالملابس والروائح العطرية والموسيقى، العديد من الشباب السود يشتررون بنطلونات وقمصان حديثة، والكولونيا والأغاني التي على الموضة.

عندما وصلنا إلى شاطئ النهر، كانت العشة قد اختفت؛ لارالت الأتربة عالقة في الهواء وخوف بين الزبائن. كانت ألواح الصفائح التي منها السطح والحوائط عبارة عن كرة ضخمة من الصفائح فوق موائد وأمتعة شخصية. فقد قامت حفارة بالقضاء على هذا الملاذ غير القانوني في لحظة، إنه ملاذ لأمن غير مرغوب فيهم، كان يمكن أن نكون تحت هذا الحطام، أخذنا نفكر في ذلك ولأزلنا نرى الأكواب المكسرة والأطباق تحت الكراسي، إنها صورة العنف وقد تجسد، ركلة قدم عنيفة، تعكس طرائق فيها غنظة وكأننا أمام حملة عسكرية. إنه الوجه الآخر للعملة. أصبحت الخرطوم أكثر عتمة مع زوال العشة.

خرجنا مبكرين في الليلة الأخيرة، في رفقة بعض أصحاب يحيى، وهامهم، في نهاية المطاف، سوف يسعدوننا في تغيير العملة. ذهبوا بنا إلى حارة مظلمة حيث قام يحيى بدور الفصّل الغاضب؛ غيرت ما معي من عملة اليورو، لكن لم يكن هناك طريق لتغيير الجنيه المصري. لم يكن يحيى يريد

ذلك، إنهم سوف يغيرون لنا بسعر زهيد، ومن الأفضل أن نغير في حلقا! وغيرنا مبلغاً قليلاً منها في نهاية المطاف. حملنا الأصدقاء في سيارتهم، مررنا بالعشة الصفيح المهدودة أو المتجعدة، وذهبنا إلى كافيتريا راقية على النيل الأزرق، كأنها مثل كازينوهات القاهرة تنتشر موائده في شرفات ضخمة تطل على النهر. كانت الليلة ذات طقس منعش؛ أراد بير أن يتناول بيرة لكن الكحول في الخرطوم لا يقيم إلا في الفنادق ماعدا شهر رمضان.

وعندما تحدثنا عن الرحلة أكدوا لنا بشكل قاطع أنه لا يمكن أن نجد تذاكر للقطار إذا ما اشتريناها في عطبرة، فالقطار ممثلي عن آخره من أول محطة هي الخرطوم، الأمر الذي أثار حيرتنا بالكامل، تناقشنا أخذنا نتأمل الموقف، لم يكن هناك مخرج. قضى الأمر، لن نأخذ القطار، أو أن نذهب مترجلين لمدة يوم ونصف، هذا هو المشهد والوضع. ولابد أنه جعل البعض يشعر بالتوتر، فإما أن ننتظر خمسة أيام ونأخذ القطار من الخرطوم، أو أن نخاطر. فكرة أخرى، لنشتر التذاكر من هنا ونحجز أماكننا رغم أننا سوف نأخذ القطار من عطبرة، لنفعل ذلك في الغدا

أخذنا الأصدقاء الشبان في السيارة وطافوا بنا في جولة ليلية، عبرنا النهرين أو النيلين وكانت أم درمان نائمة، حتى وصلنا إلى مجموعة من الشوارع للمضاعة، والناس والمقاهي والمحلات ومحلات في الهواء الطلق وموسيقى. كانت هناك تجزي الحياة الليلية، فالناس إما جالسون على الموائد وإما أنهم يتمشون. كان ذلك في نهاية أو عمق أم درمان والجزيرة. حاولت أنا وبير أن نطلب منهم التوقف أكثر من مرة، فقد انتابتنا الرغبة في أن نقوم بجولة وأن نجلس ونتأمل المشهد؛ وأخيراً اكتشفنا ما كان يقصه علينا الرسام، لكن بحبي لم ينطق بشيء، ربما بدا للأصدقاء أن نبقى في هذه الأحياء الشعبية، وذهبوا بنا إلى الفندق وتركونا مطلقين في منتصف الليل.



## رحلة إلى السودان

صعدنا. جلسنا في المرفقة، شعرنا أن الليلة تتبخر، لم تكن نسمع إلا الصمت. مع السلامة أيتها الأضواء وحركة المرور والابتسامات والظنرات. هل نذهب إلى الجزيرة؟ لمدة ساعة، لا زال الوقت مناسباً، كان يحيى صامتاً وعيناه مغمضتان. كان متعباً، أما أنا ويبر فلم نقرر أن نذهب وحننا، فالذهاب يمكن أن يكون معقداً بدون يحيى، فقد كان المكان بعيداً، والعودة كذلك. دخل بير الغرفة. انصحب، ثم ذهب بعده يحيى لكنه خرج فوراً. هاتفت رشيد ودعانا إلى منزله لنقضي معه بعض الوقت. وماذا عن بير؟ إنه نائم ولا يريد للذهاب معنا، إنني لن أخرج إلا إذا ذهبت إلى الحي الشعبي وليس لأدخل منزلاً آخر، اتصل به قبل أن يتأخر الوقت، اختفى يحيى من جديد، وعندما خرج جلس إلى جوارى وأغمض عينيه.

تلا ذلك مباشرة خروج بير وهو يصرخ غاضباً، لا شك أن صراخه أيقظ بعض سكان الفندق. أخذ بناصية يحيى، فعل ذلك بغيظ وكأن هذا الأخير قد تسبب في كارثة، كان يصرخ فيه بقوة. كنت أنظر مستغرباً، ما الذي فعله معي! أن نسيء علاقتي برشيد من وراء ظهري وتقول له بأنني لا أريد الذهاب إلى منزله! ولكن هل سألت يا يحيى بير فيما إذا كان يريد للذهاب إلى منزل رشيد؟ لا، لا لم أقل له شيئاً. أخذ بير يسرد عليه واجباته؛ في هذه الرحلة ندفع لك حتى تعني بنا وتترجم لنا وأن نلبي طلباتنا! كنا نريد هذه الليلة أن نقوم بجولة، وأن نتوقف هناك، لكن ها نحن هنا!

كان عقلي يرفض تصديق ما يحدث، من هذا الانفجار غير المتوقع، إنه غير عادل ولا مبرر له، ولا أجرو أن أقول ذلك لصديق لي، والأكثر من ذلك قوله لشخص يمكن أن يشعر بالإهانة. ربما كان أقل قدرة مادية، لكن يحيى كان من حيث الجهد والحساسية يتجاوزنا بمراحل؛ كنت أنا أسيرة لكن يحيى كان يحول الرغبة إلى حقيقة، كان يقوينا. وكان بير أكثرنا سلبية، كان يترك نفسه

على حسب ما يشتهي السفن ومع هذا يصتر ويطلب، ولم يكن يفعل ذلك كصديق وإنما كمجرد سائح كنت أنظر إلى يحيى، حزينا وقد تكور في مقعده، من المؤكد أنه متألم لكنه صامت على عادة المشاركة.

أنا لا أوافقك أبداً على ما تقول! هذه الرحلة ليست رحلة يرافقنا فيها ترجمان نوبي مثلما كان يحدث في الأزمنة الخوالي، إنها رحلة يقوم بها ثلاثة أصدقاء، تطوف موباً بأرجاء بلد لا نعرفه ويساعد بعضنا البعض بكل ما نستطيع، وأعتقد أن يحيى يقوم بجهد غير مسبوق، فبدونه لم يكن كلانا ليتمكن من المرور بأول قرية، ولأصبحنا بدون نقود. أغلق بير الغرفة على نفسه، تمت يحيى بقوله، يا صديقي، أشكرك كثيراً على ما قلته.

ارتبكت خطأ فادحاً في هذه المظلمة، فلو كنا قد ذهبنا إلى منزل رشيد لكنا قد قضينا وقتاً ممتعاً واسترخنا، وأن نرافقه في هذه الليلة لنعرف الخرطوم التي لم تكن نعرفها، بأبوابها الغامضة التي تفتح، وفلها ذات الحقائق العطرة برائحة السند ودهاليزها حيث يمكن التمييز، في الظل، بين النظرات الخاطئة، بينما ترقص النساء الأفريقيات على الطبله وهن يغصن مرحاً وسعادة، بينما الرجال قد تملكهم إيقاع الموسيقى والأضواء في جو تموج به الرغبة والحمية والمرح. هكذا كان نادي "السودان" وغيره من المحلات ذات الرواد من الأفارقة، في القاهرة، وهذا ما تخيلته في الخرطوم. قالوا لنا بأن الليالي هناك طويلة طويلة.

في صباح اليوم التالي حزمنا أمتعتنا وخرجنا لتغيير عملة. مررنا أمام البنك الوطني، وساعدنا بعض البوابين الحريصين، في الخلف، أي هناك حارة تغيير العملة في السوق السوداء، إلى هناك ذهبوا بنا في ليلة سابقة. كان من يقومون بتغيير العملة يفعلون ذلك في وضوح النهار وهم بين السيارات الواقفة والمارة. كانت الحرارة قوية، كانوا يعرضون علينا تغيير أية عملات، كان

## رحلة إلى السودان

يحيى يختفى، ثم يعود بعد هنيهة. ألم تغير الجنيهاً بعد؟ لا، لا، يقدمون سعراً زهيداً، من الأفضل أن ننتظر حتى نعود إلى حلفا. وبعد مرور ساعة أشرت عليه وأنا فاقد الصبر، عليك أن تغير كل شيء الآن فلا نريد أن ننتظر حتى نصل إلى حلفا. إنها نهاية الرحلة! اختفى يحيى لعدة لحظات، وعاد. انتهى كل شيء، هيا بنا.

أخذنا تاكسي، وقد أنهكتنا حرارة الشمس وأخذنا نمضغ التراب، وبعد جولات كثيرة بعدة أحياء وصلنا إلى المحطة، كانت القطارات تتجه من هنا إلى وادي حلفا، لم يكن هناك أحد لا في ممرات المحطة أو على الأرصفة، نذاكر؟ أجاب أحد الجنود. إنهم يبيعونها قبل الرحلة بيوم، وتظل الشبايك مغلقة حتى ذلك الحين. لا مخرج أمامنا، غامرنا، لنذهب بسرعة! عبرنا لرجاء المدينة مرة أخرى، المكتظة بالسيارات ومشاكل المرور والحرّ الرهيب، توجهنا إلى ميدان صغير حيث كانت هناك الأتوبيسات المتجهة إلى شندي، هي صغيرة لكنها مريحة. ألقينا بأجسادنا على المقاعد، وخرجت الحافلة. لم أعد أفكر في شيء، وربما نمنا.

عندما استيقظت بعد عدة ساعات وجدت أننا قد اقتربنا من شندي، كنا نسير في طريق ضيق، رأيت علامة إرشادية "نقا" NAQA وسهم يشير إلى الصحراء، ومرعان ما أخذنا نرى أشجار السنط وأخذ للمشهد يكتسب صورة رومانسية وشعرية، إنه يتم استخراج الصمغ العربي من هذه الأشجار كانت جذوعها تمتد أفقياً، هناك سقف وطى ذو قماش أخضر يحول دون رؤية الجبال الجرداء الكائنة في عمق المشهد. كانت شندي ضخمة، مررنا بوسط للبلدة، هناك منازل من الطوب وبوائك ممتدة بها أقواس نصف اسطوانية وطرق ترابية واسعة؛ كانت هذه هي البلدة الأكثر جمالاً التي شهدناها حتى الآن. كانت البوائك تصفي علينا صفة التقادم، إنها بلدة ريفية فيها ما لا يتوفر في أي بلدة أخرى.

ومع هذا فذلك الهدوء والراحة الظاهرين يخفيان وراءهما ملحمة درامية. حدث ذلك عام 1820 عندما وصل إليها إسماعيل باشا بجيشه لغزو النوبة ومملكة قوتنج دل سينار Fung del Sennar. ولأول مرة في التاريخ تصل مصر إلى جزيرة مروي، ذلك الاسم الذي أطلقه الأقدمون عليها؛ جعالين شندي، ميك نمر Mek Nimr تصنع الجلال؛ إنه ملك محاط بروائح كريهة ودهانات سحرية؛ قام هذا الملك بدعوة الجيش الغازي إلى مائدة عامرة. وضع في الكؤوس مخدراً قوياً، وعندما ناموا جميعاً أحرقهم أحياء؛ وبعد تلك الهزيمة غير المسبوقة التي مات فيها إسماعيل أيضاً، تم تدمير المدينة. لم يكن هذا مهماً؛ كانت ذكريات تلك الملحمة، الأفريقية الطابع، تسبح في هواء شندي الهادي؛ ومجرد اسمها، المحاط بالغموض، يثير الكوابيس صوب الشمال.

أخذونا إلى الفندق الذي أوصينا به، هو عبارة عن كتلة أسمنت ترجع إلى الستينيات. ولمزيد من الفرحة كان الفندق يطل على النيل. كانت مياه النيل تمضي أمام أعيننا في نراع ضخم ومائل للزرقعة، به جزر غير مرئية وسط المجرى، تكاد تصل إلى مستوى المياه. كان عليها الصيادون متجهين صوب قواربهم. يبدون من بعيد أنهم يسبحون فوق الماء. هناك سرب سحري يضيف الكثير الأسطورية على الهواء العليل لذلك المشهد، اتخذنا لمأكلتنا في غرفنا في الطابق الثاني. أنا وبيير معاً. كان حمام السباحة عبارة عن حفرة مياه، لكننا تمكنا أن نرى لأول مرة، من الشرفة، منظر غروب الشمس، المياه ذهبية والمواطي سوداء مترعة بالنخيل.

كنا في جو أسري، لا أحد غيرنا في الفندق. تناولنا إفطار رمضان مع المعتاة وطاقم الاستقبال في دهلز الفندق حيث يشاهدون مباراة كرة قدم في التلفزيون. إنها مباراة لريال مدريد! اللاعب فيجوا ممتازون! كانوا يصيحون بحماس. هم الأفضل! كان جهلي بالكرة كبيراً، لكن يحيى كان يتابع المباريات بنفس الحماس. كان النوري الأفريقي، وكانت المباريات كثيرة.

## رحلة إلى السودان

أتى مدير قطاع الآثار لتحييتنا، هو شاب متخصص في الآثار، أكبر حجماً من الآخر، وظريف جداً، كان يزورنا في الصباح بالتصاريح والسيارة لتنتقل إلى أطلال مروي، وفي الوقت نفسه كنا نلقي بأنفسنا بين ذراعي الليلة، أراد بير أن يذهب بنا إلى بيناريس Benares، على شاطئ النيل، حيث كان الرجال والنساء والأطفال يستحمون هناك. عبرنا خط السكك الحديدية في الظلمة الدامسة، ونزلنا فوق كثبان من اللطين والحجارة حتى النهر. كانت المياه تحدث نوعاً من البربطة الغريبة. هل تعرفون ما يقولون عن الليالي إلى جوار النيل ولماذا لا يقترب الفلاحون أبداً من المكان في مثل هذه الساعة؟ لا يخطرُن على ذهنك إفشاء السرّ أجابني بير، وضحكنا لكن الجلبة كانت تعلو، لم نكن نميز لون المياه بسبب للغمّة، كانت أضواء Aj Juwer تبدو من بعيد على الشاطئ الآخر. هل هناك تمانيح بالفعل؟ جلبة أخرى، ولا لحظة بعد تلك قفزنا خارجين.

توجهنا إلى وسط شندي. كان عبارة عن سوق كبير، تحت البوائك والحواليات مفتوحة والعديد من المفاهي على الأرصفة الترابية، هناك مواد لتناول الطعام، ومطابخ في العراء بها دخان كثيف، وفلاحون يجلسون في مجموعات يتسامرون في الهواء العليل، رأينا رجلاً جالماً ينوّه ببعض الإشارات وهو على باب أحد المطاعم، كانت للموسيقى تصدح إلى جواره وكان يتمايل على أنغامها. يضحك. هذا الرجل مزاجه عازٍ. قال ذلك يحيى، وأخذ يداعبه، وذلك حتى يدعونا إلى منزله. كان لاعب كرة قدم، لكنه الآن لا يفعل شيئاً، يتسلى.

في الركن الآخر هناك محل خياطة مفتوح. كانت جدران الطوب العالية مغطاة بالجاككات والصدريات والجلابيب ذات اللون الأبيض. هناك فائرين من خشب قديم وماكينة خياطة صغيرة كان الخياط يجلس أمامها، وأمامه مجموعة من بكر الخيط. جلسنا جلسة طيبة، قدموا لنا الشاي وأخذنا نتسامر.

## رحلة إلى السودان

أخذنا نتفرج على الجلابيب السودانية الجميلة، فضفاضة وأجمل من الجلابيب المصرية، وكذلك الصديريات التي تحمل طبيعة البلاد. اشتريت جلابية معلقة مصحوبة بصدرية بيضاء، أوصاني بها كثيراً أصحاب المحل. أخرجت القانسوة من جيبي، وخرجت على هذا الحال إلى الشارع، وقد تحولت إلى سوداني مرتجل.

اقتربنا من مجموعة من الشوارع المغطاة المليئة بمحلات الملابس، مئات المحلات تفتح أبوابها على مصارعها، والفارين على شكل حرف U والحوائط مغطاة بكل أنواع الملابس الممكنة، كانت المحلات تزحف على الرصيف، ولا نترك إلى فرجة صغيرة ترابية. هناك الأسر ومجموعات من النسوة ورجال وشباب يتمشون يقتربون من بعضهم البعض كأنهم فراشات ترفص حول مصدر الضوء وهي المحلات. وتحت هذه الأقواس من الأقمشة كان الناس يدخلون وينظرون ما يعرض عليهم ويجادلون، لم يكونوا من ذوي الميل إلى الفصايل مثل المصريين حيث يكاد يجري في دمائهم، والأقمشة الملونة وثلاثة أمتار ونصف، مقاس الساري، كلها أقمشة من الألياف الصناعية، كانت المنسوجات القطنية المصرية غائبة عن المشهد. كنا ندخل كافة المحلات، كان يحيى يبحث عن شيء لزوجته - شيئاً للآخرى - ولابنتيه. كان يحيى ويبر يتوقفان، ويخفقان، ثم يتأملون بغطاية المناديل والشيلان المعلقة، ومنسوجات الطرح ذات اللون الأسود والمطرزة بالزهور، وملابس للطفلة في الأعياد. كان الجو حاراً وخائفاً وكان هناك الكثير من الناس. وبينما أنتظر كانت تقترب مني مجموعات من الياغين من ذوي الخمسة عشر عاماً ويصافحونني وتبدو عليهم علامات السعادة. مبروك، حسن، كأنك سوداني أصيل! كنت أضحك معهم. ثم يذهبون ويأتي آخرون من المارة، ويبقون يتأملون المشهد ويضحكون ويقتربون مني للتربيت على كتفي الأيسر. حسن، تبدو سودانياً رائعاً! حدث هذا عدة

## رحلة إلى السودان

مرات، فكرت، يا لها من سعادة. حسن أنهم لم يرفضوني، ولم يسألوني من أي بلد أنا؛ أنا غريب لكنهم يشعرون أنني قريب منهم كانت ملابسي هي نقطة الالتقاء.

خرجنا من المكان لنبحث عن أشرطة للموسيقى السودانية، وانتهى بنا المطاف في محل صغير، حوائطه مكسوة بالكاسيت، حيث الوجوه مبتسمة على كل الأشرطة، ولعدة ساعات أخذوا يعرضون علينا أغاني مختلفة، وفي نهاية المطاف رقصنا جميعاً وقد غمرتنا الأنغام والكورس وتقسيم العود والأوركسترا. أما في الشارع فهناك مجموعات من الشباب تنظر إلينا وتضحك. كنا قد تأخرنا، وانتهى بنا الأمر للجلوس على المائدة وسط الشارع لتناول وجبة خفيفة. كنت أكل القليل خلال إقامتي في شندي، بينما الآخرون يأكلون لحم الضأن بنهم بالغ.

ثم جلسنا على المقهى الذي يؤمه الكثيرون، تحت الشجر حيث كان هناك ما يقرب من ثلاثين من الشباب الفلاحين يشاهدون التلفزيون. كانوا يشاهدون في صمت مسلسلاً مصرياً غاية في الشعبية في العالم العربي. كانت هناك مقاعد مكسرة وموائد صغيرة، وبعض الدراجات المركونة. وفي أحد الجوانب، حول مائدة، كان البعض يلعب الكوتشيّة. شربنا شايًا وشيشة، وعندما انتهت الحلقة، نهض الجميع وأصبحنا وحدنا. عدنا متناقلين عبر الشوارع المظلمة؛ كان السوق قد أغلق أبوابه، لم يكن هناك إلا بعض التززية، وبعض محلات الفخار والأواني الصاج المترامية على الرصيف.

في الصباح، وفي وسط النهر، كان هؤلاء الصيادين يواصلون سيرهم فوق المياه وكأنهم كذلك كانوا يصفون على المشهد للهادئ جواً كأنه خاص بالكتب المقدسة (روحانياً) ومريانياً، بينما القوارب تمخر المياه إلى جوارهم. ها نحن نرى تفسيراً بسيطاً لتلك الأساطير والمعجزات التي كانوا يقصونها علينا

صغاراً. خرجنا، توجهنا إلى حديقة بها أشجار وزهور، حيث أعدوا لنا إفطاراً شهياً. ذهبنا هذه اللّاتانيات من الفتيات والفتيان التي كنّا نتناجى وينو كل منها للآخر. لم يكن هناك إلا بعض الأطفال الذين يجرون. لم يكن بير حاضراً؛ في حقيقة الأمر كنّا قد فقدت في الخرطوم رفيق رحلتي؛ غرقت هناك تلك الحاجة والمتعة في المشاركة والاتصال، كنّا أشعر أنه يزداد بعداً مع مرور الوقت، وحل الصمت محل الابتسامات.

ركبنا سيارة النقل ورحلنا، عبرنا البلدة التي كانت تعبد وسط الصحراء، وفي الخارج هناك مجموعة من المنازل الواسعة لها جدران من الطوب وأبواب صغيرة تذكرنا من جديد بالقرى النوبية. طفنا بالمكان وعبرنا ذلك الشريط الضيق القضي للطريق واتجهنا صوب الصحراء. وليس بعيداً وقفنا إلى جوار مدخل الجبانة القديمة. كانت للكتبان الرملية المرتفعة تحول دون رؤيتها اللهم إلا بعض الأطلال البارزة.

كان هناك عدد كبير من الأطفال من الذكور والإناث يبيعون ما استطاعوا أن ينتزعوه من الأجداد، فهناك الخرز والسيوف الرائعة منقوشة عليها الأسماء، وبيض النعام المفرغ، والصناديق الحمراء القديمة على شكل خصر ولها قُبُو؛ وكانت هذه هي التي تبقى عليها الزوجات الشابات مغلقة وبها الكثير من المرّ والبخور، حتى تأتي اللحظة التي ترغبين في الاتصال الجنسي بأزواجهن الكسائي، فيقمن بفتح الصناديق تحت الأسرة فكانت الروائح تغمر المكان وترمل بالرسالة غير المباشرة.

كان بير قد ذهب، أما أنا وحيي فقد ظللنا نتملى بعض الوقت ثم ركبنا بعض الجمال يقودهم إثنان من الفتية البدو سيراً على الأقدام. تعبد الصحراء أمام نواظرنا. كانت الشمس في أوجها، وعلى وقع سير الجمال صعدنا الكتبان رويداً رويداً، دخلنا في واد كبير من الرمال، عبرناه ببطء، كان الصمت هو



## رحلة إلى السودان

البطل المطلق، نبدو وكأنه نغمنا أصدقاء أزمنا خوالي، تحوط بنا أهرامات من كل جانب، إنها مروى! ها هي كانت هناك، كانت الأهرامات على خط واحد وفي مجموعات، تبدو بقممها وكأنها تتجه صوب السماء. هناك ضوء أبيض يتعكس بقوة، بينما تهب الرياح تحمل معها موجات من الرمال بالقرب من الأرض.

تبدو أهرامات مروى كأنها جيش صامت من الكتل الحجرية. تبدو وكأنها قطع شطرنج، أي أقيال قامت يد عملاقة بوضعها على الرمال. بلغ عددها مائة وسبعة ولازال هناك أكثر من أربعين، هاهم ملوك وملكات تلك المملكة الأسطورية يرمقوننا من توابيتهم من الحجر الأسود. اجتمعوا جميعاً، إنه تاريخ شعب من الشعوب القديمة سيطر على هذا المشهد طوال سبعمائة وخمسين عاماً، كنا نتجه صوب المركز الخاص ببلاط رائع بذكرنا بتلك الإمبراطورية الأسطورية.

يبنو المشهد وكأنه نيكورات ضخمة على خشبة مسرح، وربما كان أكثر نقاء من مدينة البتراء، كانت الأهرامات مشيدة على قمم كثبان مرتفعة وبذلك تكون هناك فجوة كبيرة بينها وبين الأهرامات الباقية. وعندما يقترب المرء منها تبدو وكأنها ناطحات سحاب ذات قمم مدببة؛ كانت الأهرامات على مختلف الأحجام وبعضها صغير الحجم كأنه أحد المنمنمات؛ الأقدم منها كان يتسم بالضخامة وقواعدها ضخمة وجيدة الإنشاء. كانت طبقة الحجارة الجميلة التي تغلفها بما تحمل من دقة الإنجاز والرشاقة دليلاً على عبقرية الشعب الذي أقامها، وعلى حسنه الجمالي وحسنه البالغة.

كان بير جالساً وراء الهرم الأخير وقد أدار ظهره للوادي، وأخذ يرسم، أما يحيى فكان يدخل كافة المقابر، بينما كنت أمشي على غير هدى، وظللت كذلك لساعات، لم أكل من المير بينها، كانت ترتفع في كل مكان فوق الكثبان،

متجاورة تكاد تتلامس. كنت كأني دمية صغيرة تائهة في هذا المشهد الضخم؛ كان اللاواقع مخيفاً، ومحاطاً بتلك الكتل الهندسية المحضة. أنتقل بينها، أمشي الهويناً وأدور حولها، لا تكل نواظري، كنت أود أن أحيط بكل هذا المشهد المنعم بالأحلام وأمسسه وأدرك أنه موجود، كنت أسير وسط هذا المشهد وكان الهواء الذي يلفح وجهي كان مضمخاً بالدهانات السحرية، وكان المرء هنا يخترق حاجز الزمن ويتجسد في إنسان آخر يعيش في لحظة خلت.

كنت أستلقي على الكتل الحجرية، وأجلس، أصعد ببطء السلالم الصغيرة لتلك الحوائط الرأسية، وأكتشف "عين حورس" المنقوشة في منتصف البناء، وأتوقف، أحاول أن أرى المسافة الفاصلة عن القاعدة، وأعود. ووسط الصمت الذي يلف هذا الوادي الضخم لازالت ترن حتى الآن - هكذا يبدو - أصدااء خطوات الاحتفالات الجنائزية، والأناشيد الغامضة، وعويل النائحات وحاملي القرابين. لم يبق إلا للصمت وأهرامات خرساء؛ أخذت أشكالها تتكاثر وتتنامى بطريقة تلقائية فوق الكثبان، تلقي على الجو بمسحة من الحزن.

كانت الأطلال تسهم في إنكاء هذا الشعور، فقممها مهمة وبعضها قد خرجت أحشاؤها، فبعد سنوات قليلة من اكتشاف العلماء لها شهدت مروي زيارة دراسية، إنه المغامر البولوني فيرليني Ferlini الذي قام بأكبر عملية نهب بشعة فلم يكن يرى في الأهرامات إلا محاجر. دمر أجزاء كبيرة من معظمها. كان هناك هرم من أكبر الأهرامات في المكان وهو الخاص بالملكة Amanishakheto الذي يرجع إلى القرن الأول ق.م، فقرر فك الهرم حجراً حجراً، من أعلى إلى أسفل، واستغرق ذلك شهراً كاملاً، حتى عثر على الكنز الذي كان يحلم به. تمكن مما أراد إنها مشغولات رائعة من الذهب والمينا، وسرعان ما باعها في أوروبا؛ لم تبق أية قطعة منها في بلاده. أدى هذا الاعتداء إلى إغلاق المكان وسيطر على مصير الأهرامات لعقود من الزمان.

## رحلة إلى السودان

اقتربت من المكان الذي كان بير يرسم فيه، كان جالسا في الظل، والهواء يضرب وجهه. نهض، هل تريد أن ترى ما أرسم؟ - قال لي - طبعاً كانت هذه أول مرة يطلعني على عمله. شهدت اللمسات الجميلة بالألوان المائية، والشواطئ البنفسجية لبحيرة ناصر، والدور النوبية والوجوه والأشياء والجبل المقدس ولون الصحراء المائل للبنى والأهرامات. هذه الجبال قللت من التوتر بيننا. عاد التواصل بيننا من جديد، ألقيت بنفسي فوق إحدى الكثبان، وفي الخلف كان هناك الوادي الذي يبدو كأنه مشهد يليق بالغاريت والصحرة، رسم لي الصورة التي ربما نتسم بأنها تلخيص لرحلاتي، وأصبحت دليلاً وشهادة على أن الأحلام موجودة وتحقق، ولا يعدو الأمر إلا الإيمان بها وألا نتوقف حتى نجد لها.

تزهذا مع يحيى، وأخذنا نشاهد النقوش الخاصة بالمقابر وقد إصفرت بعوامل الزمن، أدينا إعجابنا بالنقش الخاص بكل من الملك ناهيرقا Nahiraq وأركماني Arqamani، جالسين على شكل أسود وناج مصري به حيتان على صدورهما. كانت مصر الحاضر الدائم؛ ما فعله هؤلاء الملوك الأفارقة هو أنهم نسخوا شيئاً من عظمة طيبة، وأنشأوا في هذه المملكة البعيدة نسخة من البلاط الفرعوني، حيث يقال إنهم من سلالته، لكنهم أسهموا ببعض الشعارات الرقيقة، إنها السعفة، علامة الملكية والخليل المشغولة والصدريات والحقان التي نترين بها الشخصيات المهمة خاصة الملوك.

اتجه بير صوب الجانب الآخر للوادي، أي نحو الجبانة الجنوبية، الأكثر قنماً، ففيها كان هرم أركاكاماني Arakakamani أول ملك دفن في مروي. ومن هذه الزاوية نرى من بعد باقي الأهرامات المروية. كان من الصعب أن يبعد المرء عن ذهنه ذلك الحلم الذي يلف كيانه. عدنا إلى ستم الجمال، وعبرنا الوادي من جديد، أخذ ذلك المشهد الذي لا مثيل له يتباعد رويداً على وقع أقدام

الجمال الوثيدة؛ فريما كان المشهد من فعل الجان الذي نشر كل هذه المباني فوق الرمال؛ لفنا الهواء مرة أخرى، وأحاط بنا من كل صوب، لبتعدنا عن الأهرامات السوداء التي كانت نكرياتنا أسيرتها وأسيرة بنيانها.

اتجهنا صوب مجموعة أخرى من الأهرامات، تهيمت بقوة، وعبرنا الطريق من جديد، وواصلنا لاسير في المدقات الرملية، حتى دخلنا في غلبة من أشجار السنط العتيقة مترعة بالأطلال. إنها مروي القديمة، لم يتبق منها إلا مجموعة من التلال من الفخار والتفانيات، وبقيت حوائط من الأحجار؛ لاشك أن مروي كانت مدينة كبيرة، لا تكاد تكون معروفة، فقليل من الباحثين تمكنوا من العثور عليها. كان دفاعها النيل الذي لا يمكن الإبحار فيه في هذه النقطة والصحراء الشاسعة. عاشت عصر ازدهار ابتداء من القرن السادس ق.م. حتى الربع بعد الميلاد في ذلك فركن في قطاع النيل الأوسط، حيث هنا حزام الأمطار الاستوائية؛ للكثير من الغابات ووفرة في الأخشاب. امتلأت قديمة يدور للعبادة والقصور والآثار، وأحاط سور ضخيم بالمقر الملكي، كانت المنسوجات القطنية والحدادة من العناصر التي جعلت منها أول مدينة صناعية في أفريقيا، إنها غموض. شائق لأنه انطفأ وحده وكأننا نشهد شمعة تذيب دون أن تحدث ضجيجاً يتحدث عنه التاريخ.

إنها مروي، المدينة المختبئة. لم يقل لنا أحد، ولا حتى لتحتمس لثالث، الذي كان يصطاد وحيد القرن على شواطئ البربر Berber عند الجندل الخامس، أين هو ذلك الإقليم المجهول. ولو كان فرعون مصر قد سار أياما قليلة نحو الجنوب، بعيداً عن مملكة إرم Jrem وميو Miu لكان قد بلغ جزيرة مروي، ولكانت مصر بهذا قد اكتشفت يوماً ما السر الأعظم لمروي، وصناعة المعادن والإنتاج الصناعي للحديد، ولو فعلت لكانت قد احتلت مكانة الصدارة دوماً وغيرت مسار التاريخ. لكن مروي اختبأت وراء صحراء بيوضة Bayuda، وقعدت مصر المنيق إلى الأبد.

### رحلة إلى السودان

خمن ج. بروس Bruce مكان مروي القديمة عام 1772م، لكن بورخارد لم يتمكن من الأمر فقد وصل إلى هناك (1814م) متعباً بعد أن اكتشف أبو سميل، ولم يتعرف عليها ومضى لأمباليا. من اكتشفها كان كيلود Cailliaud عام 1821م وشرح لنا كيف هي في "رحلة إلى مروي". لم يتبق شيء. فمن معبد آمون لم يبق إلا الأساسات وبعض تماثيل الكباش في الطريق إلى المدخل، وهو تماثيل غير جيد الإخراج؛ إضافة إلى صالة غريبة هي "صالة الأعمدة" وفي العمق هناك مكعب من الجرانيت الأسود. كان هناك أيضاً Nymphéo (مكان لعبادة آلهة الماء) رائع، حيث كان يتم القيام بالتطهر المقدس، وميدانيات ذات ألوان رائعة وتماثيل من الجص لنساء ورجال عراة، كلها تنسم بواقعية مثيرة لتفاني.

أما في الخارج فقد أقيم "معبد الشمس" حيث نجد كافة حوائطه ولرصانيه مغطاة بالزليج الأزرق، وهو أحد الألوان المفضلة عند ملوك مروي. وطبقاً لرواية هيردوت، كان يوجد في مروي "مائدة الشمس" التي يمكن أن تكون ذلك المعبد. وكان المعبد مكرساً للسلطة الملكية، ونرى ضمن نقوش المعبد مناظر للأسرى، مثلما هو الحال في سوليب Soleb، كما نجد مناظر للرقصات وقطعان الماشية وكذا مركبات تجرها الخيول كان الملوك يقدرونها كبير.

كانت هناك أيضاً أطلال دور عبادة مكرسة للإله أيدميك Apedemek الأسد المقدس لمروي وهو الإله الأقنم والأقوى، وكذا معابد لإيزيس وأبيس، كل ذلك في خلطة فريدة من الآلهة الأفريقيين والمصريين. ويقال أن السوداء إيزيس وشقيقها وزوجها أوزوريس - أسود البشرة أيضاً - ترجع أصولهما إلى جنوب مصر، وبالتحديد أثيوبيا. كان الحارس يحتفظ داخل كابينته الضيقة بتاج عاصود ضخم منحوت، وهو التاج الوحيد الذي بقي. انظروا كل شيء تحت الأرض، وتعرض للتدمير، لم يتبق شيء من مروي ومعابدها ذات الطراز الفرعوني

والهلمستي، وكلها مكسوة برفائق من الذهب، ذات أبهة وجواهر تخطف الأبصار وملابس ملونة من الحرير، والاحتفالات بينما يمتطون صهوة الأفيال على وقع الطبول ونساء أفريقيات يرقصن على أنغام قديمة وأبدية.

لم يتبق شيء من تلك البلاط، الذي توارى في عمق النوبة البعيدة، ولا من تلك المدينة، التي تربطها الطرق بالنيل الأزرق مباشرة وبحيرة تانا Tana وباب المنصب على البحر الأحمر، وفي أسواقها تجتمع كافة العرقيات التي جاءت من قلب أفريقيا السوداء ومن إثيوبيا والهند والجزيرة العربية أو الأنباط. هي المكان الذي تحول فيه كُتّاب قراينة مثل سيمونديس للشباب وداليون، وآلاف من فناني الحرف اليدوية وجيش جرار. لم نعتز حتى على أي من أفرائها والدخان الذي يختلط بالهواء والعييد الذين يقومون بالأشغال الشاقة بلا توقف وقد تصيب عرقهم وعلت حرارتهم، كانت مروي أكواماً من الحجارة، لكن تلك الحرارة الشديدة كانت تحول دون الاقتراب منها.

قمنا أنا وبير بجولة قبل إفطار رمضان في حدائق النخيل المحيطة بالنهر، كان النخل عالياً تتدلى "سباطات" البلح منه، وكان موزعاً على مسافات تتيح الفرصة للفنانات وبعض الزراعات، كان النخل يمضي مهيباً في مجراه بينما تختبئ الشمس وهي تصدر ومضاتها البرتقالية، سرعان ما غابت الشمس، وعند المساء ظهر صقر ظل في لاهواء بلا حراك وعلى ارتفاع قليل. ها هو حورس من جديد يقترب من الأرض، كان يبدو أنه في مهمة البحث عن جنوده، ليذهب بهم إلى ملحمة حربية. فهل خرج من هنا، من منطقة النيل الأوسط، أتباع حورس الذين غزوا مصر؟ وهل كان حورس صقراً نوبياً قادم من إثيوبيا؟

أتى المدير لتحيتنا، تبادلنا أطراف الحديث، قلت له: إنتي هنا أكتشف زمننا لم يقترب منه أحد، أما أنتم معشر أهل المكان فتتسبون إلى جنور تاريخكم، يبدو أنكم خرجتم من التاريخ مثلما يحدث للشعوب القديمة اليونانيين

## رحلة إلى السودان

والمصريين. يمكن أن تكون ملك مروي، ولكن إذا ما كنت من عطيرة نعم، تشبه ملامحك ملامح سكان بوتانا Butana القدامى. شكراً. وأنت؛ بعلامتك العربية يمكن أن تكون من أرضنا، يا له من توافق إنها المرة الأولى التي أسمع فيها هذا الكلام. إن شاء الله! يمكن أن يكون..!

خلدنا إلى تناول قسط من الراحة في غرفة يحيى بعد العشاء، كان منهمكاً في مشاهدة مباريات كرة اللقمة أتعرف؟ - قلت له - أفهم جيداً ما يمكن أن يحدثه الهوى والعشق بالمرأة ومع هذا لا أفهم أبداً أن تعشق امرأة أوربية واحداً من أبناء البلد مثلك أمام أسرته وفي منزله بينما الزوجة مجبرة على الصمت والقيام بإعداد الشاي والطعام لك. لا يمكن فعل هذا في أوربا، يمكن أن يتم في فندق ملزور أو في القارب، لكن لا يمكن أن يتم بهذه الطريقة الفاضحة. أنا لا أفهم ذلك! حقاً، كانت زوجتك نائزاً، تبكي طول الوقت، إنه نوع من الإذلال لها أمام أهلها، فلم تدخل هذه المرأة معك إلى المنزل وقد تزوجتك وتصبح زوجتك الثانية. لم تحافظ حتى على الشكليات، وضربت بكل شيء عرض الحائط، إنها الحياة - أجابني يحيى - وهو يشاهد التلفزيون بسعادة. لم أستطع أن أفعل شيئاً، كانت حبي الكبير نقد فاز الفريق الذي يشجعه، وأضفى الفوز المتعة على روحه، لا شك في هذا، إن أخانا الصغير هو واحد من نسيج المكان.

وصلنا في تلك الليلة متأخرين إلى السوق، ذهبنا لشراء المزيد من أشرطة الكاسيت، وجلسنا خارج المكان؛ كانت هناك فتاة تباع الشاي لها "تصبتها" على الأرض إلى جوار المحل، فرشت بعض السجاجيد، كانت جميلة ترتدي سارياً مطرزاً وأخضر اللون، تجلس على كرسي صغير غير مرتفع. تشعل موقداً فوقه براد الشاي، تقوم بتنظيف الأكواب وتقوم بإعداد الخلطة. طلبنا منها شايًا وجلسنا على الأرض. وأنشأ ذلك حلّ علينا رجل بوليس شاب طلب

منها أن تغلق المكان على القور لأنها تجاوزت الزمن المسموح به بعدة دقائق. ثم عاود الكرة مرة أخرى، ويدون أن ينطق بكلمة واحدة انترج منها عدة الشاي البسيطة بفظاظلة وهي الترابيزة وبراد الشاي والموقد. ولن نتمكن من استعادة حاجياتها إلا بدفع غرامة في اليوم التالي. جمعت المرأة صامئة ما بقي لها وتبادلت بعض العبارات مع جيرانها. كانت تجسد الرقة، لم ترفع صوتها أبداً، ولم تغير من رشاقة حركاتها.

في الصباح استيقظ بير عكر المزاج، وكأن شيئاً ألم به ليلاً، ومع هذا فلم تداهية الكوابيس. صباح الخير، هل دخلت الحمام؟ منذ فترة! باغتني واختفى؛ وجدته يدخل في الحديقة إلى جوار مائدة الإفطار. سوف أشكو لمدير هذا الفندق، ماذا تقول، أشكو؟ من ماذا؟ نعم، دخلت المطبخ. إنه غير نظيف بالمرة، وهم هنا يعدون الأطعمة لنا. لكن هذا ليس أوريا، كما أن مستويات الجودة مختلفة! نحن وحدنا هؤلاء الفتية يحاولون تقديم ما يسعهم من خدمة جيدة. ربما كان المطبخ غير منظم، فقد وجدته بالأمس نظيفاً؛ وإذا ما شكوت سوف يفقدون وظائفهم، تصور ما الذي يرون عليه الخواجات بعد ذلك! أشعل بير سيجارة أخرى وغرق في الصمت؛ أخذت التهديدات تنهوى وتذوب تحت وهج الشمس.

اتجهنا صوب الطريق العام، ظننت أننا سنواصل في هذا الطريق حتى مفترق الطريق إلى بلدة Naqa التي شهدتها قبل ذلك بيومين. لكن لا، فقد اتجهت السيارة نصف النقل صوب الحقول وعيرتها، وسرعان ما وجدنا أنفسنا في الصحراء وأخذنا نفقر فوق كتبان رملية وندخل وسط سحبيات من التراب، مررنا بوديان مليئة بالمنط. وفي العمق نرى قمم جبال كأنها مرسومة، وكلما ازددنا بعداً عن النيل قلت أشجار المنط وزادت الأفاق الرملية. ووسط هذا القفر المهيمن وتحت شمس نغمي بنورها كان هناك رجل مسن يسير إلى جوار



## رحلة إلى السودان

الطريق أشار إلينا توقفنا. حملناه، جلس في الخلف. كان وجهه أسود البشرة، ضربته الشمس، وغزته التجاعيد؛ كان يضع على رأسه شال عمامة ضخم، ملابس بالية تفضح عن ميقان ناحلة، وعصا. كان يسير حافياً، علا الشيب لحيته، واسع العينين المعبرتين، نظرة عميقة وهادئة وابتمامة فيها غموض. تحدث يمرح مع يحيى، فقد كان - ذلك الرجل - يذكره بوالده. تركناه بعد ذلك في الصحراء حسيما قال على قارعة الطريق. لا بد أنه خرج علينا من مكان بعيد وواصل طريقه في الصحراء صوب مقصده.

وصلنا إلى مكان هادئ وجميل، كان ذلك هو نقا Naqa لقديمة، في وادي أواتب Auateb. هناك غلبة من شجر السنط تصعد حتى هضبة ذات انحدار شديد تسيطر على المشهد بالكامل، هناك مسطح ضخم يتباعد ببطء رقيق، متموجاً ومليناً بالنباتات والشجيرات، تبرز فيه جبال منعزلة عن بعضها وأشجار سنط وعلى سفوح التل وصوب السهل، هناك أربعة معابد كبيرة متتابعة كأنها شلال من المباني، لكن كل مختلف عن الآخر. اثنان منهما عبارة عن أطلال وأخران شبه كاملين. هذا كل ما تبقى من تلك المدينة محطة القوافل القريبة من النيل، ولا بد أنها كانت تعج بأناس من مختلف أنحاء القارة والجزيرة العربية وآسيا وتمارس فيها شتى أنواع الطقوس الدينية.

هناك عنوية خاصة تصفيها المعابد على المشهد وكأن المكان يلفه السلام والشعرية، فما خلقوه في هذه البلدة - نقا - لم يكن مجرد مساجين تم أسرهم أو أية بوادر أخرى علامة على السلطة الملكية، بل كان التعبير عن التوجهات الدينية والمعتقدات؛ وهذا ما جعل الهواء يحمل طابع السكينة اللامادية. كانت مواقع المعابد متميزة فكانها كانت ترسم الطريق الغامض الذي يربط بين معبد وآخر، وكأنها تتدفق عبر عرق واحد من الطاقة الروحية، إنها المياه التي تجري تحت الأرض وتضفي قوة على النقوش الغائرة في المعابد وعلى التماثيل.

دلفنا وسط أطلال معبد آمون وأخذنا نقفز بين كتل الحجارة وتماثيل الكباش التي تزين المدخل؛ من قاموا بتشييده هم الناتاكمانى Natakamani الأعماء خلال القرن الأول ق.م. جلست في الظل وأخرجت كتابي وأخذت أقرأ عن نفا، لكن بير لم ينتظر، فقد ابتعد عني ليرسم، واصلت القراءة على يحيى، التي تتضمن التاريخ الزاهر لهذه المدينة المقدسة، المليئة بنور العبادة والتي شهدت الكثير من المواقب الدينية. كانت المدينة مفتوحة على كل الثقافات مثل مروي، وعندما رقدت وولراها النسيان ولضحت بعيدة عن المناطق المأهولة بالسكان، تمكنت أطلالها من البقاء لنقص علينا من قريب المعتدات المروية، وجزأت غير مسبقة تتعلق بهذا العالم الأفريقي المجهول.

لأخذنا نسير الهوينى ونحن ننزل المنحدر، لحق بنا بير، وعلى بعد يزيد عن كيلو متر، كان هناك معبد صغير منعزل، مشيد على الطريقة الفرعونية، لم يكد بمسسه أحد، وكانوا يطلقون عليه "معبد الأسد" أي معبد أبيد مك . نقوشه الزخرفية جعلته فريداً من نوعه في وادي النيل، فهي تضم العديد من الآلهة الجديدة. وكانت حالة الحفظ التي عليها شاهداً على درجة القدسية التي كان عليها. هذه الهالة التي عليها حالت دون تعرضه للتدمير. كان حائطاً الواجهة Pylon مغطيين بنقوش غائرة رائعة عبارة عن مناظر للحكام الذين شيّدوا معبد آمون، نشهدهم وهم يقضون على الأعداء، وفوق الملك نجد حورس الحامي، أما فوق رأس الملكة فنجد أنثى النسر نخبث إلهة مصر العليا، بينما يقوم الإله الأسد أبيد مالك بمساعدتهما ضد الأعداء. كان الملك يتملح بالقادوم والسيوف أما الملكة فكانت تحمل سيفين؛ كان ذلك هو المشهد التقليدي للملكات المحاربات في وادي النيل، وهن حلقة في سلسلة طويلة حيث نجد في الأمازون الأفريقي، النساء السوداوات وهن يقطن القبائل والجيوش منذ فجر الزمان، ولهذا يبدو لنا أن كافة المسالك النوبية في قوش ونباتة ومروي كانت وراءهن ملكات (الأمومة

## رحلة إلى السودان

(Matriarcado)، كن يورثن الأرض والملك، ووصل الأمر بهن إلى إقامة أهرامات - مثلما شهدنا في مروي - أكبر من أهرامات الملوك. هكذا كانت سلطة تلك الملكات.

كان جسمها ذي خطوط انسيابية، الآلية ممثلة وكذلك الأفخاذ، وهذا ما يجعلهن قريبات من سلالة بوسكي مانام Bosquemanas (رجال الغابة)، من سلالة سان San التي إليها يرجع النوبيون القدامى. كانت الملكة ترتدي ملابس غير عادية وتزين بالكثير من الأحجار الثمينة مثل باقي أفراد أي أسرة ملكية، حيث نذكرنا ما كانت عليه بالمبرا Palmira من رخاء. هناك قلادة بها حيتان نذكرنا بأنها ترجع إلى أصول فرعونية، وكذلك الأمر بالنسبة لنمبيها الملكي. كانت النساء في كثير من الأحوال والداث الملوك ملكات لا يناقشن أحد في البلاط المروي. فها هن نساء كانداك Kandake يقررن أمر الحرب والسلام في تلك الأرض.

داخل "معبد الأسد" المكرس لدخوله للملوك والكهنة نجد إليها لم نره من قبل وسط الحائط الأيسر وهو منحوت من الواجهة، على شاكلة للمنحوتات الإغريقية، وله حية وأقراط وتاج ويمسك في يده حبالاً كثيرة مربوطة بعدد من الأمري، هو في صورة نصفية على قاعدة عامود وملامح هلمستية؛ وقد نسب خطأ إلى الإله سرابيس الإسكندري. كانت هذه هي الصورة المنقوشة الوحيدة لإله غير معروف (سري) ذي طابع حربي، وربما كان من الأجداد الأسطوريين القدامى. ربما كان مرتبطاً بعالم النبوءة وطقوس تتويج الملوك المرويين، وهي طقوس كانت تتكرر في مختلف قرى أو حصون بوتانا Butana.

كانت الطقوس الخاصة بالجمهور من العوام تجري خارج المعبد. كان يزين واجهة المعبد مشيدان، كل في طرف، هما عبارة عن حيتين ضخمتين لكل رأس أسد، تخرجان من زهرتي اللوتس. لا يوجد مثيل لهذا المشهد في الفن

المصري، لكن ذلك له ما يماثله في الفن المروى. ربما كانا عبارة عن صورة قديمة للإله أنون أو ابنته نفثوت، وهما بمثابة حبات بزغن من النون Nun، أي الهوة المائية الحقيقية، ثم تجسدتا في شكل الأمد، الإله أبيد مالك، كما تذكرانا بالحيات المقدسات في الهند - ناجاس Nagas-. أما بالنسبة لزهور اللوتس فهي رموز أساسية في الأساطير الهندية وأصبحت معروفة في مصر من لدن الإله نفرثوم وأخذت تبرز على شكل زهرة لوتس ملونة من القوضى الأولية.

كانت الحوائط الجانبية لدار العبادة عبارة عن حاملة أيقونا حقيقية في الهواء الطلق، إذ تغطيها نقوش رائعة وأشكال ذات أبعاد كبيرة يمكن مشاهدتها من مسافة بعيدة؛ وعلى الطريقة المصرية، نجدها تضم آلهة وملوكاً، كلهم على الدرجة نفسها من الأبعاد سولسية. تؤكد النقوش أن الملوك والأمراء تتدرج عليهم صفات الألوهية، ومن بين الآلهة نجد أبيد مالك، يليه حورس وآمون نباتة وبتاح وخنوم وحتحور. ويلاحظ أن الملوك يحملون الملامح الأفريقية وكأن السلالة الرفيعة - الثابتو - قد حكمت هذا الإقليم. هناك الوجوه والأيدي منورة وأجساد ضخمة وانسيابية تغطيها الحلي والزينة. يطلقون عليهم 'النوبة' السود، وربما ترجع جذورهم إلى وسط أفريقيا أو البحيرات الكبرى.

ضم الحائط الخلفي مشهداً فريداً من النقوش التي نتحدث عن الأساطير المروية؛ في الوسط نجد الإله أبيد مالك واقفاً، وله رأس ذات ثلاثة أوجه على شكل أسد وأربعة أذرع وأربعة أكف، ويقوم الملك والملكة بالتعبد إليه من كل مكان ويلبسان بخفة أزرعه. لم يوجد في أي جزء من وادي النيل مثل هذا التوفيق بين المتناقضات؛ يذكرنا المشهد بالتريمورتي Trimurti عند الهندوس؛ تجتمع الثقافة المصرية والنوبية والهنوسية في هذا الإله المروى. وحتى يزداد الأمر غموضاً كانت هناك فتحة صغيرة تخترق الحائط بكامله عند مستوى قم الإله الأسد. وكان هذه الشخصية لها سمات النبوءة، وفي الليالي المقمرة يخرج

### رحلة إلى السودان

من تلك الفتحة ما يشبه الشخير أمام هؤلاء الكهنة المبتدئين الذين سجدوا على الرمال.

إذا ما تأملنا ما قاله شيني Shinnie في كتابه "مروى"، و أ.ج أركل A.J. Arkell في كتابه "تاريخ السودان: منذ زمن حتى عام 1821" (1955) لوجدنا أنهما أفصحا عن الأمر بوضوح عند الحديث عن مروى. كل هذا علامة على تأثير قوى من الهند، ومع هذا لم يعد أي منهما أو أي مؤرخ آخر لتناول هذه النظرية من جديد. أي أن "أبيد مأك التريمورتي" أصبح في منطقة الأعراف دون أن يفصح لنا عن وجوده الملمز. إن وجود هذا الشكل الإلهي الجامع بين الأضنات والوحيد من نوعه في كل أشكال الآلهة النيلية يمكن أن يدل لنا وحده على هذا التأثير الهندي القوي، إضافة على وجود قاسم مشترك في الطقوس الأفريقية والهندية في ذلك الركن من أفريقيا.

يبدو أن ملوك مروى وأهلها قد اتخذوا لأنفسهم بعض طقوس المهاجرين الهنود وبذلك عبروا عن تعايش مسلمي بين شعوب تبدو متباعدة فيما بينها، ولغني عن الغريب أن العديد من الأساطير ترتبطاً بهنئين الإقليميين المدبريين الذين يفصلهما عن بعضهما المحيط الهندي، وكان هناك إلحاح على وجود هجرات خلال عصر ما قبل التاريخ من إثيوبيا إلى الهند في الأزمنة السحيقة. لا بد من وجود أصول مشتركة بشكل أو بآخر، وهل يمكن لهذه الأساطير أن توضح لنا ذلك الخليط من الطقوس الفرعونية والأفريقية والهندوسية الذي نراه متجسداً في مروى وبالتحديد في معبد أبيد مأك كمثال قوي على هذا؟ لم أن الكهنة البونيين والكهنة لبراهمانيين Bahmanicos الذين كانوا متواجدين في الإسكندرية على عصر البطائمة، كانوا جزءاً من التوسع الهندي في أفريقيا بما في ذلك مروى أيضاً؟.

أمام هذا المعبد الغامض هناك مصلى أو معبد صغير أمامه، به أعمدة وعقود، وهو معبد رائع بخطوطه وأبعاده. إنه يذكرنا "بكثك تراجان" في فيله،

## رحلة إلى السودان

ولو أنه هذه المرة مصغراً وكأنه أحد المنمنمات، وهذا نليل على أن التأثيرات اليونانية الرومانية قد وصلت متأخرة إلى نقا وأن هذا المعبد المكرس للإله أبيد مالك لازالت له أهميته عند أهل مروى مع نهاية عصر إمبراطوريتهم، فقد أقاموا هذا المصلى الصغير والمعقد أمام المعبد.

ذهب يحيى لمشاهدة بعض الأبقار وسط السافانا والشجيرات وبعد أن فزّعها أشار إلى بيده إلى وجود هضبة قريبة، يمكن الصعود إليها من الأرض وهناك رأينا عدد كبيراً من البدو ترافقهم الإبل، وبينما يقوم الشباب بالعناية بالقطيع - ما يقرب من مائة من الإبل الشقراء والناحلة القوام - كان الكبار يحيطون ببئر عبارة عن فتحة على مستوى سطح الأرض فوق الهضبة، كانت فتحة ذات عمق يبلغ 86 متراً وربما كان ذلك هو المجرى المائي الذي يمر تحت معابد نقا Naqa مزوداً إياها بما تريد من إحياءات الطاقة اللازمة لإقامة الشعائر. كان البدو قد وضعوا هناك جذع شجرة ضخمة فوقه كتلتا خشب كأنه شادوف لاستخراج الماء أو ما يسمى بالساقية حيث يقوم حمار بجر الحبل الملفوف على بكرة ليصعد بالماء.

كانت هذه الناعورة البدائية ذات فعالية شديدة فعندما يذهب الحمار بعيداً بحيث لا نكاد نراه تظهر قرية المياه مبللة وتنصب منها المياه التي يشربها القطيع. كان الرجال نحاف الجسد وذوي وجوه ملامحها جادة ونظراتهم قاسية، ومن بينهم كانت هناك بعض المجموعات التي تذكرنا بـ "أركاديا الأفريقية" حيث يتسامرون في تودة وهم جالسون على الرمال، كانت ظروفهم صعبة فهم يتابعون الجمال في الصحراء، وكانوا يتصارعون مع البراعم الصغيرة على لبن النياق حيث يخفون ضروعها يقطع من الجلد والمشابك، ويحفظون اللبن لصناعة الجبن.

كان بير يشير إلينا من أسفل وهو إلى جوار السيارة، غير أنني ويحيى

## رحلة إلى السهدين

كنا سعداء ونحن نرى كيف يتم تشغيل الماشية. لم كل هذه العجلة؟ ولماذا لم يصعد؟ كنا شهداء على مهمة ذات دلالة تقوم بها هذه القبيلة، فقد ورد هذا البكر العديد من الأجيال المتعاقبة، ونهالك جذع الشجرة مع مرور الأزمان واستخراج كميات المياه، كنا نشهد أحد طقوس استخراج المياه، في لحظة غير محددة في الزمان، إنها طقوس ترتبط بحيوات هؤلاء ومتماثلة في كل العصور وعلى مدى آلاف السنين.

نزلنا في نهاية الأمر، ونحن نتأمل المعابد الأربعة في نقا المتراسة في خط واحد، والصحراء المترامية على الأطراف. فهل صدق المغامر أ. جتي A. Gatti في مؤلفه "توم - توم" Tom-Tom حين أكد وجود جبانة ذهبوا به إليها سيرا على الأقدام لعدة ساعات ابتداء من معبد أبيد ماك؟ وهل هي المكان الذي لازال مهجوراً حتى بداية القرن العشرين وبه مقبرة ملكة كانداك لم تمس، محاطة بالنقوش والحيات والجواهر لا يلج إليها إلا بعض المبتدئين (المديرين)؟

كل شيء تمام! قال السائق؛ فكان ردي: ولا كلمة! لازالت هناك موساواوات - الصفرا - Musawawat ! يقال إنها المكان الأكثر جاذبية وغموضاً في كافة أنحاء السودان قلت ذلك متعجباً وأنا أرمق ببر وبحيى. عدنا بالسيارة عبر وادي أواتب Auateb؛ كانت الصحراء جرداء وقم الكتل الصخرية لا تنتهي، وفي الأفق تتراعى عبر الجبال المداخل نوبيان مجاورة. كان حرارة الشمس قاسية وكان المشهد لا يبعث على أمل؛ لم أكن أثق مطلقاً فيما يقال، فكلما مرّ بعض الوقت كنت أسأل السائق عن اتجاهنا.

كنت أفكر في الرحالة الفرنسي العبقري ل. لينان دي بلفوند L. Linant de Bellefonds الذي قام خلال عام 1822م بالمرور بتلك الأصقاع الرملية ومكث معه اليد والإبل لمدة ثلاثة أيام في موساواوات الصفرا! وأخذ يرسم المشاهد المختلفة. وبعد ذلك بشهر تبعه آخر من فرنسا هو Cailliaud. وبعد

المكوث ربحاً طويلاً من الزمن في تلك العزلة النارية غيرنا الاتجاه صوب وادي البسات، وهو واد قاحل مثل سابقه أوتا Auateb لكنه أكثر وعورة وأقل حجماً. مررنا بفريق عمل يبدو أنه ينقب عن البترول، وهو المكان الوحيد الذي ينبض بالحياة، واصلنا الطريق.

وصلنا إلى واد من الرمال أراضيه متموجة وبه القليل من أشجار السنط، حيث نجد بعض الأطلال المتناثرة في مساحة كبيرة. نحن إذن في موساوانت الصفراء، عرجنا نحو اليمين، وبعيداً عن الأطلال الرئيسية اقترينا من معبد صغير فرعوني الأسلوب، أعيد بناؤه، يشبه معبد أبيد ماك في نقاء، كانت هناك تماثيل لتمصاح واثنين من الأسود تحرس المدخل. فتحتوا لنا الباب، كان الجزء الداخلي رائعاً فريد من نوعه في وادي النيل، ويمكن أن يطلق عليه 'معبد التين والعمالة' وهي نقوش تظهر بكثافة على الأعمدة الكثيرة في المعبد.

كانت النقوش الغائرة لهذه الحيوانات تجعلها تبدو وكأنها حيوانات خرافية grifon وكذا حيوانات أخرى مقنعة؛ تحمل النقوش من جديد أسلوباً يشبه الفرعوني والهندي. تبدو مصاحبة للإله ذي اللحية الذي وجدناه في نقا لكنه واقفاً هذه المرة وعارياً ومسلحاً بهراوة خشبية؛ ربما كان ذكرى لعملاق قديم، كانت قبائل النيل الأوسط تحتفظ به حتى ذلك الحين ومعهم ملوك مروى الذين كانوا يمسكون بهرلوة وقوس كأحد أسلحتهم. ويمكن أن يكون ذلك العملاق الجد النوبي للأسطوري هرقل اليوناني وهرقل المصري، وهو ذلك البطل الأسطوري - عصر ما قبل التاريخ الذي تحدث عنه ديو دور. هذا التزاوج بين العمالة والحيوانات الخرافية كان شبيهاً بذلك الذي يظهر على العصي السحرية خلال الدولة الوسطى في مصر، الأمر الذي يدل على أن ذلك المعبد مكرساً للمبتدئين.

ولتأكيد ذلك، نجد في الوسط، في عمق الزواق، عرشاً من الحجارة على شكل زهرة الطاولة، وربما كان مكرساً لعمليات التتويج الملكي، وفي ما يمكن



## رحلة إلى السهول

أن نطلق عليه حامل الأيقونات الرئيسي، وبالتحديد على الحائط الخلفي، نجد نقشين ~ بروفيل - للإلهين اللذين كان المعبد مكرساً لهما، وهما نقشان غير جديين على شكل حيوانات تمشي متجهة نحو المركز. وفي الجانب الأيمن نجد الأسد أبدي ماك في القطاع الأيسر، إنه إله غير معروف عبارة عن شكل فيل وهو إله وحيد أيضاً في عالم الآلهة النيلية، فهل كان إلهاً شديداً القدم من الآلهة الأفريقية أو أنه الإله الفيل من أصول هندية، وربما كان Ganesa أو الفيلة المقدسة من سلسلة Visnu أو Aiya Nar.

لا يبدو أن أحداً تحدث أو نشر الكثير عن هذا المعبد الغريب، لقد كان أمراً صعباً يطرح العديد من التحديات؛ أصبح بدهياً مرة أخرى وجود هذا اندماج بين الطقوس الأفريقية والهندوسية والفرعونية، ما الذي كان عليه دور هذا المعبد في هذا الوادي المقفر؟ كان المعبد منعزلاً على قارعة مفترق طرق القوافل، وليس واسع الأبعاد وتحيط به المناطق الصخرية للوادي. ولابد أن أهميته تكمن في شيء يختلف عن كونه مكاناً لترجية الوقت، بعيد عن النيل رغم أن اليوتانو Butano لم يكن قاحلاً على تلك الأزمنة.

اقتربنا بالسيارة من المقر الرئيسي، على بعد خمسمائة متر، تحول دون الرؤية حوائط حجرية مرتفعة. عنت خاطرة لبير: الحر شديد وسأبقى هنا! ففزت أنا ويحيى على الأرض. صمت. لماذا الجدال؟ لقد وصلنا إلى تلك المنطقة النائية، إلى قلب النوبة، في بوتانة، وهو المكان لن نعود إليه أبداً مرة أخرى. لكن بير يشعر بحرارة الجو وبقي في السيارة وكأننا نزلنا لنتناول مشروباً منعشاً ثم نعاود الرحلة في الطريق السريع. لا يمكن لي أن أفعل شيئاً! أخضت أفكر بينما أتجه إلى الأطلال الرائعة لذلك المكان، وهو مكان فريد من نوعه، لكنه لم يفصح إلا عن القليل من أسرار، ولا أحد يعرف على وجه اليقين الدور الذي قام به، ويبدو أن حلقة الصلة بالثقافة الهندية أصبحت معضلة صعبة

التفسير أمام أكثر من باحث. هل كان ذلك مقراً بملحقاته وحدائقه، أم كان مركزاً للحجيج؟

كان المكان بكامله غريباً، وغير معتاد وليس فيه الكثير من الجاذبية. هناك عدد من الصحون الضخمة التي غزتها الرمال، وهي صحون متتابعة دون أن يكون هناك سبب واضح لذلك. كان هناك ما يزيد على عشرين منها، لكنها مختلفة الأحجام فمنها المستطيل ومنها المتوازي الأضلاع، كلها تفتح على بعضها. ويفترض أن بعضها كان خزانات للمياه بينما بعضها الآخر حظائر. وبدلاً من السلالم كانت هناك مصاطب للصعود إلى نور العبادة. هناك منها ثلاثة أو أربعة متناثرة، ليس بينها الكثير من الانسجام أكبرها هو المعبد المكرس للإله أبيدماك المعروف والذي يتم تقديسه منذ 300 ق.م. وعلى عضادتي مدخل المعبد نجد - من جديد - الحيات ذوات رؤوس الأسود، شبيهة بما هو في نقا وتمثيل قبلة. أما المبنى الذي يوجد في الوسط، والذي يبدو أنه قصر ودار عبادة في آن، فقد كان يقع على منصة كبيرة، تحيط به بعض الصالات ذات العماد؛ ظهرت من جديد أشكال العمالقة والفتن. وفي إحدى واجهات المعبد، إلى جوار صحن كبير، هناك تمثال غريب، إنها منحوتة لقيال آخر! تمثال وحيد، ربما كان يشغل قدس أقداس المكان. كما نجد نقوشاً أخرى لأقبال في المعابد المجاورة.

ما الذي حدث في هذه المنطقة البعيدة والنائية من بوتانا؟ كان ذلك الإقليم أرض الأقبال حتى وقت قليل، لكن ليس ذلك هو السبب الذي جعل سكان وادي النيل يقنسون الأقبال في إحدى قطاعاته، وربما يندرج هذا على أجزاء أخرى من إمبراطورية مروي. في إحدى غرف المعبد نجد نقشاً فريداً فيه نجد ملكاً مروباً عريانياً فوق هودج يعلو ظهره قمل ضخمة، وعلى رأسه تاج الوجهين القبلي والبحري، وتحمله الآلهة نخبت؛ لم يصل أي ملك مصري على هذا الوضع. الأقبال في كل مكان! من أين أنت؟ ولماذا هي في موساواوات الصفراء؟ وكيف

## رحلة إلى السودان

كانت تستخدم تلك الصحون؟ ثم العثور على بقايا محضات، ربما كانت لحداق  
كانت تستخدم في تمزيق سكان المكان والقائمون على رعايته، لكن لم يكن أي  
دور تله في انصحاء.



"...tus sueños también existen"

شكل رقم 3

خمن شيني Shinnie الأمر من جديد؛ ربما كانت الأفيال الحية التي يتم  
اصطيادها في بوتانة تتجمع هناك، ولكن لماذا كانوا يريدون صيدها؟ ليصبحوا  
أغنياء، وكانت تلك هي الفترة التي انتشرت فيها إمبراطورية الجنوب، في  
مروي، مع بداية القرن الثالث ق.م. عندما قرر ملوك الأسكندرية - البطالمة -  
تزويد جيوشهم بالأفيال الأفريقية، ووصل بهم الأمر لاستلاك العشرات منها لكنها  
تم تكن بالعدد الكثير الذي توفر لأعدائهم الذين حكموا سوريا وهم Seleucidas  
والذين كانوا يجلبون الأفيال من الهند. كان البطالمة يغوصون في أعماق

الجنوب ليقوموا بالصيد بأنفسهم، وكان هناك فيلق كامل من جيشهم يقضي شهوراً في بوتانا ومهمته اصطيد الأفيال.

لكن كانت هناك مشكلة كبيرة تواجه عملية نقل الفيلة إلى مصر، فالأفيال الأفريقية من صنف m'bongo تتسم بأنها أكثر توحشاً وميلاً للاستئناس من مثيلاتها الهندية، كما أنها أضخم ولا يمكن أن تنقل في عوامات بشكل مباشر، ذلك أن يطن الصخور "جعل ذلك الأمر مستحيلاً؛ ولم يكن هناك مناص لتقلها إلا عن طريق البحر الأحمر حتى ميناء فيلوتيرا Felotera وميناء برنيس Berenice ومويس أرنوس Myos Hornos على متن مراكب غير مهيأة تكاد تغرق لأسباب واهية خاصة إذا ما حملت هذه الأفيال. ولنقل الأفيال إلى الأسكنرية لابد من تنويمها، ولكن قبل ذلك نرويضها. كان المرويون والقوشيون يعرفون الترويض، لكنهم كانوا يروضون خيولاً فقط. ولم يكن هناك إلا الكورنكي Coranck-i أو الكورناك Cornacas الهنود الذين هم على علم بترويض الفيلة في ذلك العالم القديم. كانوا هم وحدهم الذين يقدسون واحداً من آلهتهم المحلية المسمى Ganesa أي الفيل.

فهل كانت موساواوات الصغرا ذلك المكان الذي ضم من جاعوا من الهند للقيام بأعمال ترويض الأفيال التي يتم توريدها إلى البلاط السكندري؟ وهل كانت تلك الصحون الكبرى مجرد حظائر؟ لو كان الأمر كذلك فلا بد أنه كان مشهداً فريداً في ذلك الوادي المنعزل. هناك عشرات من الأفيال تجار، بعضها طليق لكنه يخضع للمروضين الهنودس الذين يمتطونهم ويقومون بعدة تمارين أو يذهبون بهم للاستحمام في تيار المياه والرعي بين الأشجار. بينما هناك أفيال أخرى مصطفة وقد تم ربط أحد أطرافها بسلسلة حديدية. وهناك كهنة يصلون للآلهة المقدسة، بينما يقوم بعض سائكة الكورناكاس بالعمل على تهئية الأفيال الشابة القادمة بالأغاني والإيقاعات الموسيقية والطبعية باستخدام جريد النخيل،

## رحلة إلى السودان

وهي أفيال تتراوح أعمارها بين ثمانية أعوام وعشرة كان يأتي بها الجتود. وكان يتم ترويضها على مدى عشر سنوات حتى يمكن الذهاب بها عن طريق البحر.

تحت وهج الشمس الحارق كنت أتأمل عشرات من الجرافيت (النفوش) المنتشرة في كل مكان والتي تؤكد أن ذلك المكان أو تلك الأطلال ظلت لعدة قرون ملاذاً للبل ولرعاتها. وبعد قتل أفعى كبيرة، أي شعبان كوبرا سام غادرنا المكان. ابتعدت عنا موساولوات الصفراء وقد لقيها الغموض. عدنا لاجئين الصحراء لتكون بالقرب من النيل. وفي شندي، أخذنا نعد الأيام رغم أننا نعرف أننا كنا سنصل إلى عطبرة خلال ثلاثة أيام، وبعد ذلك نأخذ القطار في اليوم التالي ولو لزم أن نركب وقوفاً في الممشى. وفي تلك الليلة كانت مفاجأة جديدة. فقد وصلت الأخبار بأن القطار سوف يغادر الخرطوم قبل يوم من مواعده. إنها نهاية شهر رمضان والعيد الصغير، تغيرت الخطط؛ وكان يجب السفر في اليوم التالي، الجمعة، لركوب القطار صباح الأحد.

قلنا وفعلنا. حزمنا أمتعتنا في الصباح وأفطرنا واستعدنا للرحيل؛ جاؤا لنا بالفاتورة؛ أعطيت يحيى كل ما معي من نقود، فقام بعدها، وقال بلهجة جادة: ليس هذا كافياً. لكن لدينا كل الجنيهاً التي غيرناها في الخرطوم! لا، أنا لم أعيرها في نهاية المطاف، لم يعطونا سعراً مناسباً. ماذا لكن لماذا نحتاج الجنيهاً إلا في سداد تكاليف الرحلة! حسن - قلت - لنقم بالسداد باليورو، فمعي هذه العملة. لا، لا يمكن، إنهم يقبلون فقط إما العملة المحلية أو الدولار. انتابنا الحيرة. المال الملغون يطل برأسه من جديد.

دخل مدير قطاع الآثار، فقد جاء لوداعنا. قصصنا عليه الأمر؛ كان البنك مغلقاً وحتى لو كان مفتوحاً فلن يغير لنا العملة التي معنا. خطرت لي فكرة وأنا أشعر بالعصبية. هل تعتقد أن أعضاء البعثة الفرنسية الذين هم في دارك يمكن أن

يغيروا لنا مبلغاً من اليورو بالدينار؟ يمكن أن نسألهم؛ كان الموقف صعباً، لا يمكن لنا أن نخرج من شندي ولا يمكن لنا أن نواصل الطريق. كنت أعرف أن رجال البعثة الأتارية لديهم ما يكفيهم فقط، وإذا لم يتم تغيير اليورو فإن ذلك سوف يكون موقفاً صعباً عليهم. عندما دخلنا المنزل المتواضع للمدير، المشيد من الطوب مثل غيره من المنازل والذي يقع خلف الفندق مباشرة، كنت أشعر بالعصبية ومستغرقاً في للتفكير. وفجأة قال يحيى: لدى بضعة دولارات، يمكن أن ندفع الحساب مما معي، ماذا؟ هل معك دولارات ها أنت نقولها الآن! نعم، كنت محتفظاً بها لأشتري بعض الأشياء وأقوم ببعض العمليات التجارية، لكن ليس هناك ما ينفع فكل شيء أغلى مما في مصر. كنت متندب الغضب؛ إنها للعصا المسحرة التي خرج علينا بها يحيى والتي لم أر فيها أية طرافة. كنا في الداخل، وكان رجال الآثار يرمقوننا في صمت، ماذا نفعل هنا، إن يحيى على وشك القيام بأداء للنمرة وطلب العون! نظرت إلى من استقبلوني وهم يشعرون ببعض الحيرة بسبب الجدل الذي تار ألقيت عليهم التحية ثم جلسنا.

مرعان ما اعتراضي الهدوء، كنا محاطين ببعض الآثار بين الشبان الذين يتسمون وهم سعداء بأنهم عادوا من جديد ليكونوا إلى جوار هذا الجزء من التاريخ الذي يدرسونه في كل حملة؛ كم كنت أود أن أشاركهم في هذا الحلم الدائم بالحفر والتنقيب والعثور على اللوحات في أماكنها التي وضعت فيها منذ قرون. كان محنتي أصبداً شهيراً أمضى ربع قرن يقوم بالحفائر في تلك الأقاليم النائية. الاستماع إليه أمر رائع.

وبعد قليل وصل مدير البعثة الشاب، بشوش وطويل القامة، وهو الذي كان البروفيسور قد ملحه راية القيادة. شربنا ونحن تحت أقواس الصحن، كان المكان به الكثير من الشنط المفتوحة، والصناديق والأوراق والأدوات، أم - سألتني - هل كنت المستشار الثقافي لبلادك في مصر لمدة طويلة؟ هل كان ذلك

## رحلة إلى السودان

وقفت أن قامت فرقة "لاكوادرا" بتقديم رقصة "باكانتس" Bacantes في دار الأوبرا؟ نعم، كنت أنا الذي نسقت عملية وصول الفرقة إلى القاهرة. أهنئك على هذا وأشكرك، فقد كانت الحفلة الأروع التي شهدت في حياتي. وأنا أيضاً لن أنساها أبداً لم أر شيئاً مثيلاً ولم أسمع أصواتاً عميقة تخلب الألباب مثل التي سمعتها. أمام هذه الهدية غير المنتظرة وتلك الحقبة من حياتي التي ظهرت فجأة أخذت تتقافز إلى ذهني ذكريات القاهرة، كانت تطل برأسها خلال تلك الأيام من ينبوع الأسى الذي يعبر عنه فن الفلامنكو، الذي ترك بصمة لا تمحى في قلوب القاهريين وقلوب الجميع.

ودع بعضنا البعض، دفعنا، ورحلنا ولكن ليس قبل أن نعد المدير بإرسال كافة الكتب التي تتعلق بمروى، فلم يكن لديه أي منها. تجاوزنا هذه المرحلة من الرحلة، ذهبوا بنا إلى منطقة خالية بين بعض المنازل على أحد أطراف البلدة، كانت المحطة؛ وتحت وهج الشمس كان هناك ميكروباص وسط الساحة ولثنتين من سيارات نصف النقل مزينتين بألوان عديدة. كانوا في الانتظار. وكما هي العادة بالنسبة للمراكب والميكروباصات، فإن السيارة تتحرك صوب اتجاهها عندما تملك بالركاب، كنا سبعة من بين سبع وعشرين راكب. جلسنا القرفصاء في ظل شمسية هي الوحيدة في هذا المكان المفتوح على السماء؛ كان هناك كافة المئات، والفتاة الذي يحصل الأجرة وقائمة بالركاب وبائع قماش يصر على أن يعرض علينا صور القديسين في بضاعته وكذلك صور البابا شنودة، كان هذا العجوز على استعداد لاستخدام التشابه المفترض معنا في المعتقدات الدينية لأغراض تجارية حتى يبيعنا أي قطعة بسعر مرتفع.

لا أعرف أين كان يحيى؛ ثم نتبادل الحديث أنا وبير، لم يكن هناك مجال. كان الأمر وكأنه لابد من بذل جهد للتلقى، قمت بجولة؛ هناك مسجد بين عدة منازل، ومنازل ذات طابق واحد لها بوائك ظليلة وواجهات قديمة؛ لازالت

شندي جميلة. كان القرن مفتوحاً وفي العمق هناك أعجاز تلمع ببشرتها السوداء التي تختلط مع فتحة القرن يسودها ونارها؛ لم يكن عرق الرجال كافياً إزاء هذا الكم من مثلث الأرضة المرصوصة على الأرض؛ وبعد عدة ساعات امتلأ الأتوبيس وتحركنا.

أخذ المشهد في بوتانا يتحرك من نافذة الأتوبيس، هناك غابات من أشجار السنط المبعثرة هنا وهناك في كافة أرجاء الوادي، وأحياناً ما يكون المشهد مفتوحاً ويبدو في الأفق جبال بينها توجد فتحات على وديان قاحلة، المشهد يتسم بأنه مسبو ولا يوجد به الكثير من الشجر. هل كانت هناك مروي في هذا الوادي الوديع بنجاحها وشهرتها؟ لا بد أن بوتانا كانت في أوجها على شاكلة الشدة التي عليها الأقاليم المدارية، والسبب أن غاياتها الكثيفة هي التي وهبتها العظمة وشهرتها في صهر الحديد وتشكيله؛ وعلى ذلك فما بقي في بوتانا هو نفس ما بقي في مروي؛ أطلال المشهد القديم الذي لم يفلح الطقس الجديد في القضاء عليه بالكامل فقد بقي شجر السنط كذكرى لما كان عليه ذات يوم.

وفجأة تغير المشهد، فقد ظهر شيء لم تكن نتوقعه، إنها أهرامات مروي، ها هي هناك من جديد، تقف على مرتفع ومتراصة كأنها خلية نحل، تبدو كأنها غير حقيقية في الصحراء، تبدو وكأنها ديكورات من للكرتون والحجارة؛ يبدو المشهد أسطورياً بسبب عمارة الأهرامات غير المألوفة وسط الهضاب الوطينة والكثبان الرملية. الأهرامات سوداء، والرمل يميل إلى اللون البني. لم أتمكن من مباحة ناظري، كنت مشدوهاً وأنا أتأمل هذا العمل المملوق وهو يمر من بعيد. يتضاءل حجمها كلما ابتعدنا عنها حتى توارت وتوافقت مع الذكريات المتعلقة بلوحة كنت أحتفظ بها. لقد تحقق حلمي في البحث عن شيء أسطوري؛ كانت رياح الصحراء ساخنة، تلفح وجهي، لكنني ظللت أتأمل المشهد وأتأمل مشدوهاً بينما كان كل من يحيى ويبر نائمين.



## رحلة إلى السودان

وبعد مرور أربعة أو خمس ساعات وتغيير الميابة في إحدى القرى عبرنا جسراً حديدياً؛ كنا في عطبرة، وكان النهر يحتوي على القليل من المياه في مجراه لكنه عميق وجميل، يضم جزيرة من الطمي في الوسط والكثير من الأشجار والنخيل على شاطئيه، كان هناك شيء ما في هذه الخضرة الطاغية التي جاءت من أثيوبيا مباشرة، كأنها طزاجة الأراضي العالية والشلالات، إنها عطبرة والنيل الأسود للون مياهه وهو آخر روافد النيل الكبير، كلها تجر معها تكريات مكان بعيد؛ نتحدث عن تلك القبائل التي ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ والتي لجأت إلى هناك بعد تلك الهزة الكونية التي تركت مصر بدون سكان على مدى ألفين وخمسمائة عام، أي في نهاية العصر الحجري القديم (بين 9500 - 7000 ق.م.) كانوا يقطنون الأخصاص وسط البحيرات، ويقومون بأداء شعائر قديمة ويقدمون قربانين بشرية للتزلف للنهر.

عبرنا من خلال سوق كبير دخلنا إلى حي الإنجليز، الذي يفصله جسر آخر عن المدينة، فوق خط السكك الحديدية التي سيمر فوقه القطار الذي نبحث عنه، إنه حي كيتشنر ولازال يطلق عليه هذا الاسم حتى الآن، ويؤكد أن الناس لازالوا يتذكرون بحب الوجود الأوربي الذي خلف لهم هذا المكان المثالي. في عطبرة وجدت الخرطوم التي رسمتها في خيالي، كانت تمتد على شاطئ النهر وتسيطر عليه من تمل، هناك العديد من الطرقات الواسعة المعجرة والحدائق الكبيرة والفلل ذات الفرندات الخشبية والمشربيات، وشوارع تزينها الأشجار العتيقة تغطيها بالكامل ومساحات لملاعب ومحطة القطار ومراكز جامعية وإدارية؛ ظلت كلها كما تركها المستعمرون لكن علاها التراب وشيء من التقادم، لم يكن ذلك نوع من الحزن على الملاك القدامى، بل الأسى بمرور الزمان هو العنصر الذي يضيف على المكان اللاحركة، كانت الأزهار رائعة، زهور الجهنعية ذات اللون الأبيض وأخرى hibiscos ذات اللون الأحمر القلبي.

كان مقر إقامتنا منزلاً كولونيالياً قديماً، له واجهة جميلة وحديقة جميلة بها حشائش. أما الداخل فهو مهلهل، غير أن مراوح السقف كانت تعمل وكانت هناك أمرة. كان الطابق الثاني غير مأهول، به بعض الأثاث القديم، شعرنا من خلاله بعرق بارد يتصبب منا بسبب الحكايات المخيفة وخاصة عندما يتم قطع التيار الكهربائي لفترة زمنية محددة. تناولنا إفطار رمضان وهو إفطار متواضع في الصحن الخلفي للمنزلين وشاركنا البوابون. جلسنا على سجادة مفروشة على الأرض تحت شجرة غصونها وطينة وكأنها تتحمل التهالك الذي عليه تلك الحديقة المهجورة.

جلسنا بعد ذلك مع المدير، رجل شاب وهادئ. كان الفندق مقراً للطلاب، وكان خالياً بسبب أجازة العيد. لم يكن مَرِنًا وكانت أحوالنا المادية صعبة، كان يريد أن تدفع مقدماً. لم يقبل إلا الدينارات ولا يريد أن يعرف شيئاً عن غير ذلك من العملات. أخذ يحيى يتناقش معه باستفاضة، أما أنا فقد قمت بترجمة ما يقوله ليبر وأنا أعتقد أنني أفهم ما يدور. لكن يحيى، كما هي العادة، لم يقل لنا إلا القليل، وأصبحت بعدم القدرة على التواصل بين العربية والنوبية. لا تتخلاً كان يشير يحيى وإلا لجعلتم الأمر أكثر تعقيداً من خلال ملاحظتكم غير المفيدة. إنكما لم تدركا حتى نصف ما يدور! اتضح في النهاية أنهما كانا يتحدثان عن السداد مقدماً لثمان الدجاجة التي تعشينا بها!.

خرجنا ليلاً ومشيئنا في هذه الأنفاق من الأشجار، تكاد نتحسس الطريق. كان الظلام قد حل بالكامل، وبين الحين والآخر بصيص من الضوء القادم من مصادر الإضاءة في الفلل المجاورة، مررنا بصفوف من شجر البوباد baobad العتيق، ذات الجنوح الضخمة والمستديرة، بينما يحرك الهواء أوراقها بين الحين والآخر. سرنا وقتاً، حتى وصلنا إلى حديقة مجاورة لمحطة القطار، وبعض المباني المضاعة، مليئة بأفراد الأسر وقتية كانوا يتصايحون ويلعبون ويغنون.

## رحلة إلى السودان

كان هناك نوع من الحيوية والسعادة في المناخ العام. كان ذلك هو نادي كرة القدم في عطبرة، ويعتبر مكاناً لتأهيل لاعبي الكرة الممتازين، كانت الهواية مسموحة، فقد كانت هناك مباراة في تلك الليلة. سألنا عن مدير محطة السكة الحديد الذي يفترض أنه هناك هذه الليلة.

أمر مؤسف، لكننا كنا شكورين للترحاب الذي قوبلنا به، فقد ذهبوا بنا إلى مكتب مدير النادي وأدخلونا صالوناً فاخراً حوائطه مدهونة باللون الأصفر وبه مائدة ضخمة وعدد من الكراسي المرصوفة إلى جوار الحوائط، قدموا لنا المشروبات المثلجة بينما كان المدير يتحدث مع بعض المدراء، كانت الجلبة تدخل إلى الصالون، انظرنا ولكن بلا جدوى، سوف نعود بعد ذلك، عدنا من حيث أتينا وسط الظلام. كان بير يريد الاتصال بمنزله، لفتنا رطوبة الليل، كانت هذه الأشجار تروى بقنوات ممتدة على طول الطريق حيث تمر المياه صامتة لكنها تضيء الرطوبة على الهواء تحت الأشجار.

عدنا من حيث أتينا، لكن لم يبق أحد في مقر النادي، فجميع ذهب لمشاهدة المباراة، خرجنا وبحثنا عن الأستاذ؛ لم يكن الأمر صعباً. وعند المدخل استطاع يحيى أن يقنع الحارس بالأمر ودخلنا. كان الأستاذ مضاعاً بقوة وكانت المدرجات مليئة بالفلاحين يرتدون الجلابيب. في أحد الجوانب هناك مجموعة كبيرة تهز الرايات وترقص على وقع الموسيقى الأفريقية. أما في الوسط (الملعب) فهناك الفريقان المتنافسان؛ جلسنا إلى جوار المقصورة وشهنا النقائ (المتبقية من الشوط الأول، كان يحيى مبسوطاً للغاية فهذا ما كان يريده؛ غير أن الجمهور لا يبدو متحمساً، وخاصة هؤلاء الذين كانوا يغنون للاعبين، كان الجمهور المحلي ساكناً وصامتاً. فالأمر صعب إذ أن فريقهم خسر المباراة حتى تلك اللحظة.

خلال فترة الراحة بين الشوطين تمكننا من مقابلة مدير محطة السكة

الحديد الذي زودنا بكل النصائح، وطلب منا الاستعجال في شراء التذاكر، وكنا في هذا الأمر منذ وقت، فلما نعرف متى سيمر القطار، ذهبنا صوب المحطة ودخلنا غرفة كبيرة خالية بها تراسية عالية من الخشب، ولمبة سقف وبعض النوايب وتريزين. كان هناك رجل منكمي على نكت كبير حيث أخذ يكتب بعناية تفاصيل التذاكر؛ خدعنا حين قال لنا إن عربة النوم كاملة العدد، وقدم لنا آخر تذاكر الدرجة الأولى، سوف نساغر جالسين، وعندما خرجنا كنا نرقص فرحاً. وفجأة ظهرت امرأة جذابة من جنح الظلام، توجهت إلى بالحديث بسرعة. قال يحيى إنها تعتقد أنك سوداني وأنت ترتدي للجلابية وأن عينيكَ جديتان، هذه تريد الاتصال بك، طبعاً! إنها تستغل لحظة الفراغ!

عندنا من جديد صوب الأستاذ ودخلنا، كان الشوط الثاني قد بدأ، ألح يحيى على أن نبقى؛ قبلنا فقد كنت سعيداً بالبقاء بعض الوقت، لم يتحسن حال الفريق المضيف، ساد الصمت الأستاذ، حتى أن حاملي الآلات الموسيقية كانوا جالسين، وبعد ركلة أو ركلتين نهض المشجعون وعادت الموسيقى والرقص للمدراجات، لكن النهاية كانت متوقعة ومحنة للفريق المضيف؛ اختفى المدير دون أن يوضح لنا شيئاً عن وصول القطار الغامض؛ جلسنا في الميدان الصغير لأحد الشوارع الجانبية، الذي يحيط بما يمكن أن يكون ديراً قبطياً. كانت تبرز من أبراجه صلبان ضخمة لتؤكد - كما هو الحال في مصر - أن التعايش بين الأقباط والمسلمين أمر واقع. عاد يحيى ومعه الأخبار، ها هو القطار وقد قدم موعده بيوم سوف يصل الأحد أي خلال يومين.

ذهبوا بنا في ميكروباص إلى السوق؛ كان يقع خارج الحي الإنجليزي بعيداً عن خط المسك الحديدية، أي أنه كان على زمن الاستعمار المدينة العربية، وكانت الوريثة لها مجموعة من المنازل الحديثة من الأسمنت، وهي عبارة عن شوارع وميادين صغيرة فوق أكوام من الطمي. لازال هناك فاصل بين ما هو

## رحلة إلى السودان

كولونياتي وغيره، ولحسن الحظ فالمكان يخلو من المستعمرين الذين منعوا السكان المحليين من الذهاب حيث شاءوا. كان السوق كبيراً، يتوه في الظلام، هناك مئات المحلات المضاءة في مجموعة من الأزقة، يوجد بالسوق كل شيء. وجدنا مكاناً لبيع البرانيط من الملايو واخترنا من جديد. أخذ يحيى يتحدث مع رجل جالس على الرصيف، الرجل الذي له وزن يصل إلى غايته! كان يقول له. كان يحيى مشدوهاً. واصلنا الطريق.

بقي يحيى في محل للقمماش يسأل عن شيء، سيقناه أنا وبيير، ونُها وسط الزحام، أخذنا نهم في الشوارع ما يزيد على ساعة من الزمان بحثاً عن يحيى. لم يجد البحث. طفناً وطفناً، حتى أصبت بالإعياء، لم يكن واضحاً ما إذا كان من تاه هو يحيى أم كلانا. على أية حال لم تكن نعرف حتى اسم للفندق أو اسم الشارع، جلست على مقهى في الهواء الطلق، تحت شجرة سنط. كان هواء الليل دافئاً، والتيفزيون مفتوحاً، لكن الزبائن كانوا مشغولين كل بأحاديثه الجانبية. تشاي بالكمون له مذاق رائع، تلفني بين الحين والآخر نغمة كثيفة من الدخان؛ وخلفي، على الأرض، كانوا قد وضعوا حبات البن على الأرض وأخذوا يحمصونها، عاد بيير خاوي الوفاض بعد أن كنت قد عدته من التائهين، غير أن بيير ألح على القيام بجولة. الحق معه؛ ظهر يحيى فجأة وهو يحمل سيفاً نوبياً في يديه؛ فقد أخذ يفصل لمدة ساعة حتى استطاع تخفيض السعر، إذن لم يتذكر وضعنا إلا في لحظة عابرة؛ شعرنا بالراحة أنه لم يقض الليلة في عملية لفصال. عدنا.

كان رجال الفندق قد أعدوا لنا مائدة رائعة عليها مفروش أبيض يصل حتى الحشائش، وسط الحديقة وتحت التخييل والسنتط، كانت هناك زهور النار ذات اللون الأحمر القاني. تذكر ثلاثتنا في لحظة ذلك المكان الجميل الذي يقع خارج القاهرة "نست أوف سقارة Nest of Sakara، حيث الموائد ذات مفارش بيضاء حتى الأرض، بينما الصحراء تزين بأهرامات دهشور عن بعد. تناولنا

## رحلة إلى السودان

العشاء في عطبرة، كان عشاء فاخراً للغاية. أتوا إلى بشيمة وكانت الليلة غالية في الجمال.

في صباح اليوم التالي، أعطيت يحيى مبلغاً كبيراً من اليورو حتى يقوم بتغييره، وذهبت في جولة، تحت وهج شمس حارق، صعدت إلى قنوات المياه وسرت تحت ظل الشجر؛ كانت هناك كنيسة أنجليكية في تقاطع طرق، إضافة إلى كشك حراسة مهجور، وجدت دخله دراجة بدون عجل ونموذج لبرج إيفل علامة الصدا، واستناداً إلى طبقة التراب المتراكمة فإن هذه الأشياء هنا منذ أن ذهب الأوروبيون عن المدينة، كانت هناك منطقة خالية، تتخللها مجموعة من القضبان، وفي كل مكان كانت هناك بقايا مشكالات قطارات مهجورة، وجارات قديمة وعربات قطار خشبية.

عدت من حيث أتيت لكن يحيى لم يعد، جلست مع بير الذي كان يعد لإفطار رائع، وفي النهاية وصل يحيى وهو في غاية الثروة. كانت عملية تغيير العملة في البنك أمراً شائعاً وصعباً، فقد قالوا له إنهم لا يقبلون إلا الدولارات، ذهب لمقابلة المدير، هو رجل ضخم البنية لكن بماغه خاوية، كانت عملة اليورو تثير ضحكته؛ يقول إنها متذبذبة في سعرها، قالها وهو يتمثل ذلك بذراعيه المفرونتين. لكن هذا هو البنك المركزي - قال له يحيى - ويقوم بتغيير كافة العملات مثلما هو الحال في الخرطوم. رأى يحيى أن ذلك المأفون يمكن أن يكون خطيراً، فغادر المكان، نزل السلم واتجه صوب الصراف، وهنا بلغ الأمر قمة التوتر، فهو الآخر لم يشأ تنفيذ عملية التغيير لدرجة أن يحيى بكى بالفعل وقص عليه أنه برفقة اثنين من الحاجوايات، والأمر سيكون مأساة إذا لم يستطع تغيير العملة. كان الصراف الشاب متعاطفاً مع يحيى وغفر له العملة. ها نحن نتجاوز مرحلة أخرى ولكن بمعجزة، تمكنا أن نمدد ما علينا غداً ونخرج من عطبرة، ولتكن المغادرة بالقطار ما أمكن لأن شاء الله!

### رحلة إلى السمحان

خرجنا في وضوح النهار في منتصف اليوم، وسرنا تحت الأشجار صوب النيل، مررنا ببوابة فيها الكثير من الفتية الصغار، كانت بوابة حمام للسباحة القديم للنادي الكولونيالي، وفي الداخل كانت هناك مجموعة من الفتية والشباب الأقوياء السواعد يستحمون، دعونا للاستحمام، وشاركهم يحيى لفترة غير قليلة، بينما جلست أنا ويحيى، نراقب كيف كانوا يجررون ويمرحون، كنا نتابع المشهد في صمت. وبعد ذلك ذهبنا إلى شاطئ النيل عبر طريق مخوف بالجدران. وتحت شجرة ضخمة ترك لنا بعض الجنود الشبان المقعدين الوحدين الموجودين هناك، كانت هناك عثة تباع لنا بعض المشروبات.

لأمانا، هناك شاطئ طيني ضخم تمتد حتى النهر، نراه بهذه الضخامة من بعيد، ونرى السيارات وعربات النقل والحافلات المحملة بالركاب والأمتعة، كانت هناك مجموعة من الفلاحين تنتظر تحت ظل شجرة سنط حتى تنقلهم المجدية إلى الشاطئ الآخر تصحبهم عائلاتهم وحيواناتهم. كان المشهد جميلاً لدرجة أننا وقفنا نتأمله فترة من الزمن؛ لم تكن على عجلة من الأمر، ظلت أنا وبير أكثر من ساعة متجاورين دون أن نتبادل أطراف الحديث، لا عن الرحلة ولا عن الناس أو التاريخ. أصبح كل منا يعيش في عالم منعزل عن الآخر، كنا نجلس متباعدين، لكن، لحسن الحظ، كانت الموسيقى جميلة، أما يحيى فكان يتحدث مع صاحب العثة، إنه قبضي مصري من أسيوط.

هيا بنا! قالها يحيى فجأة، كان مقللاً في كلامه، يرافقه ثلاثة من الشبان الذين يرتدون قميصاً وبنطلون جينز. نزلنا من فوق الشاطئ الطيني، واقتربنا من الشاطئ سيراً على الأرض الطينية الموحلة، هناك شيء ما يلمع تحت سطح المياه. إنها غويشة من الفضة لابد أن إحدى الفتيات تقنتها وهي تقفز. ركبنا لانساً ضخماً من الكاوتش الأسود، وأوصونا بأن نمسك بمقاعدنا جيداً، كانت حوائط اللش عبارة عن مواشير ضخمة من البلاستيك ولها حبل في الجزء

العلوي. أمسكت بالحبل جيداً وخرجنا طيراناً. ونهض من كان على الحافة وأخذ يتقدم بشكل موازي على صفحة النيل، كان الموتور من القوة بحيث ابتعدنا عن العوامة ووصلنا إلى وسط النهر، وشهدنا مصب النيل الأسود في عطبرة وهو بغزو النيل، إنه مصب مليء بالأشجار والنباتات الورفة، والشواطئ العالية من قطين الخالص.

نزلنا في جزيرة وسط النيل حيث كان الفلاحون يزرعون الأرض بين كل فيضان وآخر، عندما يعلو منسوب المياه. كانت الجزيرة عبارة عن كيلو متر مربع من الطين، أخذنا نترهل فوقه؛ كانت هناك بعض النباتات النامية، في وضع مرتب، وكان هناك صيادون وهم يرمون شباكهم المتهالكة. عدنا إلى للنش، فهو جزء من معدات فريق مراقبة النهر، وعدنا لنطير من جديد لكننا، هذه المرة، عبرنا النيل كله لمسافة اثنين من الكيلو مترات، كل هذه الكتلة الكبيرة من المياه كانت تنساب هادئة. وعلى المعديّة المقابلة كان الفلاحون ينتظرون في الظل، كانوا يراقبون تحركات ذلك القارب المطاطي بسرعاته وبطئه. كنا نشير عليهم لكنهم لا يربون التحية؛ فنحن في نهاية المطاف مجموعة من الخواجات كانت ترجي وقت فراغها في لنش يتبختر.

عدنا إلى جانب المعديّة في عطبرة، عبرنا النيل في خط مستقيم، نزلنا من القارب في ثوان، ظل الكابتن ويحيى في المياه. تأخرت بسبب المايود رغم أن الجلابية التي أرتديها ساعدت كثيراً في الأداء والمناورة. قدّمت بنفسني في النيل ولنا شبه متكور، تلقفني تيار شديد دفع بي عدة أمتار، كان عليّ أن أقاوم وأعوام بشدة لأستعيد توازني، كان الجو حاراً وكانت للمياه رائحة. وعند الخروج كان الكابتن ويحيى يرتنون الجيتز فوق السراويل المبتلة. سعدنا المنحدر وودعنا حتى المساء.

في طريق العودة، رأينا باباً مفتوحاً عنده كشك حراسة خاو، دخلنا حديقة



## رحلة إلى السحابة

مهجورة تماماً؛ كان التراب في كل مكان ومعه الأطلال، هناك شجرة ضخمة في الوسط، وحارس نائم؛ كانت هناك حوائط متهاككة، وفتحات ونباتات جافة وأقفاص متهاككة، كنا في حديقة الحيوان بعطبرة! أنظروا أشار يحيى. مجموعة من فكاك التماسيح ملقاة على الأرض، لم نتمكن من مغالبة الابتسامة كان كل شيء يبدو كوميدياً عن الآخر، وجدنا بقايا تمساح أعلى قضبان القفص الذي كان فيه، وسلحفاة عجوز جداً ذات عظام ضخمة ملئت من كثرة الدوران، وجدنا غزلاناً حزينة وأقفاصاً خاوية، عليها بطاقات بالعربية والإنجليزية، وحمام سياحة صغير به فرس النهر رغم أنه كان لا يسعه، وقفصاً منعزلاً مأهولاً، غير مرتفع السقف، مليئاً بالقروود ذات الوجوه الحزينة والمائلة للزرقة. إنها آخر شواهد لهذا الانحطاط الذي لا يصدق، كانت ننظر إلينا وتتساءل عما الذي تفعله هنا في الأقفاص. فهمنا ما نقول ومع هذا لم نتمالك أنفسنا من الضحك.

يمكن رؤية النيل كاملاً من على مرقب خشبي، فوق المنطقة التي استرحمنا فيها، لابد أن ذلك يرجع إلى العهد الاستعماري! وظلنا نضحك، في المساء مررنا مرة أخرى أمام ذلك الباب، سألتنا الكابتن الشاب الذي جاء معنا. كانت حديقة الحيوان قد افتتحت منذ خمس سنوات فقط، مات فرس النهر وكذلك الطيور، كان هناك المزيد من السلاحف وإحدى الجواميس، وكان بالحديقة عدد ضخم من الثعابين والتماسيح، لكنها كلها فرت صوب النهر. ضحكنا ثلاثتنا في لحظة واحدة، لقد فعلنا شيئاً حسناً حين قررنا!.

كان السوق خلال تلك الليلة غير مكتظ بالناس، ذهب بنا الكابتن صوب النواصي والحواري، وإلى المحلات التي يعرفها، ومن محل للعطارة الخاصة بالنباتات العطرية اشترينا البخور الحضرمي والمرّ لعلاج العيون، وعنبر اليمن وقرنفل السودان الشهير على ضفاف النيل، إضافة إلى بعض المواد الأخرى وبعض النباتات العطرية، اشترينا بعض العطور الواردة من السعودية، كنا نفكر

## رحلة إلى السودان

في نساتنا وصديقاتنا؛ إنها سترطب بشرتهن بهذه الدهانات الشرقية، وتخلب أبواب الكثرين، اشترى لحيي فستان العيد، وهي الإينة الكبرى ليحيى، ابنتي بالتبني، كان فستاناً مشجراً.

تأخر الوقت، وبعد أن جلسنا وقتاً مائتاً في المقهى في الهواء للطلق، فادنا الكابتن إلى مكان رائع لتناول العشاء، طبقاً لما قاله يحيى. كان المحل مغلقاً. لكن يا يحيى ألن نتناول العشاء في الفندق؟ لم نقل شيئاً، لكننا اشترينا من الطعام ما يكفي ليومين؛ لا، لا، من المؤكد أنهم لن ينتظرونا؛ سرنا أكثر من كيلو متر على الطريق الأسفلتي، حتى وصلنا إلى المكان الوحيد المفتوح الذي توجد به مقليات، كان في مفترق طرق، كانت هناك مجموعات من الناس تتناول الطعام، من سائقي تاكسي وجنود وسائقي شاحنات ومخبرين وأناس من السوق. أكلنا حتى انماله بطاطس مطبوخة وقطعاً من اللحم المشوي.

عندما وصلنا إلى الفندق، فخرت أفواهنا عندما وجدنا مائدة عليها مغارش بيضاء في انتظارنا وسط الحشائش؛ لا يمكن لنا أن نتنوق أي شيء ولو كانت هذه إرانتنا. الحمد لله! قالها البوابون، حيث أتكم تناولتم العشاء يمكن لنا أن نتناول عشاءكم الفاخر. إنه هدية رائعة! جلسنا في حلقة، لم ينقصنا الشاي والشيشة. كان يحيى يتحدث بصوت خفيف مع ذلك للعجوز الذي تعرف به في السوق، الذي ظهر فجأة عند الباب. كان يكتس الحديقة مقابل بعض الطعام ومكان يؤويه، إنه ديو جنيس المتسول نون زاد أو مأوى، يرتدي فقط جلابية تكاد تنفك عراها، كان قد ترك قريته منذ عشرين عاماً، هي قرية من الجنوب، في منطقة كردفان، بعد أن هددت الحرب حياته، لم يعد إليها، لكنه كان يحلم بأرضه الواقعة بعيداً عن جبال النوبة، إنها ذلك الفردوس حسب قوله.

كان ذلك للحالم يعيش من لا شيء، يقوم ببعض الأعمال البسيطة كنوع من المساعدة لكنه لا يتسول أبداً. يقبل ما يُقدم له، سوف يعود يوماً ما ويبقى في

## رحلة إلى السودان

أرضه، في تلك الفردوس إلى الأبد. لكنه كان في تلك الآونة يعيش كعصفور يطير في الهواء وعلى ما يرزقه به أرحم الراحمين الذي يرزقه بكل ما يحتاجه. إنه فيلسوف، شخصية غير عادية، هادئ وعليم كان يحيى يتعجب من وضعه، إنه أحد النازحين من جراء الحرب، ليعيش تلك السنوات بعيداً عن منزله؛ إن هذا الفيلسوف تعبير كامل عن البقاء على قيد الحياة، لأبد أنه يعاني كثيراً، فهو وحيد ولا مورد له، وهذا ما يعطيه قوة وجلداً.

كان الفيلسوف الهائم على وجهه يقص حكايات. كان يحيى يترجم لنا بعضها من حين لآخر، كان يتذكر مواقف في حياته. وأخذ يتحدث عن الأصل، ربما كانت تلك هي الذكرى المربعة في صباه، كانت حيات ضخمة الحجم تجول في أنحاء أقاليم أعالي النيل، حيث كانوا يعيشون؛ كان طول الواحدة يتراوح بين ثمانية أمتار وعشرة، أجسادها مستديرة كأنها جذوع أشجار، كانت تهاجم الأفراد والحيوانات تلتهمها كاملة. كانت ترى في النهار وهي تزحف مبرعة، لها رؤوس ضخمة وأعين لامعة وثابتة وظهور ملونة ومتموجة. كانت هذه الزواحف العملاقة تخرج بحثاً عن فرائسها في ظلام الليل عندما كان يُسمع فحيحها المريع وهي تزحف وسط السافانا الكثيفة، في المناطق الموحلة. كان الجميع يؤمن على الكلام، فقد كانوا يعرفون الأصل، إنه شكل رهيب لمشهد بعيد وغير معروف.

كان يقول بأن الفلاحين كانوا - عندما ينامون - يربطون أنفسهم بالأمرة المرتجلة مع ترك أذرعهم وسيقانهم مفتوحة حتى يحولوا دون أن تبتلعهم الثعابين وهم نائمون؛ كل هذه الصور البشعة تقدم لنا عالماً بدائياً، أطل علينا بقوة من أعماق الزمن، ربما لا زال هذا العالم قائماً حتى الآن، لكنه منو هنا في دهاليز أعالي النيل. غير أن هذه المشاهد الدائنية جرى تجاوزها على يد بعض سكان النيل الذين كانوا يقومون باصطيادها؛ كانوا رجالاً أشداء العزيمة،

## رحلة إلى السودان

يلقون بأنفسهم عرايا وراء الشجيرات، ويبقون على سيقانهم مفتوحة وبدأ على مستوى الأفخاذ تمسك بمسكين. كانوا يسمعون الثعالب وهو قائم بعد أن أصنر فحيحه المرعب وهو يدهس الحشائش بزحفه. وعندما يرى الفريسة فإنه يعمل على ابتلاعها يفمه الذي ليس به أسنان، يبدأ بالسابق التي تصادفه أولاً وبتلعتها حتى المستوى الذي توجد فيه اليد. وبمجرد الدخول في فم الثعالب يقلب الصيادون تصالهم ويفتحون بطن الثعالب الرهيب. وأحياناً أخرى كان الأطفال هم الذين يقومون بالصيد فكانت للثعابين تبتلعهم، ولكن عندما يبتلعون نصف أجسادهم يقوم الأطفال بفقا عيون الزواحف.

خيم علينا الصمت، كان مثيراً ذلك الذي كان يقصه علينا ذلك الرجل الغريب، إنه النموذج الحي الأول على وجود هذه الثعابين الضخمة في وادي النيل. فهل لازالت حتى الآن في وادي النيل بينما انقرضت بعض الحيوانات المتوحشة الأخرى منذ خمسة آلاف عام، أي مع بداية عصر الأمرات الفرعونية؟ يضم كتاب الموتى عند الفراعنة العديد من الثعابين، وما نحن نرى أن لازال بعضها يعيش حتى الآن تفرع مكان أعالي النيل. هذه الليلة ولد الغموض تحت ضوء النجوم.

رافقنا الكابتن في الصباح حتى محطة للقطار. وأخيراً وصلنا، ها هو القطار الذي سوف يقلنا إلى وادي حنفا. مررنا بعدد كبير من عربات للقطار، وفي النهاية لقينا بامتعتنا من النوافذ، وألقيت بجسدي على الكرسي إلى جوار الممشى، وظللت هناك طوال الساعات التي انقضت في انتظار رحيل القطار، وكأنني كنت أخشى أن يتبخر ذلك القطار الذي انتظرته على أحر من الجمر.

كان القطار متقادماً للغاية، فالنوافذ بلاج زجاج ولها شبابيك خشبية منطوية، ومساند المقاعد تكاد تسقط من مكانها، بينما المقاعد كأنها خرق مهلهلة. كانت مقاعده عبارة عن كذب ممتد في ثلاثة في كل، لم يكن هناك إلا راكباً واحداً

### رحلة إلى السودان

من وادي حلفا، يجلس إلى جوار النافذة، وفي آخر دقيقة وصل اثنان من الفتية أحدهما طويل وجاد، بينما الآخر قصير وبدين تلوح على وجهه ابتسامة. كنا نسمع الأطفال في الطرقات وهم يجرون. يقال أنه كان هناك طفل أشقر، يبدو بريطانياً، ظل في الموضع الذي عليه مغمض العينين لمدة يوم ونصف منذ أن انطلق القطار من الخرطوم. لم يتحرك من مكانه بينما الجمهور مشدوه لما يحدث.

عندما تحرك القطار في منتصف النهار، نمت على وقع عجلاته، دائماً ما كنت أعشق القطارات وإيقاع سيرها والمشاهد التي أراها من الشباك والحرارة الإنسانية. كانت أشعة الشمس تدخل بقوة، بينما لا تعمل المراوح. كان بير ينهض من مكانه كثيراً ثم يختفي، كان يتأمل على طريقته، كان يبدو وكأنه حرّ طليق، فلم يعد يرتبط بذا، لقد استقل وكان سعيداً. كان الأطفال يجرون في الممشى ويمر نماء بحثاً عن المياه في الحمام، بينما يجلس الرجال على الأرض وهم يدخلون. كان للبعض نيام طوال الوقت، وكان القطار عن آخره، ماعدا عربات النوم؛ كانت خالية. توقف القطار في بربر لمزيد من الركاب وواصلنا سيرنا إلى جوار النيل صوب "أبو حامد".

في أرتولي Artoli، بالقرب من الجندل الخامس توقف القطار بعض الوقت، لم تكن نرى إلا كتلاً من الأسمنت وسفحاً شديد الانحدار كثيف الأشجار يصل حتى النيل. نزل من القطار عدد كبير من الشباب الذين كانوا يهبطون المنحدر ببطء وهم يدرسون، كانوا يقتربون من مياه النيل يتوضأوا، رأيت يحيى يجري فقد خلع ملابسه وألقى بنفسه في النهر؛ كان المشهد يبدو وكأننا في رحلة مدرسية؛ من جانبي قررت النزول على المحطة والقيام بجولة. نزلت على الطين، أتأمل للنهر العريض للغاية حيث هناك منعطف صغير. كان المكان هادئاً به النخيل كخلفية للمشهد لدرجة أن المرء يشعر أنه في بحيرة. كان يحيى يشير إلى وهو في الماء. أن أنزل إلى الماء، لم أكن واثقاً أن هذه فكرة سيئة.

في هذه الأثناء صفر القطار صفرة حادة. القطار يتحرك! رأيت الجميع يجرون صاعدين المنحدر، ورأيت يحيى وكأن شيئاً لم يحدث، وفجأة خرج من السماء، وارتدى ملابسه في لمح البصر وأخذ يصيح بشيء. أخذت عربات القطار تتحرك! كنت لأفعل ما بوسعي لكني كنت آخر الركاب، الحمد لله أنني كنت أرتدي قميصاً وبنطلوناً، وأخذت أجري على الرصيف بقوة بينما القطار تزداد سرعته، وقبضت بأصابعي على الصندل حتى لا يخلع كان الجميع يرمقونني من نوافذ القطار ويشجعونني وقد تكوّموا على الأبواب؛ وفي نهاية المطاف أصبحت موازياً للقطار في السرعة مددت ذراعي وأمسكت بمقبض على جانب الباب وقفزت.

عدت إلى مقعدي كأنني بطل تحوطه ابتسامات الرضاء، كان قلبي يدق بقوة أكبر، حاولت الخلود إلى النوم؛ كان الجميع يروحون ويغدون في العربة، يغرون من مقاعدهم، يريحون أقدامهم بلا نعال على الكرسي المقابل. كان السمين والطويل أبناء عمومة وصديقين حميمين، يتبادلان القفشات ويتسامران ويضحكان طوال الوقت. نام يحيى وكذلك الرجل الذي يجلس إلى جوار النافذة؛ ظل الأطفال يلعبون في طرقة القطار، يجرون وراء بعضهم؛ كان أكثرهم جرأة طفل أسمر اللون يبلغ خمسة أعوام، يرتدي زي اكسفورد بحذافيره بما في ذلك البرنيطة، كان يقف أمامنا ويراقبنا. كانت عيناه السمراوان لامعتين ومعبرتين. هل تحب، القطار Yeahh؟ كان يجيب صارخاً وكانت نغمته تحمل لهجة أمريكية.

كانت الشمس تنفذ إلى القطار من خلال النوافذ نصف المفتوح شيشها، لكنها كانت واهنة، وكان النهر يتعرج ويمتد وقد غطت شطآنه النخيل، كان يتفق بهدوء، وكأننا نشهد نتما من فردوس متخيل. كانت نهاية انحناءة "يربر". في هذه الأصقاع كان الفرعون تحتمس الثالث يصطاد وحيد القرن؛ لا تبدو هناك علامات على وجود قرى أو فلاحين، كان النيل يبسط جماله. الشاعر يري

## رحلة إلى السهول

بأريحية وهي التي يمكن تأملها مرتين في الأسبوع؛ أي هؤلاء المسافرون المتعبون في قطار الحدود هذا؛ لكن هذا للجمال كان يخفي وراءه نهراً مفعماً بالجزر ودوامات مياه سريعة ورمال متحركة في العمق. من المستحيل الإبحار فيه، ولهذا فابتداء من عطبرة حتى الكورو Kuru ظلت شطآنه غير مأهولة بشكل شبه مستمر.

انقسم بير وأخرج كراسة للرسم، وكعائنه أثار زوبعة حوله، هم أبناء العمومة والرجل النائم والكثير من الأطفال الذين سرعان ما تجمعوا، هم كل أطفال طرقة عربة للقطار، كانوا يريدون أن يريهم الكراسة كاملة، هناك طفل نو سبعة أعوام، ذو بروفييل إثنوبي وعذوبة غير معهودة كان يتكئ على بير، كانت نظراته ثابتة على الصفحات الملونة، ويشير بإصبعه ويطلب من بير أن يحكي له كل شيء عن اللوحات؛ كان الطفل ينهض ويرفع حاجبيه وجبهته ويسرح ببصره مع الأحلام، على وقع نبرات صوت بير.

قبل مغيب الشمس بقليل دلفنا بسرعة إلى عربة المطعم المجاورة للعربة التي كنا فيها، كانوا يقدمون الطعام قبل حلول موعد الإفطار للرجال الطاعنين في السن والنساء برفقة الأطفال والحاجويات النائحين في هذا الجو، كان هناك صنفان من الموائد، كل واحدة لأربعة، لكل مقعد من الخشب. هناك صناديق الزجاجات وثلاجة، كلها تشغل عمق العربة. كل هذا عبارة عن شيء من الطراز الأول، فهناك الصمت والبعد عن التكتل البشري، جلست أنا وبير إلى جوار النافذة، كان الهواء والرمال يدخلان عبر الشيش الذي تقوضت أطرافه، ولم نتمكن أبداً من فتحه، ونظراً لاهتزاز العربة لم يكن هناك متاص إلا الإمساك بالزجاجات المفتوحة.

كان المسافرون يتبادلون أطراف الحديث بينما هم في انتظار مينو الطعام الوحيد، كانت هناك امرأة جميلة ذات بشرة سمراء تلبس حجاباً أسود،

وجهاً واضح الملامح ويدها طويلتان ونحيفتان. كانت أم الطفل الذي يرتدي زي أكسفورد! كان معها طفل آخر أصغر سناً تحمله بين ذراعيها، كنت أنظر إليها بطرف عيني، وأنا أمعجب بأبهتها، ورشاقة حركاتها. كانت هي الأخرى تنتظر، وتتحدث مع جيرانها وتحاول أن تقدم الطعام للصغير بين يديها. أما والد الأطفال فكان رجلاً قوياً قصير القامة وجاداً، يبدو على شخصه أنه من العسكريين، كان يتجه إلى أمريكا الشمالية.

وفجأة كان هجوم الناس كاسحاً، كل من في القطار، كانوا يدخلون أفواجا إلى المطعم؛ كان وقت إفطار رمضان؛ هناك أناس من مختلف السلالات في أفريقيا من لثويين ونونيين وعرب وبناتو، يتزاحمون في طرقة العربية وعلى المقاعد. كانوا يتحدثون، وهم سعداء، بصوت مرتفع، يرفعون أيديهم، ويشيرون إلى السقاة. وكان هؤلاء السقاة عبارة عن رجلين يرتديان الجلابيب ويوزعان كميات كبيرة من الخبز البلدي على كل مائدة، يروحون ويغدون وهم يرفعون الأطباق عالياً، ويوزعون المياه والمرطبات؛ كانت الملحقة هي "كَم المائدة" الوحيد، وما بقي فكانت تحل محله اليد اليمنى. كانوا يتناولون الطعام برشاقة غير معهودة، لا يقع من الطعام شيئاً فوق ملابسهم. عدنا إلى العربية، كان قد حل الظلام عندما أخذ المطعم يخلو من رواده؛ عدنا للبحث عن شاي وتناول قسط من الراحة. حسن لنتهي الأمر! سوف يصل هذا القطار غداً إلى وادي حلفا، وسوف تكون المركب في انتظارنا، وسوف نصل إلى أسوان صباح اليوم التالي وهو يوم عيد الفطر. كنا غاية في السعادة، بدا أن كل شيء سار في فلكه المعهود، ولم تكن نضع في الحسبان ما قد يخفيه لنا القطار من مفاجأة!

عدنا مرة أخرى إلى أماكننا، كل ابن ولدي حلفا المسافرين معنا قد صعد على المقاعد ليبحث وسط أمتعته عن راديو كاسيت ضخم، وضع شريطاً للموسيقى السودانية، أخذنا نهتر مع الإيقاع وننتبعه بأذرعنا. ظهرت في الطرقة



## وحدة الفن السويدي

مجموعة من الفنانين خلف مجموعة من الموسيقيين الذين يعزفون. الغد والعود الذي كان صغيراً ومتهالكاً، ذابوا وسط الصيحات، ظللنا نحن نرقص، انضم إلينا الأطفال، جلس إلى جانبي الطفل الذي يرتدي القبعة، أما الطفل الأثيوبي فقد ظل في الوسط وكأنه يقود تلك المجموعة التي هي في حركة دائمة. أخذت الحجارة تضعف، وأخذ صوت الموسيقى كأنه يحتضر. عاد الموسيقيون للظهور وجلسنا جميعاً في ديوان العربية، كنا أكثر من اثني عشر، كل عازف العود ينتدب بأغاني من أغاني بلده وكان الجميع يتابعونه دفعة واحدة وتتأغم حركة أجسادهم مع الموسيقى.

وصلنا على هذا الحال إلى "أبو حامد" في وقت متأخر، ربما نتوقف ساعتين؛ من هنا تركنا النيل وراعى حتى وادي حلفا، سوف نعبث لرعيانة كيلو متر في الصحراء الشرقية في خط مستقيم، بعيداً عن الجنادل وعن "بطن الحجارة" التي اتخذها التجار دوماً وهم قادمون من مصر ابتداءً من أبو سمبل حتى قوش، وهم رجال المناجم الذين كانوا يستخلصون الذهب في الصحراء والجيش الغازية والمكتشفون للقمامة.

ومن أمثال هؤلاء اثنان من برينوريا أرسن بهم من روما الإمبراطور نيرون بحثاً عن منابع النيل، وبعد أن تجسسوا في مروي وصلوا إلى بحيرات "السُدَّ Sudd وعرفوا البحيرات التي ينبع منها النهر. كما جاء المكتشفون خلال القرن التاسع عشر إلى وسط السودان من خلال هذا الطريق الصحراوي، سيراً على الأقدام ثمانية أيام أو يمتطون سُمَّ الجمال. فكرت في الجنرال كيتشنر وفي مغامرته الحربية وهو يتقدم بجيش الكولونيالي من الشمال إلى الجنوب، من مصر، بينما يأمر بوضع تلكات خط المسكك الحديدية في الصحراء. كان يتقدم نحو هدفه وكأنه على سجادة يمشي فوقها القطار حتى استولى على الخرطوم من جديد وانتقم من الهزيمة الموحجة التي كالتها المهدي للبريطانيين.

كانت بلدة "أبو حامد" كبيرة، منازلها من الطوب اللبن وبعض الحدائق إلى جوار القصبان، وهناك سوق صغير في ميدان وأربعة شوارع. كان الظلام مخيماً اللهم إلا من بعض اللمبات المضاءة، كان للبعض يضع على الأرض مصابيح الكيروسين، هناك بعض الفرش عليه بضائع، ولما كن ليبيع التمر اللذيذ، والكثير من النساء وأمامهن سجاجيد مفروشة، يقمن بتقديم الشاي للمسافرين، كان كل ركاب القطار قد نزلوا وأخذوا يتجولون ويتسمون الهواء المنض خلال الليل. جلسنا على إحدى السجاجيد، اختفى يحيى وهو يبحث جاهداً عن آخر مشتريات العيد. دلفت أنا وبير إلى الشوارع المظلمة، وجدنا أن نصف ركاب القطار جالسون تحت الأشجار في حلقات كبيرة يتناولون المرطبات ويتحدثون. كان بعض الركاب يشرب الشيشة إلى جوار بعض الأعيان.

وأخيراً صدرت إشارة الرحيل فتحركنا جميعاً نحو الرصيف؛ صعدت القطار ودخلت المرحاض وتسميت حذري القديم، كان المرحاض عبارة عن فتحة مثل الفتحات التي عندما تطل منها ترى القصبان وهي تمر بسرعة. وكانت النافذة المفتوحة تقوم بدور التهوية، إضافة إلى بركة مياه صغيرة في حالة حركة دائمة؛ كنا قد اشترينا حجارة وانتظرنا وصول الموسيقيين وصاحب الراديو كاسيت، كانت الليلة موحشة وكان القطار قد دخل نفقاً مجهولاً، لا نرى شيئاً خارج للقطار، فلا توجد قرى حتى وادي حلقاء لم يكد ينتصف الليل، لكن طرفة العربة كانت مليئة بالنيام، يتمددون فوق الكرتون تحت ضوء لمبات السقف، تم إزال الشيش ماعداً شباكتنا. أخذنا تغني جميعاً بصوت واحد، وقد جلس الأطفال على الأرض وتراحم الباقون وأخذوا يصفقون تصفيقاً إيقاعياً. وبعد هنيهة، توقف القطار من جديد، وسط الظلام، والظلام، كنا عند للنقطة عشرة على بعد عشرين كيلو متراً من "أبو حامد" رأينا فقط خزاناً مرتفعاً للمياه وكشكاً زجاجياً في الأعلى ومبتئين شبه

### رحلة إلى الصحراء

مهجورين، وما بقي في الصحراء، التي تاهت وسط الظلام الذي لا قرار له. قفزنا إلى الرمال، لم يكن هناك ضوء اللهم إلا ما ينفذ من النوافذ المغلقة، الأمر الذي ساعدنا على السير دون الاستخدام بشيء، إلى جوار العربات. كان هناك الكثير من الناس يمشون تلقحهم رياح باردة وشديدة.

أخذ الوقت يمضي، وشيئاً فشيئاً أخذت الأقواء تتأفل للكهنات، للقطار عطلان! القاطرة مطفأة، تاهت في عتمة الظلام، كانت مقدمة القطار قد تاهت في الظلام، كانت العربات وحدها مضاءة، هي عبارة عن نودة من الضوء، ومصباحاً وسط الظلام، كان الناس هادئين، نادى الأمهات على الصغار الذي هزولوا نحوهم، وأخذت الدواوين تتطفئ، وبعد عدة ساعات من الذهاب والمجيء لم يكن الأمر قد اتضح بعد؛ يبدو أن حساباتنا لن تتم ولا مناص، تلقى المسافرون الأمر وكأن شيئاً لم يكن، ولكن ربما في الصباح. لكننا سوف نكون قد فقدنا المركب؟ المركب عادة ما ينتظر ذالها بعض المتقلسفين.

هذه القطارات ترجع إلى أيام الإنجليز - كانوا يقولون - وهي قديمة لدرجة أنه من المستحيل الحصول على قطع غيار، نقوم نحن بتصنيعها، ومن غير المعتاد أن تكون مثل الأصلية. وبالفعل فإن امتداد القضبان على المسامير والقماط الكبيرة، إضافة إلى قطع أخرى ضخمة تبدو أنها من ماكينات، كانت قطع الحديد هذه تبدو سوداء فوق للكتبان، إنها مقابر القطع الملقاة على الأرض. فكمن من المئات منها مطمورة في الرمال؟

ابتعدت عدة أمتار في العتمة، جلست على الأرض، وأنا أموت من البرد، تاهت نظراتي في ضوء النجوم التي تبلغ الآلاف وتضيئ القبة السماوية، كان هذا المشهد ينشر محره الغامض منذ فجر الزمان، إنه سحر يكاد يطلق بي في الفضاء. موجود منذ ملايين السنين ولازلنا قادرين على رؤيته في هذه اللحظة الوجيزة التي أتاحت لنا لنستمتع بالحياة. إنها مصائر ضوء تتلألأ

وتخترق العيون بشعاعها. ما الذي تريد أن تقول لي في هذه الصحراء؟ كنت أطلب منها دائماً شيئاً ما وكأنتي أتحاور معها وأن تنقل لي شيئاً من عوالمها.

كانت الليلة طويلة، انتقلنا إلى الجانب الآخر من القطار تنقي سرعة الرياح لكنه كان جلياً أكثر عذمة. لنطفأ الضوء في كافة الدواوين. وضعنا الراديو كاسيت على الأرض وجلسنا في حلقة، أتى بعضهم بالشاي واقترب منا جندي الشيعة، رفعنا صوت الكاسيت الذي أخذ يلف الجو بالإيقاع الشرقي، أمام هذا الإيقاع رأيت ذلك الرجل القوي البنية يدهض وهو يحمل طفله على ذراعيه ويطل من النافذة، ثم يخرج إلى الطرقة. لم يتقوه بشيء ولا حتى بصيحة صمت! كان كل شيء من الإيقاعات مسموحاً. كنا وسط اللاتشيء وكان الزمن مختلفاً. نهضنا ورقصنا على وقع الموسيقى النوبية، وأخذنا نتمايل على وقعها، نرفع أكفاننا ونتحرك في دائرة، كانت الأغاني تملأ الليل بالأمل وعودة اللقاء. كلنا في مركب واحد في مكان لا يراه أحد وسط الصحراء الشاسعة.

انقضى وقت بينما كنت أرقص أنا ويحيى، وبعد ذلك ظللت وحدي، كانت الموسيقى قد نفدت إلى جسدي، واصلت الرقص على الإيقاع النوبي للعنب مثلاً فعلت ذلك كثيراً في أسوان والقاهرة بينما بعض الرجال يراقبونني وهم جالسون على الأرض. واصلت الرقص، وفي النهاية توقفت الموسيقى وذهب الكثيرون، جلست بالقرب من الجندي الذي قنم لي الشيعة بابتسامة عريضة، براقوا! قال لي، كأنك نوبي!.

جلس آخرون وصلوا للتو، كان أحدهم سودانياً بشرته قمحية، ذا حيوية وقوة، ربما كان من العسكر، باغتني بغيت قائلاً: خواجه! أين أسرتك؟، فأجبت يهدوء؛ في أسبانيا. كنت أشعر بتوع من الاحتقار الذي من الصعب أن يدليه هذا الغريب؛ كان يتحدث بسرعة وكان يرفضني دون أن يمرر الشيعة عدد دوري؛ أما الجندي فكان على العكس، إذ كانت نظراته إلي كأنها تقول صبراً!،

### رحلة إلى السودان

من أي مكان خرج علينا هذا المخلوق؟ لم يكن نوبياً، ويبدو أنه لم يكن يرققه أن يرى أجنبياً يستطيع للتجارب مع أنغام موسيقى تلك للشعوب. ومن المؤكد أنه لم يرقص أبداً على هذه الأنغام؛ خولجة! قالها من جديد، ماذا، هل أنت بخير؟ تجاهلته تماماً وواصلت تخزين القنبشة.

كان للناس ثياباً، رأيت اليابا (الأب) وهو يحمل الصغير على صدره وقد ناما في الممشى الذي كان ممتلئاً عن آخره، كذلك الأمر بالنسبة لإن العمومة الطويل الجاد ممداً بكل هذه القلمة للطويلة، أما الإنجليزي، الأكثر المشاحب اللون، فقد خرج مسرعاً في طريق للمرحاض، ابتسم قليلاً، كان وجهه ملوفاً، فتحت اللبوان ولمحت في الظلمة مشهداً غير محيب. كان ابن حلفا ممداً على الأرض أما يحيى ويبر فكانا يتقاسمان المقعد للكنبة في الجهة اليمنى إلى جوار الحائط، كان يحيى نائماً كأنه أمير، بينما يبر يفرلق بين العين والآخر فوق ابن حلفا. أما بالنسبة لي فكان الأمر أكثر صعوبة، إذ كان ابن العم للممين يشغل الكنبه الأخرى بالكامل.

جلست في للركن الخالص بي، كان يبحث عن مخذة وعندما جلست وضع رأسه على فخذي. كانت تنتظرني ليلة قضيتها جالساً دون نوم؛ وكما كنت مستعداً لهذا الموقف حاولت اتخاذ وضع أكروباتي وأرحت ذراعي ورأسي على كرشه، هذا الوضع كان أفضل من السابق، ومن حين لآخر كان الوضع غير المريح يجبرني على تغيير الوضع، وفي إحدى هذه المرات، لمحتى البدن وهو يكاد يفتح عينيه، ف شعر بالمفاجأة وولى الأديار، نمت وحدي على الكنبه وأنا أشعر بالراحة للمهمة التي قمت بها. اعتقد أن يبر كان يرمقني بينما كان يتماسك في موضعه، معجباً بدهائي.

أشرقت شمس اليوم التالي علينا ونحن في موضعنا، لكننا أكثر عزلة عن ذي قبل، ففي الرابعة فجراً وصلت قاطرة تسير ببطء وسحبت قاطرتنا.

قصّر علينا بير هذا عندما وقع من على الكعبة فأفاق وخرج يتمشي خارج القطار ورأى القاطرين وهما يتبعدان، لم تثيق إلا العربات وسط هذا السهل الصحراوي؛ الحمد لله أن المطعم لازال به بعض الاحتياطي من الطعام، كان الناس يسبرون ويجلسون في مجموعات، ويبحثون عن الظل أينما وجدوه، بينما كان الأطفال يجرون هنا وهناك. انتشرت الشائعات، أغلبها تتحدث عن تأخير يمتد لأربع أو خمس ساعات، أي منتصف النهار، بينما تقول الشائعات الأخرى إننا لن نغادر المكان قبل الثالثة أو الرابعة بعد الظهر، ويرى المتشائمون أننا سنقضي اليوم بطوله. لم يحجج أحد، ولا حتى صيحة غضب، إنه قانون الحياة، كان قطار كينشتر عطلاناً ومع هذا فقد كان أفضل قطار موجود.

في البداية أخذنا نتمشي سوياً، وبعد ذلك كل حسب هواه، جلسنا في المطعم، وتحدثنا مع الناس، ولم يكن هناك طريق لسداد ثمن المرطبات، كانوا يدعوننا دائماً، كنا نبحث عن نتفة من الظل نقينا من وهج الشمس الحارق، انتهى بي الأمر على القضبان الساخنة في المقدمة تحت أول عربة في المقدمة، كانوا هناك يلعبون السجعة ذات الحفر والخطوط الثلاثة. كان الانتظار طويلاً جداً. يا له من موقف عرقنا كل شيء في المكان بما في ذلك حبات الرمال، لكن لم تظهر القاهرة بعد، وبعد فترة جلست تحت ظل شجيرة، كان إلى جانبي لثان من الخوارج يبدو شكلهم مألوفاً عندي؛ كنا قد رأيناهم في الخرطوم، في السوق، كنا من الكنديين، وقد استمرت رحلتهم شهوراً، كانوا يقومون بجولة حول العالم، في كل بلد ثلاثة أيام.

جلس إلى جوارني أحد المهاجرين المصريين، كان قائماً من السعودية. هل لازال أصحاب الأعمال السعوديين يسيئون معاملة المصريين؟ نعم، لكن لنا أمر ونحتاج أن نرسل لها بالمال، ليس هناك بديل. فأوربا مخلقة أمام وجوهنا بالضبة والمفتاح، أما أمريكا فهي بعيدة جداً لا يصل إلا القليل إلى تلك الأماكن

## رحلة إلى السودان

رغم الفيزيات المضروبة وبعض الحيل الأخرى، أما الذين يلقون بأنفسهم في طريق آخر فهم الشبان، الذين يقامرون بكل شيء حتى الموت، فهو عندهم أفضل من حياة بلا مستقبل أو أمل. ففي السعودية لا نعاني من العداء للإسلام ولا نتعرض للموت عندما نحاول السفر.

ظل الأفق صافياً؛ وإلى جوار الشجرة رسمت خطوطاً هندسية فوق الرمال، إنه نوع من الأشكال التي تعطي للطاقة؛ تعلمته في Rei-ki ويرجع للرسم في أصوله إلى ممارسات المريدن القديمة للغاية. نعم، هذا الرسم كان مفيداً في الشفاء عن بعد، ويمكن أن يكون مفيداً الآن؛ رسمت إلى جواره - على الرمل - ساعة، محدداً ساعة افتراضية للوصول، وهي ساعة أو وقت مثالي في مثل هذه اللحظة من اليوم، الثالثة والرابعة، أي خلال ساعتين، ركزت طاقتي الذهنية على تلك الصورة؛ وفي الوقت ذاته، كان الوقت وكأنه مصر على عدم الفوات في هذا الأفق الحار الذي لا نهاية له، مثله مثل انتظار. نعرف أن للصدف كثيراً ما تتخلل حياتنا، وقد جعلت القاطرة تظهر في الثالثة وخمس دقائق بعد الظهور، مرت تحتال أمامنا. ذهبنا جميعاً لنرى كيف تشبك الخطاف في العربات. كان هناك رجل طاعن في السن، استند إلى مقدمة العربة الأمامية بين الإكصدمات، كانت القاطرة واقفة على بعد مائة متر، أخذت تتحرك وتتلوى، وتكبر ثم عشقت في للعربة محدثة صوتاً عالياً ناجماً عن وقع الصدمة التي انتقلت إلى باقي العربات. قفز الرجل في للهواء وهو عازم على أن تفتته هذه الصدمة بينما قام بعملية شبك الخطاف. يمكننا أن نرحل، ها هو القطار أصبح له قاطرة؛ صعدنا ونحن سعداء وسار القطار من جديد، وها نحن وقفنا ثماني عشرة ساعة طويلة.

جلسنا في الديوان ونحن نشعر بالحيوية، كان أبناء العمومة يضحكون ويتبادلون القهقهات، ويتحدثون إلينا، إنني أحبة كثيراً فهو أفضل أصدقائي - كان

المسمين يقول - لكنه جاد بشكل يزيد عن الحدّ كان يحيى يتحدث إلى ابن وادي حلفاء، كان عائداً إلى المنزل لقضاء أجازة عيد الفطر. ذهب بير ليتحدث إلى ذلك الفتى الإنجليزي الذي كان يفيد من أجازة لعام كامل للقيام بجولة في أحشاء الإمبراطورية " من كاب تاون إلى القاهرة"، لقد رحل بدأ رحلته من مدينة كيب تاون التي لا تنسى، وعبر جنوب أفريقيا ومر بزمبابوي وزامبيا وتنزانيا وكينيا وإثيوبيا؛ يا لها من رحلة، وحيداً وبدون أن يتحدث مع أحد، يبدو منهكاً وكانت معنوياته منخفضة بعض الشيء.

في حوالي الخامسة، ذهبت أنا وبير نحو المطعم؛ للوجوه نفسها إضافة إلى عدد من الأطفال، كان قليلاً، يكاد يكفي بالكاد، كانت الصحراء تمضي من النافذة على وقع عجلات القطار على القضبان كانت هناك بعض الطرق تسير موازية لنا في الرمال، وتوقفاً من جديد بعد فترة، كانت أمامنا بقايا رصيف والكثير من الحديد المتناثر وبعض الأعمدة وغيرها من القباب، كانت العلامة رقم "6" وساعة الإقطار في آخر يوم من رمضان. فغداً عيد الفطر. كنا قد شهدنا هذا للصنف من القباب في كل من الخرطوم وعطبرة، كانت عبارة عن منازل صغيرة متلاصقة، لها أحواش لموظفي السكك الحديدية، يطلقون عليها Catieh "قاطع"، هذا شاهد جميل تركه الإنجليز والمصريون. نزل الناس جميعاً، عند الباب كان والد الطفلين يحاول أن يساعدهما للمير وسط الناس والسلام، كنت قد نزلت فمدت له ذراعي فأعطاني الارضيعة، فوضعتها على صدري وأنا أهدده بينما يتعرف على بنظرته، كان يبدو سعيداً وكان يضحك. اختفى الأب وبقيت وحدي أتمشى بالطفل بينما الآخرون يأخذون المياه من الأزيلار، لايد أن نبع نينبة Teniba قريب من هنا، إنه منعزل تحت الصخرة، وهو نبع مشهور بمياهه العذبة والباردة، وهو النبع الوحيد في هذه الصحراء اللامتناهية. الحمد لله على أن لجمال تشرب يوماً من المياه العذبة والمالحة في ينابيع مورات Murati المعروفة.



## رحلة إلى السموات

إلى جوار العربات كان كل ركاب القطار يفرشون الحصائر في حلقات، حيث الأمر والأصدقاء يتناولون الإفطار. وبعد هنيهة وجدت بعض الرجال يحملون زجاجات، كانوا يختفون وراء الأطلال، فأخذت أنا أيضاً زجاجتي واتجهت نحو الجدران البعيدة، وبعد الوضوء والتطهر جففت يدي بالرمال؛ سرت في سهل واسع، هناك آثار نعاج، وصمت وحجارة. فكرت في الذئاب التي يلقى وجودها البدر في الصحراء عندما يحل الظلام. هناك أعمدة التليفون الممتدة إلى جوار الطريق، كانت القباب تبدو كأنها مزخرفة من الأرابيسك الجميل فوق الشمس التي توشك على المغيب. هناك قرص أحمر، وسماء صافية وهواء نقي ورياح، رسمت بأصابعي ذلك الشكل الهندسي السحري ووضعت يدي، وتركت بصمتها على الرمل، ضغطت من جديد، رأيت السماء برتقالية وبنفسجية، وتبعد الأعمدة والصحراء لا حدود لها، كنت أريد أن أشعر بتلك الأرض، وألا أنساها أبداً وأحسها معي.

عدت صوب القطار مرة أخرى؛ أثارني إحدى عربات النصف نقل التراب وراءها وهي تمضي في الصحراء، كانت هي الأخرى تحاول الوصول إلى حلفاء. إلى جوار القطار أخذ الرجال يصلون، عندما انتهى كل من تناول إفطاره؛ أما أبناء الإمبراطورية فكانت مجموعة وحدها دون أن تكون معنا أو مع الآخرين. جلست مع بير ويحيى حيث كنا مع مجموعة من الشبان اللطفاء، كان هناك أحد أبناء الكونغو القوي البنية، كان متجهاً إلى شيكاغو. كان ملاكماً سابقاً، وكان له ابن عم هناك وكان يريد أن يكسب مالاً من خلال الملاكمة. أما الباقون فسوف يبقون في حلفاء. تحرك القطار عندما أظلم الليل، جلسنا كل في مقعده، وأخذنا نصفق على إيقاع موسيقى الراديو كاسيت، عاد الموسيقيون إلى الديوان، لكن يقودهم - هذه المرة - شاب عربي، يرتدي جلابية سعودية جميلة. أفسحنا لبعضنا في الجلسة وواصلنا الغناء، رقصنا على الأرض على إيقاع النف

## رحلة إلى السودان

والأصوات، كان الجو يزداد سخونة وحرارة، وفي لحظة رأيت نفسي خارج المكان، أسير وسط النوم على الأرض، كان الأب مع الصغير، ترحل ليترك لنا فسحة للمرور. تقدمنا مهرولين بينما ندخل الدواوين المضاءة. كنا نرقص أمام المسافرين على إيقاع الموسيقى. النساء يضحكن ويصفقن.

وصلنا إلى مقدمة القطر، دخلنا ديواناً خالياً مع الموسيقيين، بينما بقي الآخرون في الطرقة وهم يرقصون. كنا أكثر من عشرين فرداً، لم أكن أرى أصدقائي، لابد نكسوا. أما ذاك فهو لي، العريس! العريس! كان الفتى العربي يصبح بينما يحفزني للرقص على هذه الأنغام الإيقاعية؛ كنت أفعل ما في استطاعتي، بين السير على إيقاع الموسيقى واهتزاز عربة القطر أثناء السير، كانت الطرقة كلها تنتظر إلى نظرات فرحة وأكف تصفق وابتسامات وصيحات. كنت أتحرك متمايلاً حتى مد الفتى العربي يده إلى وسطي وبذلك استعدت التوازن والإحساس بوجود صديق. العريس، كان يصبح بهذه الكلمة، تحولت تلك الاحتفالية وكأنها كذلك الخاصة بوداع حياة العزوبية، والليلة السابقة على الزفاف رافقتي أصدقائي في هذا الصخب حتى يعلم القطر ومن فيه بتغير الوضع.

خرجنا جميعاً عبر الطرقة نرقص رقصة "الأراغيد" aragid، كان حامل الدف في المقدمة، مررنا بالدرجة الأولى، أخذنا نتجاوز العقبات في الممرات وندخل بعض الدواوين الأخرى، وكانت الدواوين التي بها النساء الأكثر مرحاً، كنت في للوسط، أرقص. كان الإحساس يراني من خلال صورة العجر وهم يرتدون ملابسهم الاحتفالية. كنت قد تمتلئ توري وهو دور العريس ولن أخذلهم، كنت أرقص لكل من في القطر رقصة الوداع. مررنا بالديوان الذي نحن فيه، فتحته يحدوني بعض الأمل. لكن خاب ظني فكلنا الاثنين نائسان، مررنا بعربة المطعم، ثم انتقلنا إلى الدرجة الثانية، وهنا أوقفني الفتى قائد

## رحلة إلى السويدان

المجموعة أمام ديوان رجال الشرطة. حاولت جاهداً لأن الحركات كانت على الإيقاع النوبي؛ ومن بداية القطار حتى نهايته، ننقل من عربة إلى أخرى نرقص في طابور عبر الطرقات، كنا نتخطى هؤلاء الذين كانوا ينامون على الأرض ونحاول إيقاظهم وإيقاظ من في داخل الدواب.

وصلنا على عربات تكاد تكون خربة ليس فيها إلى القليل من الضوء؛ هناك عشرات من الركاب نائمين على كراسي ممتدة من الخشب؛ كنا في الدرجة الثالثة: العريس، العريس، كان يصيح قائد الأوركسترا: كنا نخطو بين السياج المتعددة في الطرقة الرئيسية، وواصل الطريق حتى نهاية القطار. كان الركاب يفسحون المكان، وينهض بعضهم بعض الشيء؛ يضحكون، يمتد يداً ورقصة نوبية في هذا المشهد البسيط الذي يقع في نهاية القطار النائمة ركابه وتحت ضوء لمبة واحدة. كنت أهتم على إقذاع الدفء كان كل من في العربة يغنون ويتميلون يصفقون تصفيقا إيقاعيا؛ لم أستطع التفكير. كنت أتحرك كأن بي من، على إيقاع الموسيقى، والعود والأغاني، وبعد بعض الوقت أخذت نعود أبدأ، أي إلى مقدمة القطار. ودعت ذلك الجمهور الرفيق الذي يغالبه النعاس. انتقلنا من الدرجة الثالثة إلى الثانية ثم المطعم ثم الدرجة الأولى. وصلت من جديد إلى نقطة الانطلاق، رافقوني حتى الديوان؛ ووسط التصفيق والغناء أهدوني باقة من زهور البلاستيك بها لمبة، معلنين أنني عريس للنيل.

استيقظ يحيى وبير وهما مفروغان، كنت أحاول إعادة الترميم في ذاكرتي وأشرح لهم ما حدثنا معنى، لكنني أدركت أن محاولتي غير مجدية من خلال نظراتهما غير المجبرة؛ لم يكونا يعرفان شيئاً عن تحولني إلى عريس؛ هذا في القطار مسأل الغاية أريد ألا ينتهي الرحلة! كنت أصبح فيهما كان بير ويحيى ينظرون إليّ في صمت، وهما شبه نائمين، لم يدركا شيئاً. كج الساعة؟ كانا نياماً لأن، كنت أريد إلقاء النوم لبعض الوقت. هذا مستحيل؛ اختفيت مرة أخرى

وقد جذبتني المجموعة، كان المطعم عن آخره بالناس، انكت عراً المجموعة كان الجميع يدعوني للجلوس معه. العريس لا يمكن أن ينام في الليلة الأخيرة - كانوا يقولون لي.

لم يتم تقديم أي شيء، كنت على وشك السقوط من العطش والتعاس، لكن العريس له التزامات، جلست مع ذلك الظريف من أبناء الكونغو ومع اريتري واثنين من النوبيين. كانوا يريدون أن يتعلموا لعبة "الثلاثة بشرطة" *tres en raya* (السيجة الثلاثية) حيث شهدوا بير ويحيى يلعبانها. بحثنا عن أغطية زجاجات المتلججات على الأرض وأخذوا يرسمون خطوطاً على المائدة؛ أغطية للبيسي ضد أغطية البرتقال، لعبت معهم بعض المباريات، ثم لعبوها هم وحدهم، كانت سعائهم تتبع من القلب، مهتمون بالأغطية التي في حوزة اللاعب الضد؛ كنت أتلألأ أيديهم وأصابعهم الطويلة ورسم الأيدي الناعم وحركاتهم الرشيقة وهم يلتقطون الأغطية وأصواتهم العذبة. كانوا كائنات شديدة الرقة وغير عادية.

كان الوصول إلى وادي حلفا نزولاً إلى الهاوية؛ واقع الأمر هو العودة. الشنط والأمتعة والأطفال للنائمون على الأترع وآباء يصرعون الخطأ، كان الوقت متأخراً، الظلام مخيم والجو بارد. وصل بنا أتوبيس إلى القرية، كان فندق "النيل" خاوياً من النزلاء وفي فندق "الكارافانسيول" كانت الغرف مفتوحة، وصحون المبنى مقفلة من النزلاء، والأسرة مرتبة على الرمال، وصلنا إلى عشة بيع الأسماك، أما الباقي فكان مغلقاً. كانت ليلة العيد. لم يكن هناك أحد، كل ذهب إلى منزله، إنه سيكون رائع، نمنا نون أن ندري.

لم يكن هناك أحد في الصباح، والقطار خاوٍ على عروشه والمركب كذلك. برافو، المركب في انتظارنا! لم يعرف أحد كيفية إنهاء الإجراءات هل في المخفر أو على ظهر المركب، تجولنا كثيراً في تلك البلدة الموحشة، تلفحنا

## رحلة إلى السودان

حرارة الشمس؛ انتظرنا لساعات أمام شباك عليه الكثير من الناس؛ كل من بقي، ذهبنا إلى مخفر الشرطة، وجدنا محلين في السوق لكن محل البخور الذي تفوح منه الروائح، حيث كنا نود الشراء، كان مغلقاً.

في الفندق لم يكن مع يحيى نقود تكفي لنفع حساب الفندق، كم معك؟ خذ، كل ما معي من الدنانير، قمنا بتحميل الأمتعة وخاصة ما ثقل وزنه في سيارة نصف نقل، ركبت أنا وبيير، يا لنا من متذج، لن نتعلم أيدياً، ظهر الخوارج الثلاثة الذين كانوا في القطار. سألوا عن السعر وقرروا السير على الأقدام صوب المركب. هؤلاء مجائنين، يا لهم من بخلاء! في هذا الحرّ ولتوفير بعض الدنانير قرروا للسير مسافة خمسة كيلو مترات! وصل يحيى. سأل: هل معك المزيد من النقود؟ لكنني أعطيتك كل ما معي! نعم لكنني غيرته إلى جنيهات مصرية ويقول السائق إنه لا يريد إلا دنانير. مرة أخرى يعود شبح المال ليطاردنا حتى آخر لحظة، حسبت أنا وبيير المسافة الفاصلة بين البلدة والمركب، وفكرنا في المشي ونحن نحمل أمتعتنا. هذا مستحيل، وقبل أن نحتج انطلق يحيى كالسهم، وبعد هنيهة ظهر من جديد مبسماً وهو يدفع للسائق وكأنه أمير، خرجت السيارة وهي تتعافز على الأرض.

وصلنا إلى مبنى الجمارك، كان هناك العديد من سيارات نصف النقل والمسافرين. والأمتعة، عند الباب ألقوا علينا التحية. إنه سائق وادي حلفا وأحد الميكانيكيين الشبان، كانوا في انتظارنا. يا لها من مفاجأة! بدا الأمر وكأنه حلقة اكتملت أركانها وأصبحنا في بداية الرحلة ونهايتها. إنها نقطة الالتقاء. جلسنا في الداخل وقتاً طويلاً هناك عشرات من الشنت المتناثرة، وأناس ذاهيون هنا وهناك؛ جرت الإجراءات بسرعة بفضل جهود يحيى. ثم فتح كافة الأمتعة، كانوا قد خففوا الإجراءات واتمم رجال البوليس بالرقعة، وعندما أدرك أبناء الإمبراطورية أننا لنهينا إجراءاتنا التصفوا بنا، رغم أنهم لم يعيرونا اهتماماً قبل

ذلك. يبدوون وكأنهم عينة واحدة، أي أنهم يغدون من الغرباء دون أن يكون هناك تبادل أو مقابل.

جرت أنا ويحيى العديد من الأمتعة خارج السيارة؛ الحمد لله أن كانت هناك عربة تذهب بنا إلى المركب، وملا عن بير؟ لقد ذهب دون أن ينتظرنا، دخلنا كيفما اتفق وصعدنا إلى الكبائن. كان يحيى متعباً، ترك جوالاً في الممر، لم يتمكن من ذلك بسبب السلام، وبقي الجوال هناك حتى اليوم التالي. كان بير في غلبة السعادة، حسن، وأخيراً سوف نكون وحديا كنت مع يحيى في الكبينة، صعدت إلى السرير العلوي ونظرت إلى البحيرة.

كان الدخول إلى المركب بداية جديدة، فهناك واقع جديد فرض علينا، لدرجة أن المركب المصري بدا حديثاً ونظيفاً للغاية، في التطبيق للعلوي لم يكن هناك أحد إلا نحن و "الحاجويات" haguayat الآخرين، وللأفريقي خلاء، وكذلك سطح المركب، كان العدد قليل جداً، وكان أغلب المسافرين في الدرجة الثالثة. هناك بعض الأمر التي كانت تزيد مواصلة الرحلة إلى مصر، هؤلاء الذين يريدون الوصول إلى أمريكا، من أصدقائنا في القطار، كلهم انحسروا في التطبيق السفلي، في الكبائن الجماعية؛ لقد انتقلنا نقطة كبيرة دون سابق إنذار، كاد فيها أن يذوب كل ما تراكم من خبرات على مدى الأيام السابقة.

صعد الميكانيكي لوداعنا بانتسامته العذبة ونظراته المستسلمة؛ قال أنا بأن البروفيسور في الخارج لكن لم يسمحوا له بالوصول إلى المركب بسبب رجال الجمارك. شعرنا بالأسى، كم كنا نود أن نودعه ونشكره على اهتمامه ونسأله عما حدث في رحلة العودة من دنقلة، تحركت المركب بعد أن انتصف اليوم تحت وهج الشمس. كانت للرحلة رحلة عودة ووصول، وشيئاً فشيئاً أخذت ملامح وادي حلفا تتعد الجبال بنية اللون وكذلك السهول، كان ما يبتعد هو السودان، وخلفت المياه الزرقاء لبحيرة ناصر المياه الرائعة للبحيرة النوبية.

### رحلة إلى السودان

وبعد ساعات طويلة، شهدنا عن بعد معابد أبو سمبل، تبدو صغيرة، كانت الليلة ذات سماء مليئة بالنجوم المслطة، كانت المركب تتقدم وتتصالب صامئة في هذه الكتلة المعتمة، كنا نرى بعض الضوء من بعيد، إنها توشكا، كن المطعم مرتباً ونظيفاً، للمساء ممتاز، جلس إلى جوارنا الولد الجاد وأمرته، كانت الأم الجميلة تتحدث على يحيى، كانت تعرف أننا أوربيون وأن الرجل الطويل القمحي كان قد احتضن صغيرها بين ذراعيه، أما الإبن الأكبر الذي بضع القبة فقد كان يداعبنا وكنا نغنى به، كانت تشعر بالامتنان.

انقلنا إلى داخل المركب، وفي الطابق السفلي رأينا لصديقنا، أصدقاء القطار، وهم متعبون وصامتون، هناك مقاعد متراكمة من الخشب ولمبات والكثير من البرد؛ شعرت برعشة عندما رأيت نفسي بعيداً عن هؤلاء الناس، دون أن أتمكن من فعل أي شيء للحيلولة دون ذلك، مررت متباعدة، لم أزد النظر، حتى لا أهتز من الدخول؛ يا كم لنا غيبي، ولم ألق بالتحية، لم أفهم بعد هذا الممسلك للغبي من جانبي، وفي اليوم التالي كانت وجوههم لا تحمل أي تعبير وكأنها تتكبرني بمسلكي القطة، فقد رأوا ذلك على أنه إهانة، أو أنه نوع من السلوك غير المهذب، للذي لا يليق بأي مسلم أو بأي إنسان لا يفهم فحوى ثقافتهم. فلما في البداية والنهاية حاجولية haguaya. شعرت بالحزن، وأنتي فقدت في ذلك المركب تلك الصلة الحيوية التي أقمتها مع هذا البلد الفريد. شعرت أن لقب "عريس النيل" قد زال عني بهذه الزلّة وذلك عندما تركت السودان. شعرت أن على أن أتعلم الكثير بعد.

كان بير يبدو مفعماً بالحياة في الكبانن. أشعر بأنني تحررت! كان كلّه كابوس، كان ميئاً من الخوف فقد قرأ الكثير عن المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها المرء في السودان، فقد كان خائفاً من أن يحدث له شيء! علينا أن نتحدث للعمل على إيضاح بعض ما حدث أثناء الرحلة! لم يكن يحيى في وضع يسمح

له بذلك، يبدو وكأنه أرفقه للملأ، فعندما وصل إلى مصر "فصل". كنت أشعر أن بير يختار اللحظة غير المناسبة. ليس للوقت متأخراً، وربما كان من المفروض أن يتم ذلك قبل هذه اللحظة بوقت كافٍ. فالخوف المفترض لا يبرر أي شيء، فلم يكن هناك أي خوف طوال الرحلة. لكنني كنت أريد أن أستمع لما يقول؛ لقد رأيته متوتراً طوال الرحلة - قلت له - وأنا أنطق بكلماته هو. ظل صامتاً، وخرج للطريقة، واختفى.

وفي صباح اليوم التالي، تبحت شطآن النوبة السفلى تحت الضوء الأبيض؛ وفي منتصف النهار وصلنا إلى الميناء، وصلنا إلى أسوان؛ لكن المركب لم تفتح أبوابها، كان الناس يتراحمون في الطرقات، وقفوا في طوابير لاسترداد جوازات السفر، كانوا متجمعين في المطعم، كان السودانيون يتراحمون وهم عصبيون ويحتجون؛ نحن في السودان تعاملكم كأمنيين وأنتم هنا تعاملوننا كحيوانات! كانوا يقولون ذلك ليحيى. والحق معهم. كان الفرق شاسعاً؛ كان يحيى يحتج هو الآخر على تصرفات بوليس الحدود. هناك القليل من الحاجويات haguayat دون مشاكل في التأشيرات، ليس من العدل أن ينتظروا حتى يمر الجميع. مررنا، كان أصدقاؤنا ينتظرون إلينا في صمت؛ فنحن من أهل الخطوة. ودعت صديقي ومرشدي في تلك الليلة التي رقصنا فيها وتمنيت له حظاً سعيداً، وودعت ذلك الطفل ذي القبعة الذي كان يقول: Yeahh! غائياً. فقد انتهت بالهبة له مرحلة سحرية من مراحل الرحلة.

أتى أبناء أخوات يحيى باينته جيبي في السيارة، احتضنها والدها بشوق، بابا! بابا! انتقلنا إلى الشاطئ الغربي ووصلنا إلى غرب سهيل من خلال الصحراء، كان هناك ضوء آخر أقل ميلاً إلى اللون الذهبي مما كان في السودان، هناك الكثير من الجلبة والناس والمرح وكأننا أمام عالم مختلف مجتمع الوفرة، الناس في العوارض، مجموعات من البشر، الإثارة والمقاهي والموسيقى



## رحلة إلى السودان

والرجال الذين يلعبون؛ تركنا وراء ظهورنا تلك العادات البسيطة التي عليها أبناء النيل الأوسط، وهذا الصمت الذي يلف كل شيء وكأنه حجاب سحري، نحن من جديد في قلب النوبة، لكنها النوبة المصرية التي تفيض حياة، مررنا عدة كيلو مترات بمحاذاة النهر، مررنا بالجبانة، وملعب كرة القدم والمسجد والصخور والجمال ونزلنا في الميدان الذي به دار يحيى على شاطئ النيل، لون منزله هو اللون الأبيض، لها شرفة تطل على النيل مباشرة. جلسنا في صالة ذات سقف مقبب عند الصحن الثاني. لون الحوائط من الداخل نيلي سائل للينفسجية، أما الأرض فهي من الرمال الصفراء الناعمة.

زوجته جميلة وشابة ترتدي سايل Sayal أسود مطرزة أطرافه؛ أعدت لنا طعاماً رائعاً قبل أن يخرج زوجها الهدايا التي أتي بها. أكلنا في الداخل، ففي الخارج كان الجو حاراً وكان هناك الكثيرون ممن يرتدون أقنعة السياح، لم نرهم منذ فترة. وعندما حل المساء، تمددنا على البساط في الشرفة، في صمت. أمامنا تنساب مياه النيل صامتة وملغزة، وكأنها تجر معها كل التاريخ، الكثبان والصخور السوداء والجزر والعزلات والتخيل والنساء الجالسات في الهواء المنعش في مجموعات وأطفال يجرون هنا وهناك فوق الرمال، ورجال يعرفون وقولرب تقطع النيل من شاطئ الآخر. كان هذا المشهد النوبي من المشاهد التي تصفي المسكنة على النفس. وكأنه به حياة خاصة ورعشة تدب في الهواء. وتتدف إلى أعماق المرء.

كنت أعرف تلك القرية منذ زمن طويل، منذ أن تعرفت بيحيى، كنت أذهب إلى هناك كثيراً، أعبّر النيل في القارب ليلاً وأعبّر جزيرة سهيل وأنا أسير على ضوء النجوم، حتى أصل إلى غيط عبد الله حيث تسمع من هناك صوت المياه وهي تمر بالجنل الأول، وكنا نرقص تحت ضوء القمر. أصر بير على الذهاب إلى أسوان في تلك الليلة. إنها الليلة الأخيرة. بقيت أنا مع يحيى

أنعم بسلام هذه الجلدة، وأنتسم هواء النهر العذب ومياهه الدافئة والسحر الذي يشع من ذلك الركن من التوبة السفلى، التي هي مرآة التوبة العليا التي تركناها وراءنا. أخذت أتمشى مع يحيى على الكتيبان على الشاطئ، حتى وصلنا إلى ذلك البلاج الذي يقع في منعطف صغير في طريق "بربر" كانت الصخور السوداء تبرز بقوة والمياه عميقة وصافية؛ يقولون بأنها مسكونة بالجان، جن النهر. جلسنا على الرمال بينما القرية نائمة يلغها الصمت.

أخذنا أمتعنا في الصباح، وقبل التوجه للمطار، مررنا بأسوان؛ لازال بير صامتا ومتوترا، كان يوم تصفية الحسابات، كان بير مدين لنا جميعاً وأنا متين ليحيى، راجعنا المصاريف؛ لابد من أن نقدم هدية ليحيى. - قلت له - فقد ساعدنا كثيراً وقضى شهراً كاملاً نؤمن أن يقبض مرتبة. كم! حسينا. كانت المدينة هادئة بسبب عطلة العيد، بدون سياح والمتاجر مغلقة. وأخيراً استطاع بير أن يستخدم الكروت الائتمانية (لذان) في أحد البنوك. خرجنا ومغنا زرمة كبيرة من الجنيئات، أجمعنا في الشارع؛ انتظر يا يحيى يجب أن نصفي حسابنا. خذ! قال له بير وهو يعطيه "ياكو" الأوراق المالية، هذا ما ندين لك به، إضافة إلى أجرنا لمرافقتك لنا في الرحلة كجند في مكاني، تطرقت على ذهني الصورة نفسها التي وقعت في الخرطوم، شترت؟ إننا لم نتحدث في هذا أبداً. لا يا يحيى! هذا ليس أجرنا، إنه هدية نقديتها لك ونحن شاكرين.

واستأنفنا كان بير يزيد شراء خلياً قبيحة، اختار ما أراد وذهبوا بها للتصديقات، اختفوا مرة وقت، نظرت في ساعة يحيى، بقيت ساعة وربح على إقلاع الطائرة، دخلت لإبلاغة، لم يتبق لدينا إلا وقت قليل، فقال لي: لقد انتظرتك كثيراً أثناء الرحلة! انتظر؟ فكرت، إنه لأمر غريب فلم يكن هناك شترنامج أو توقيع يجب الالتزام به، كان الأمر عوضاً مستمراً بلا توقف...

## رحلة إلى السودان

عدنا من عالم ليس به إلا ما هو حواري، مفعم بالتاريخ، عدنا من أحضان مكينة لا يتخيلها بسان، حيث الاستسلام والعوز لم ينسيا ذلك الشعب جذوره. هناك الكرم والابشامة في مواجهة الزمن الصعب. عدنا من رحلة صعبة، لكنها رحلة تتركب في أعماق المرء جنة من العذوبة، من الإيفاع البطيء، والسلام، والتناغم الذي نجهله. كانت رحلتنا واحدة أكن أحلامنا مختلفة، كنت أشعر بأنني حققت حلمي، فقد كان عبارة عن التطواف، في حلقة، في المجهول، تمكنت من لمس حلمي، ذلك الشيء الذي يطفو بين الحين والآخر، ذهبت إلى مروي ... وفي الطريق ... وجدت السودان.



"Charlo alepre con Yiaia"

شكل رقم ١

معجم

Ahbay (آباي) النيل الأزرق

Acropole: أكروبوليس بالفرنسية

Aethiopia تعني باليونانية "الوجه المحروق" أو "الأسود" هكذا كانوا يطلقون هذه التسمية، خلال العصر اليوناني الروماني، على أفريقيا الواقعة جنوب الصحراء الشرقية، أي جنوب الجندل الأول للنيل في مصر. وكانت النصوص القديمة تعرف بوجود صنفين من هؤلاء البشر يرتبطان بكسل من النوبة والسودان، الأول هو الأريترى والثاني هو أثيوبيا الحالية.

Akin (أكين) جزء من النوبة السفلى على زمن مروي

Alpha هي تسمية تطلق على بعض الموجات العقلية التي يصدرها المخ.

Aragid (أراغيد): للرقص النوبي أثناء حفلات الزواج، وهو في الأصل رقصة "قاديشا"، واتخذتها اليوم "كنوز" Kunus ورغم ذلك هؤلاء يجعلونها ذات إيقاع فيه تقليدية وبطء وكان الرقصة عبارة عن موجات تنتقل بين الرجال والنساء حيث يتعامل الجميع وهم في صف على الإيقاع. ويعتبر الرقص والموسيقى من أهم الوسائل التعبيرية للثقافة النوبية.

Aushek (أوشك): هي قبائل تمكن الصحراء الشرقية - وقد شكلت مع قبائل

Medja القوة الضاربة في الجيوش المصرية. تظهر هذه القبائل تحمل في "بردية بولاق".

باب: الجندل

العصى السحرية bastoncillos magicos: هي صغيرة من العاج عليها نقوش غريبة لحيوانات ضخمة وأشخاص عملاقة. كانت هذه العصي تستخدم خلال الدولة الوسطى في مصر على يد الشامانيين أو المبطينين.

بطن الحجر: هي تلك المنطقة للصحراوية التي تمتد بين الجندلين الثالث والرابع، ابتداء من وادي حلفا حتى سمنا وتصل إلى ما بعد ذلك. ونظراً

## رحلة إلى السودان

لوجود كميات كبيرة من الصخور وتجمعات الرمال والرياح المعاكسة فإن الإبحار فيها بالنعبة للمراكب الكبرى كان أمراً مستحيلاً، وبالتالي لم يكن هناك مناص إلا استخدام قوافل الصحراء.

Baobab: الباوباب شجرة شرقية

Beja: هي قبائل بدوية في منطقة البحر الأحمر. وربما كانت من قبائل ميدجاي Medjay، وخلال القرن الثالث الميلادي ظهر خلفاء هذه القبائل وهم بلميس Blemm yes حيث كانت تتفق مع قبائل نوبة Noba في تقديس ليزيس قبله، وكانت من الأعداء الإلذاء للرومان.

بلاد السودان: كان السودان بالتمسية لمصر "البلد الأسود" أو "بلد السود" ويشمل وادي النيل الممتد جنوباً وراء الجندل الثاني.

Caravanseraï: إنها مساكن ليواء قديمة شرقية مخصصة للرحالة والأبل، أي أنها "أحان" و"الوكالة" العربية

Catieh: هي مباني صغيرة ذات قباب، وتوجد في محطات السكك الحديدية في السودان.

Chakras: دوامة من للطاقة، وطبقاً للتقاليد الهندوسية توجد هذه في جسم الإنسان.

Clik: طقطقة تصدر من اللسان، وهناك لغات تسمى لغات كليك وهي أقدم لغات في العالم، أي لغة "سان" أو رجل الغاية في أفريقيا.

Cornack-i: مروضو الفيلة.

Dal: الجندل الثالث

Deffufa: "أطلال من الأجر" في النوبة، كانت الجبال الاصطناعية، وهي ذات طابع ديني، ترجع إلى مملكة قوش في كرمة.

Dinkas: قبائل في جنوب السودان

الجن: هو غريب مكان، يتكون من مادة أثرية غير مرئية ويمكن أن يتخذ أشكالاً مختلفة.

Dodecaschoenus: هو الإقليم الحدودي الذي أقره الرومان في النوبة السفلى في المحرمة، وهو متاخم لإمبراطورية مروي. تركه دقلديانوس خلال القرن الثالث الميلادي ليفيد به أهل Noba لوسكان نوباديا الذين استطاعوا أن يمدوا سلطانهم حتى حدود أسوان.

دنقلوي: لهجة نوبية تنتشر عند "منعطف دنقلة" وهي لهجة شديدة الشبه بلهجة "كنوز" التي تنتشر في النوبة السفلى.

الدنقلون: هم النوبيون السودانيون الذين يقطنون "المنعطف الدنقلي" ابتداء من كرمة حتى دنقلة.

أثرية: طب، طريقة علاج قديمة تقوم على الاعتقاد بأن للجسد محاط بطبقات من الطاقة غير المرئية؛ وفي الطبقة الأكثر كثافة وقرباً من الجسم تدور هناك الصراعات بين حقول القوة التي تؤدي إلى الآلام الجسدية، ويعود البؤلن إلى هذه الطبقة تُعالج عمليات الخلل في الطلقات أو الأمراض.

فاديشا: هي واحدة من لهجتين رئيسيتين تتوزع بينها اللغة النوبية. تنتشر هذه اللهجة في كوم أومبو وفي النوبة العليا في إقليم وادي حلفا والدال.

فالوكة: قارب بمجاديف، ويندرج الاسم أيضاً على المراكب، نوات الأشربة اللاتينية المستخدمة في النيل المصري.

فول: هو أحد أشهر الأطباق الشعبية في مصر والسودان.

From cape to cairo: من الكاب حتى القاهرة. كانت هذه العبارة تشير إلى

مشروع شهير يربط القارة الأفريقية ببعضها عن طريق خط السكك

الحديدية تحت الهيمنة الاستعمارية الإنجليزية.

جلابية: عبارة عن لباس فضفاض تستخدم في مصر والسودان وترجع أصولها

إلى مصر الفرعونية.

## رحلة إلى السودان

Gem-Aten: "أي من يعثر على الأسطوانة" هكذا كانوا يطلقون هذا الاسم على  
كاوا، أي إشارة إلى أنها ربما أعيد تأسيسها على يد الفرعون أمنموفيس  
الرابع - أخناتون - من تعبد إلى الإله أتون.

Giacometti: نحات إيطالي (ق 20)

Graffiti: نقوش شعبية على الحوائط.

Ghezira: جزيرة.

Cuba al-Fakir: المكان الذي يقطن فيه الصوفي.

Haguaya حاجواية - جمع حاجوايات: هم الأغراب من ذوى البشرة الشاحبة.  
هذا هو الاسم الذي كانوا يطلقونه في التوبة على المسيحيين الأقباط، وعم  
هذا الاسم ليشمل كل الأجانب، والغريب لأنه في مصر نجد لفظة  
Haguaga خواجه بينما "حاجواية" ظل محتفظاً بمعنى "العزیز،  
المحبيب".

حلقاويون: هم النوبة السودانيون الذي يقطنون وادي حلفا.

Iftar: هو إفتار رمضان، أو الإفطار.

إمام: من يوم الصلاة في المساجد. أو عند صلاة للجماعة.

In extemis: في آخر لحظة (باللاتينية).

luch Allah: إن شاء الله (لعل الله يريد).

Irens: هي مملكة نوبية في صحراء بيوضة أو جزيرة مروى، عند منعطف  
بربر - شندي.

Irtjt: إحدى أوائل الممالك في النوبة، ويرى بعض الدارسين أنها كانت تقع في  
النوبة السفلى، بينما يرى آخرون أنها في العليا، وبعد ذلك انضمت  
لواوات.

جزيرة مروى: هكذا كان اليونانيون القدامى يطلقون هذا الاسم على مملكة

مروى، فقد كانت عبارة عن شبه جزيرة متهربة، اليونانية، بين نهر عطبرة والنيل الكبير والنيل الأزرق. والكلمة اليونانية nesos كانت تعني جزيرة وشبه جزيرة، وفي كتاب "الجغرافيا" الكلاويو البطلمي (ق 2) نجد الاسم "جزيرة مروى".

جعالين: ملوك شندي.

جيب : سيارة دفع رباعي.

Comino: كمون

Kandake أو Condace: أي الملكات أو الملكات الأم، وهو لقب يطلق على العاملات المرويات حسب الإغريق، ويقال فهن أمهات الملوك، وربما سكان جزءاً من الحريم الملكي.

كف: التصفيق الإيقاعي.

Kidirnu: أي بطن الحجارة، في المسحراء النوبية بين الجندين الثالث والرابع.

Kraal: قرى باننو عبارة عن أقصص مستديرة لها أسقف من القش.

Kurus: كنوز، إحدى اللهجات المهمة في اللغة النوبية، تنتشر في النوبة السفلى، وفي إقليم أسوان ومنعطف دنقلة.

Mabruk: مبروك.

Mahas: قبائل البحر الأحمر.

المهدي: هو محمد أحمد بن عبدالله (1845 - 1885) بطل سوداني أعلن نفسه

خليفة للرسول محمد ووقف ضد الاستعمار المصري الإنجليزي عام

1881م واستولى على الخرطوم 1885م وتوفي في أم نرمان بعد ذلك

بقليل.

Makuria: هي واحدة من الممالك المسيحية التي ظهرت في النوبة السفلى

ابتداء من عام 543م عندما تحول ملوك نوباديا إلى المذهب القبطي.

وايحاء من تلك الآونة ظهرت ثلاثة ممالك مسيحية في النوبة حتى القرن



## رحلة إلى السودان

14م. النوبارية القبطية (بين الجندين الأول والثالث) وعاصمتها بلاتنة وفارس. ومملكة ماكوريا أوماكورا بين الجندين الثالث والرابع، في إقليم دنقلة، العاصمة والتي تحولت إلى الأرثوذكسية للشرقية عام 569م. ومملكة أولونيا، بين كريمة والخرطوم. وخلال القرن الثامن م. اتحدت كل من مملكة نوبانيا وماكورسيا ولكن تحت مسمى جديد هو موكورا وكانت العاصمة دنقلة؛ كانت مملكة القويين طبقاً للكتاب لحواليات العرب؛ كان ملوكها يرتنون العمامة ويصغون قرنين يرجعان للإله آمون. مقام: هو المكان المدفون به أحد الأرباء.

مركب: فلوكة.

مكتوب: أمر مكتوب، قدرى.

ماريس: معناها بالقبطية "الجنوب" في نوبانيا القديمة. وكانت الجزء الشمالي للمملكة المسيحية موكورا أو ماكوريا (ق 10م) طبقاً للمسعودي، قام سلاطين المماليك في مصر بإقصاء ملوكها وساهم في ذلك سيد قبائل كنوز في إقليم أسوان المدعو "كنز الدولة" الذي استولى على عرش دنقلة. ماتوكي: هكذا تسمى لهجة كنوز في كريمة.

M'bingo فيل، طبقاً لإحدى اللغات في سوط أفريقيا.

ميدجاي: عبارة عن قرى بدوية تطل على البحر الأحمر، وربما ترجع أصول أهل هذه القرى إلى شبه الجزيرة العربية وكانت لها ممالك قوية في الصحراء الشرقية، ساعدت المصريين القدماء على غزو النوبة العليا أثناء عصر الدولة الوسطى. وتظهر هذه القبائل ومعها قبائل أوشك Aushck في بادية بولاق. كانت تقوم بدور الشرطي وأحفاد هذه القبائل هم النجا.

Mek: ملك

Meuhir هي عبارة عن حجر رأسي للثقافات المتعاقبة على عصر ما قبل التاريخ، مثبت فوق دورات الطاقة الأرضية.

## رحلة إلى السودان

Meroeia civilization of the Sudan: مروي: حضارة من السودان. بل.  
شين 1967م.

Miam: واحدة من ممالك النوبة السفلى في عصر الرعامسة. كانت توجد  
بالقرب من توشكا.

Miu: مملكة في صحراء بيوضة أو جزيرة مروي، توجد في متحف بريير  
شندي.

Mograen: ملتقى النيل الأبيض والنيل الأزرق عند الخرطوم. وهي لفظة  
تطلق على ملتقى مجريين من المياه.

Mezzin: المؤذن.

Mufti: المفتي

Mulid: المولد

Nehesi: هو الاسم الذي يطلقه المصريون على الشعوب السوداء التي كانت تسكن  
للمنطقة التالية للجدل الأول. ومعنى لفظة Ta Nehesi أرض أهل الجنوب.

Nest: العش

Nobas: نوباتاس، نوبادس، أي النوبيون، هناك نقش كتابي يرجع إلى عصر  
الملك أكسوميتا إيزانا (ق 4م) يوضع الفرق بين Nobas السود من مروي  
- من المؤكد أنهم لليانقو - وبين Nobas الحمر من النوبة السفلى، وربما  
كان هؤلاء من السكان الأوائل للنيل، وهناك رأي يقول بأنهم عبارة عن  
خليط من القبائل الممماة San وقبائل أخرى أفريقية وأريتيرية أو أثيوبية.

Nobadia أو Nobatia: مملكة عاشت في النوبة السفلى بعد زوال مروي (ق  
4م) وكان يعيش على أرض هذه المملكة شعوب النوبة؛ ويبدو أنه كان  
يعيش هناك النوبة الحمر، ويعتبر هؤلاء مستمرار للمملكة المروية. وكان  
نقلديانوس هو الذي جعل أسوان الحد الفاصل بينهم وبين مصر. كانوا  
يعبدون إيزيس في قبله وكانوا محاربين أشداء.

## رحلة إلى السودان

Nubti: "سيد بلاد الجنوب"، كان هذا هو لقب أوكنية الفرعون طهارقة الذي يطلقه عليه أمراء سايس. وبالتالي فإن "بلاد الجنوب" هي لنوبة التي ترجع صريحًا إلى لفظة نوب Nub بمعنى للذهب.

Nymphéo: آثار عظيمة تتعلق بعبادة النابيع وآلهة المياه خلال العصر الروماني.

عين حورس: عبارة عن رقية مصرية شعبية تظهر فيها إحدى عينا حورس. وتقسّم بأنها تقوم بدو الحماية.

Okupios Giorgos: عبارة يونانية تعني "السيد جورج".  
Omphalos: مركز أومفزه باليونانية، هي تعني تلك الحجارة التي كان ينظر إليها قديمًا على أنها مركز الكون.

L. Oriental: واحدة من المكتبات الشهيرة في القاهرة.  
Out of Africa: خارج أفريقيا؛ هذه هي للتسمية التي تطلق على نظرية للتشوء والارتقاء التي تقول إننا معشر البشر ترجع إلى أصول أفريقية.

Pnubs: اسم المدينة الدينية الجديدة المكرسة للإله آمون، أقامها المصريون إلى جوار قوش القديمة وعاشت حتى نهاية العصر المروي. وتعني "شجرة جوجويا" وهي شجرة طبية معروفة في أمريكا أيضًا.

"بولة الجنوب": كلن هذا هو الاسم الذي أطلقه المصريون على الجندل الأول. قبة الفقير: المكان الذين يدفن فيه أحد أولياء الله.

Reiki: تقنيات يونية كريمة للتداوي بالأيدي وعن بعد.

Sancta sancorum: قدس الأقداس.

Safju واحدة من أوليات الممالك النوبية تقع إما في النوبة السفلى، أو النوبة العليا. ثم انتمجت بعد ذلك مع واوات.

Siga: المسيجة هي لعبة الفلاحين في السودان ومصر.

سكة المحيلة:— هي الصحراء الواقعة بين الجندلين الثالث والرابع.

Sukkot: "سكوت" هم النوبيون السودانيون الذين يقطنون مساحة كبيرة في وادي حلفا والدال، أي للجنل الثالث، وهم إحدى بطون قبائل الغاديشا. والمصطلح بالنوبية يعني "التمر" أي إشارة إلى صنف من الأصناف الممتازة في هذا المكان.

Ta-seti: "أرض القوس" وهي النوبة السفلى عند المصريين وأول إقليم في مصر العليا.

The-khet: مملكة في النوبة السفلى على زمن الرعامسة، تمتد من "أبو سمبل" حتى بوهن.

Tholos: عبارة عن بناء جندي في الثقافة الميثيقية micemica على شكل قرص الشمل (الخلية).

Typhonium: مركز لعبادة الإله ست، الذي تمثله اليونانيون على أنه تيفون. وفي جبل البرقل نجد المعبد الذي يحمل رقم B300 كان مكرسا للإلهة موت.

Voyage a Meroe et au Fleuve Blanc: رحلة إلى مروي والنيل الأبيض. ف. كيلو د. (1827م).

واوت: "أرض الذهب" هكذا كان المصريون القماه يطلقون هذا الاسم على النوبة السفلى التي تبدأ عند "أبو" (جزيرة الليفتين) أي للجنل الأول وحتى الثماني، أي في منبقة وادي حلفا وجزيرة ساي Sai. وكانت خلال حكم الأسرة السادسة ذات غايات كبيرة، حيث كان المصريون يستغلون أخشابها في بناء المراكب. وأطلق هذا الاسم على أولى الممالك للنوبية، التي اندمجت بعد ذلك مع مملكتي Intjet وسانجو على زمن للدولة القديمة في مصر. وفي عصر الرعامسة نجد مملكة واوت التي كانوا يستخرجون منها 248 كيلو جراما في العام تمتد من كلابشة حتى سيالة تحميها قلعة باكي Baki عند مدخل وادي العلاقي، أي الطريق العظيم المؤدي إلى مناجم الذهب.

### رحلة إلى السودان

يم:- كان هذا هو الاسم الذي يطلقه المصريون الأوائل على مملكة قورش.  
ولبدء من الأسرة السادسة جرى تنظيم قوافل تجارية من اليفنتين حتى  
"أرض اليم" عن "طريق اليفنتين"، واستغرقت الرحلة من سبعة إلى ثمانية  
أشهر؛ تعود حاملة للبخور والعاج والكأوب Caoba وريش النعام وجلود  
الفهود والذهب والعبيد، ولأحد الأقلام كهنية للفرعون بيبي الثاني.  
Yeahh: نعم، عبارة تعجب ينطقها أهل أمريكا الشمالية.



### عجالة تاريخية:

#### ما قبل التاريخ:

السودان بلد عتيق تقع في منطقة النيل الأوسط، بين أثيوبيا وأوغندا ومصر، وتضم هذه المنطقة خمسة جنادل في النيل، كما شهدت هجرات *Homo erectus* و *Homo Sapiens* الأوائل عبر وادي النيل، في اتجاهها خارج أفريقيا. وكان على هؤلاء المهاجرين أن يجتازوا السهول السودانية، أي إقليم النوبة ويواصلون على مسارات الأنهار الكبرى وهي النيل الأبيض والأزرق وعطبرة حتى يصلوا إلى النيل المصري وإلى برزخ السويس، الطريق البري الوحيد للوصول إلى آسيا وأوروبا، ويفترض أنهم عاشوا ما لا يقل عن مليون عام في السودان، وهناك أدلة على تواجدهم منذ 800 ألف عام نعثروا عليها في كرمه، الأمر الذي يتوافق مع وصول قبائل هوموس إلى مصر لاحقاً أي عام 700 ألف قبل الميلاد، وفي عام 300 ألف ق.م نجدهم يعيشون في كثير من الأماكن على ضفاف النهر مثل "خور أبو أتجا" القريب من أم درمان، والخرطوم وشندي ومروى ودنقلة ووادي حلفا.

وعبر السودان انتقلت أيضاً قبائل *Homo Sapiens*، وهم البشر الحديث في خروجه من أفريقيا، وكان ذلك إما عام 110 ألف (ق.م)، أو عام 60 ألف (ق.م). وبعد العصر الحجري القديم أخذت تظهر مجموعة من الثقافات *mesalitics* و *neolitics* (العصر الوسيط) (العصر الحجري الحديث) في منطقة النيل الأبيض والنيل الأزرق، وكانت واحدة من أبرزها تتركز في الخرطوم (8600 - 5500 ق.م)، وخلال تلك الفترة مرت بالسودان قبائل من أريتريا وأثيوبيا سارت في وادي النيل، واتجهت مباشرة صوب وادي النيل المصري هرباً من العوامل المناخية، وكانت هذه القبائل تتحدث "اللغة السابقة

## رحلة إلى السودان

على اللغة المصرية القديمة"، ثم اختلطت هذه القبائل بمن بقي من القبائل فسي رادي حلفا والنوبة العليا وسكنوا جميعاً مصر.

### الثقافات الأولى:

هناك من يقولون بأن مصر حالة فريدة وظهرت من العدم، وهذه مقولة تخلو من الصدق إذ تتجاهل النمو الموازي الذي عاشته الثقافات الأخرى على ضفاف النيل السوداني وخاصة في النوبة العليا ابتداء من الخرطوم وحتى مصر؛ ففي نهاية العصر الحجري الحديث ثقافات الرعاة النوبيين والمعروفة باسم "النوبية الأولى" أو ما يسمى "بالمجموعة أ"، وبلغت هذه أوج ازدهارها خلال 3100 - 3000 ق.م، بشكل فيه توازي مع توحيد مصر الذي ضم الأوية السفلى اعتباراً من أبو (اليفنكين) حتى ساي Sai عدد الجدول الثاني. جرت اتصالات كثيرة عبر النيل بين هذه النوبة ومصر ما قبل عصر الأسرات، ولم يقتصر الأمر على التجارة بل تمثل أيضاً في إرسال النوبيين كجنود لشهرتهم كمحاربين أشداء؛ كما لدعوا في صناعة الفخار وتوصلوا إلى منتجات تعتبر من أرفع ما في العصور القديمة. ظهر الممالك النوبية الأولى في العصر الكلاسيكي الأول للمجموعة أ.

قام فراعنة مصر - خلال الدولة القديمة - بغزو النوبة التي تمثلت رماليها بالذهب، وظهرت أسماء كل من خوفو وخفرع ومنكاورع في بعض النقوش الكتابية الأمر الذي أنهم استطاعوا أن يجلبوا من هناك كميات وفيرة من الذهب التي استخدموها في تمويل بناء أهراماتهم العظيمة؛ وفي نهاية الدولة القديمة ظهرت في النوبة ثقافة جديدة هي استمرار لسابقتها، وهي ثقافة "المجموعة ج"، وجرت عدة حملات تجارية غير الصحراء رواها سكان "أبو" وسين (أسوان) ترجع إلى الأسرة السادسة، وتحدثت هذه الحملات عن ممالك نوبية في واوات وإيرجت وماتجو، التي اتحدثت في واوات، أرض الذهب.



**قوش: أو مملكة أفريقية كبرى**

تكتلت تلك الثقافات النوبية في إطار ما عرف قديماً في بداية الأمر باسم "نم" ثم بعد ذلك "مملكة قوش" التي امتدت من الجندل الثاني حتى الرابع وكانت كرمه هي أبرز مراكزها التي استمرت من 2500 ق.م حتى 1500 ق.م. وبشكل موازي للثقافات المصرية خلال عصر الدولة الوسطى في السودان أهم وأبرز الحضارات السوداء في أفريقيا والمسماة قوش في النصوص المصرية، وهناك صدى لشهرتها حسبما ورد ذلك في نصوص التوراه.

كانت كرمه عاصمة النيل الأوسط، تحيط بها الأموار، وتضم منشآت دينية ضخمة وقصوراً ومنازل وخزائن، أي أنها كانت حاضرة يلتقي فيها النام والتجار من أفريقيا السوداء مع الإمبراطوريات الفرعونية وكانت في مأمن طبيعي حيث تقع وراء الأراضي التي يصعب اختراقها وهي الصحراوات النوبية. وحوالي 1500 ق.م وتوافقاً مع غزو الهكسوس لمصر، بلغت مملكة قوش أوجها حيث امتد نفوذها حتى الجندل الأول في أسوان حتى الجندل الخامس بالقرب من شندي، أي للسيطرة على كلغة أقاليم النوبة، وجرت الأمانة باللغة للنوبية القديمة في الإقليم وكان ذلك مع القرن الثاني ق.م.

**الغزوات الفرعونية:**

هاجم فراعين الدولة الوسطى - ربما كانوا من أصول قوشية - روات، وذلك لينتزعوا الذهب والتجارة الأفريقية والهندية من اللوبيين. ثم جاء بعدهم فراعنة الدولة الحديثة الذي واجهوا مملكة قوش القوية، وتمكن تحتمس الأول (1504 - 1492 ق.م) من غزو المملكة الأفريقية حوالي عام 1560 ق.م ووصلت قواته إلى ما بعد جبل برقل المقدس، واستمر الاحتلال أربعين عاماً، أي حتى القرن الحادي عشر ق.م وكان له تأثير عميق في الثقافة السودانية في

## رحلة إلى السودان

النوبة، فقد كان الإقليم كله يطلق عليه واوات، أي بلاد الذهب نظراً لكثرة مناجم الذهب فيه.

وإلى جوار كرمه ظهرت مدينة جديدة هي بنويس Pnubs مكرسة للإله آمون، وإلى الجنوب أيضاً، ظهرت مدينة أخرى هي 'جيم أتون' أو 'كادا'، وجعل تحتمس الثالث العاصمة الإقليمية في نباته.

أنشئت معابد كثيرة في عصر فراعنة الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، ومن أمثلة ذلك معبد سولب Soleb ومعبد سيدنجا Sedeinga وتحول جبل البرقل إلى مركز كبير من مراكز للنوبة، وتم تكريمه للإله آمون نباته وهو متصل بآمون طيبة، وأنشئت العديد من المعابد المكرسة للالهة المصرية؛ ورغم أن الفرعون "الملحد" أخناتون قضى على الكثير منها باسم عبادة الإله أتون فإنه احترم الجبل المقدس (جبل برقل) وتقديس الإله آمون هناك؛ وعموماً، فإن الحضارة المصرية القوية لم يتوقف تأثيرها على عادات وتقاليد وديانات وعمارة الثقافات الخاصة بالممالك للنوبة في السودان، ورغم هذا فإن منعطف دنقلة كانت له استقلالية كبيرة، حيث كان يحكمه نبلاء قوشيون استطاعوا الحفاظ على الثقافة النوبية.

### مملكة قوش الثانية: نباته والفراعنة السود (الأسرة 25)

ظهر خلال القرن الحادي عشر ق.م بعض الملوك المحليين الذين استطاعوا أن يقيموا مملكة مهمة في النيل الأوسط، وخلال الألفية الثامنة تمكن الملوك القوشيون الجدد وهم ألارا Alara وكاشتا Kashta من إقامة عناصمتهم نباتاً التي تقع أمام "الجبل الخالص" "جبل البرقل"، وأسسا مملكة قوشية جديدة هي نباته، وجاء خلفاؤهم ليتولوا القيام بحملات لغزو مصر، وكان بيانكي أو Piye أو الفراعنة السود في الأسرة 25 للمصرية (775 - 653 ق.م) وطبقاً لرواية مانيتون كان هناك خمسة ملوك هم جماع هذه الأسرة وهم Piye وشاباكو

## رحلة إلى السودان

وشيتيكو وطهارة وتانوت آمون. كان هؤلاء أوائل الملوك السود الذين أقاموا مجموعات هرمية في كورو. وكان طهارة أبرز هؤلاء الملوك، حيث استطاع إقامة ملك امتد من فلسطين حتى الخرطوم وكرّس جهوده لترميم المعابد القديمة والنقوش والطقوس وإقامة العديد من المنشآت في مصر وخاصة في طيبة والنوبة، وكون إضافة إلى ذلك جبانة نوري Nuri الجديدة إلى جوار نباته وكذا نموذج الأهرامات للمروية. أسس أبسماتيك الأول الأسرة السابعة والعشرين وتمكن من هزيمة تانت آمون وطرده من الأراضي المصرية.

### أسرة نباته:

بعد أن فقد النوبيون الأراضي المصرية، واصل الملوك إقامةهم في العاصمة نباته، وبذلوا كل جهودهم الضرورية حتى تستمر الأسرات الفرعونية للسوداء اعتمادًا على صلة القرابة وكذلك استخدام الألقاب الفرعونية حيث ظل يطلق عليهم "سيد الأرضين" أو "سيد مصر العليا والسفلى" واستخدموا كذلك رموز الملوك مثل للتيجان الفرعونية. وحقيقة الأمر هي أن الشعوب النيلية في كل من قوش ومصر كانت تعتبر نفسها قريبة من بعضها البعض وبالتالي استمرت العلاقات السياسية والثقافية بين الطرفين. والأمر الغريب هو أن فرعون سايس الجديد - أبسماتيك الأول - نصب نفسه على عهد الاستمرار على خط ملوك القوش في مصر، ويشير هيروdot إلى أن آلاف الجنود الذين كانوا في أبو (اليفانتين) هربوا إلى قوش وأقاموا هناك نون مشاكل ويسنلك أسهموا في عصر جديد لازدهار للعادات المصرية في القوية.

كان لطيهارقة ابن هو أتلانيرسا Atlanersa أصبح ملكًا وكان أول الأسرة الجديدة في نباته، وخلفه على العرش (643 ق.م) الملك سند أمانيسكين Senkamaniskén حيث ظل تحمل التاج المزيج (مصر العليا والسفلى)

## رحلة إلى السودان

وكان أحد مؤسسي معبد آمون في مروي، وسهر على الحفاظ على الروابط الوثيقة التي بين ملوك نباته ومروي منذ القرن السابع ق.م، وامتد ملكه من Pnubs في الشمال حتى بوثنائه في الجنوب. ثم خلفه أنلاماني Anlamani الذي كان تاجه يتضمن قرني آمون، بذلك - عدة قرون - تلك الزينة المقدسة التي سار عليها الملوك المسيحيين في نقلة. ثم جاء من بعده أخوه أسبيلتا Aspelta عام 591 ق.م. لكن تدهورت العلاقة بين مصر والنوبة بسبب قيام القوشيين بإحدى الرزايا على مصر. وعلى هذا تم إزالة للتقوش القوشية في مصر وتشويه وجوه تماثيل للفراعنة السود، وبدأ أبسمانيك الثاني عملية حربية كانت نتائجها منصرة على النوبة العليا، حيث حمر نباته ومحابد جبل البرقل وبتويس عام 591 ق.م.

هرب الملك أسبيلتا نحو الجنوب، صوب مروي العاصمة المزدهرة التي كانت ترجع لقرون سبقت، وابتداء من تلك الفترة أسس مقر إقامته، ومع هذا فعند إجراء تقوس للتتويج كان ملوك نباته - مروي يعنون إلى جبل برقل، وكذا عند الوفاة ليذفنوا في نوري، الجبابة التي أسسها طهارة. واصل أسيلما حكمه الذي دام لسنوات طويلة وأسس "معبد الشمس" في مروي، ثم خلفه ابنه أراماتكو Aramatelqo، واستمرت هذه الأسرة بين مروي ونباته. وكان ناستاس Nastasen آخر من دفن في نوري مع نهاية القرن الرابع ق.م.

## مملكة مروي الأسطورية:

حدث الانتقال النهائي إلى مروي عام 300 ق.م وأصبحت العاصمة الأسطورية للمملكة النوبية التي استمرت على مدى ألف عام أي حتى القرن الرابع الميلادي، وعاشت حياة مستقلة وسيطرت على الأراضي التي تشمل النوبة العليا وإقليم بنوبس في الشمال، سيطرة هذه المملكة على النيل الأوسط

## رحلة إلى السودان

ابتداءً من بوتانا التي أطلق عليها اليونان "جزيرة مروى" وكان بها الذهب وصناعة الحديد والبرونز والتجارة والزراعة؛ كان لهذه المملكة اتصالاتها للدوية بمصر البطلمية، حيث كانت تزود ملوكها بالفيلة وكانت لها صلاتها بأفريقيا السوداء وأثيوبيا والهند. وظلت ثقافتها متأثرة بالرموز الفرعونية؛ حيث أقامت مجموعات هرمية ضخمة ومعابد ذات طراز معماري وفني فرعوني. ومع هذا فإن ابتعادها زمنياً وجغرافياً عن المراكز الفرعونية وعلاقاتها الحميمة بثقافات أخرى مثل الهندية كان إيذاناً بظهور مفاهيم دينية جديدة تعتبر الفريدة من نوعها في تاريخ وادي النيل. وإذا ما تأملنا تاريخها وجدنا أن أفضل فترات ازدهارها كانت خلال القرن الأول قبل الميلاد حيث كان في سدة الحكم الملك ناثاكاماني والملكة أمانيتوري.

ربما كانت مروى هي نقطة الانطلاق إلى وسط وشرق أفريقيا فيما يتعلق بتقنية صناعة الحديد والبرونز، وربما وصلت إلى نيجيريا، أضف إلى ذلك بعض المظاهر الثقافية والتنظيم الاجتماعي. كان هذه الثقافة ذات لغة خاصة بها هي المروية، وكان الكاتب اليوناني إراتوستنس Eratostenes أول من ذكر - عام 200 ق.م. - أهل نوباي أو النوبيين الذين يعيشون على الشاطئ الغربي للنيل حتى جنوب نفقة. وخلال العصر الروماني والبيزنطي نجد أن النوبة السفلى قد تحولت إلى منطقة حدود وشكلت بذلك ما يعرف بـ Dodecaschoenus (إقليم الحدود). اتسمت العلاقات أحياناً بالتوتر، ووصل الأمر بالرومان للحرب ضد ملكة نباته هي كذلك حيث نمرؤا مدينتها؛ وكانت هناك فترات سلام بإرسال البعثات الدبلوماسية من مروى حتى عاصمة "قراعين الغرب" أي أباطرة روما خلال القرن الثاني الميلادي، وبالتحديد أثناء حكم أربيان.

وخلال القرن الرابع الميلادي يبدو أن مروى تعرضت لغزو ملوك

Axum في أثيوبيا. وبعد ذلك عاشت مملكة مروى مرحلة أفول لا تتوقف، وتوقفت عن بناء الأهرامات الجنائزية، لكنها مع ذلك واصلت إنشاء المقابر في صورة أكوام ضخمة، وهذا يعني أنها كانت تعيش حياة اقتصادية مزدهرة ولها وزنها السياسي. وعلى أية حال فإن اسم قوش ومروى زالا بشكل تدريجي ومعها المملكة القديمة، وهجرت المدن القوشية القديمة. وتروى بعض الأساطير أن الأرستقراطية المروية انتهى بها الأمر للجوء إلى جبال الدوبة في وسط السودان.

#### الممالك المسيحية:

من المفترض أن النوبة السفلى قد انفصلت خلال الفترة بين القرن الخامس والرابع وأقامت ما يطلق عليه نوباتيا، في المنطقة الواقعة بين الجندلين الأول والثالث، وجعلت من بلانا Ballanas العاصمة، كما ظهرت مملكتان أخريان لاحقتان في النوبة العليا على أطلال مروى وهي ناكوريا Nakuria بين لجندلين الثالث والرابع وعاصمتها دنقلة، ومملكة ألوى Alwa إلى الجنوب على ضفاف النيل الأزرق وعاصمتها سوبا Soba.

وبعد التوقف عن عبادة الآلهة إيزيس في فيلة - 533م - انتقلت عاصمة نوباتيا إلى مدينة فاراس، وتحولت إلى المسيحية القبطية عام 543م مثلها مثل ألوى Alwa وكذا ألوديا Alodia، بين كريمة والخرطوم، وكانت كلها تتبع بطريركية الإسكندرية. أما ناكوريا فقد أصبحت تابعة للكنيسة المناوشة Melquita أو الأرثوذكسية عام 569م. وحلت اللغة القبطية واليونانية محل اللغة المروية في تلك الفترة. وعلى أية حال فإن ملوك هذه الممالك في نوباتيا تمثلت الديانة الجديدة ومع هذا استمرت في استخدام الطقوس القديمة.

انعزل ملوك النوبة المسيحيون عن مراكز البحر المتوسط بعد غزو للعرب لمصر (ق 7م) وبالتالي فإن الحدود الفاصلة كانت متمثلة قسي الجندل

## رحلة إلى السودان

الأول (الباب) أو الشمال) وازدهرت اللغة النوبية القديمة كلغة لسكان الإقليم ودخلت العربية إلى المنطقة من مصر. وفي القرن الثامن تم توحيد هذه الممالك تحت ظل القبطية، وهي مملكة نوباتيا وناكوريا، وكان لهذه الأخيرة اليد الطولي وأصبح اسمها موكوراً وعاصمتها ونقطة التي لمثلأت بالكنايس لليازليكية والكنايس الصغرى. تغير اسم نوباتيا القديمة ليصبح مارس Maris أي الجنوب بالقبطية، وسيطرت على إقليم وادي حلفا وعلى المعبد إلى الجندل الثاني حيث أطلق على أحد ملوكها - ملك موكوراً - "سيد الجبل".

### الممالك العربية خلال العصور الوسطى

بعد قرون عديدة من العلاقات السلمية نجد أن القرن الثاني عشر الميلادي يشهد تطورات مثيرة خلال الغزوات الصليبية، حيث شهد مواجهات بين مصر والممالك المودانية في النوبة العليا والسفلى وانتهى الأمر بساحتل مصر لموكوراً في نهاية القرن الثاني عشر على زمن صلاح الدين الأيوبي، وجاء ذلك بعد عدة هجمات - غير متوقعة - على يد الملك المسيحي ضد الموائ الإسلامية المطلة على البحر الأحمر وفي أسوان. وربما كان ذلك عبارة عن محاولة فاشلة منجج عليها الفرنجة لغزو مصر من جهتين، ومع هذا يرى البعض أن ذلك ربما كان مساعدة مقدمة للأسر الفاطمية. وعلى أية حال فهناك براهين تؤكد على تعاون المعمارين الفرنجة في بناء الحصون التي لقيمت في موكوراً خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

استمرت فترة الانحطاط مائة عام، حتى القرن الرابع عشر حيث نصب الممالك أول ملك مسلم في نقطة، وأخذت تظهر ممالك إسلامية في النوبة العليا. استمرت مملكة ألوا Alwa حتى نهاية القرن الخامس عشر، ومن تلك الممالك المسيحية ظل هناك عدد كبير من السكان في النوبة العليا الذين تمسكوا بديانتهم القبطية مثل جيرانهم الأثيوبيين. أما في مصر - في النوبة السفلى - فإن

## رحلة إلى السودان

الصراعات بين الأيوبيين والفاطميين أدت إلى تشتت الشعوب النوبية، وسيطرة سياسية لقبيلة "بنو كنز" أي الكنوز في المنطقة المحيطة بأسوان. وابتداء من ذلك الحين أخذنا نشهد تشتتاً متزايداً للإقليم على حساب القبائل المحلية التي تقاسمت فيما بينها النوبة العليا والسفلى وجعلتها مناطق لغوية ومناطق نفوذ.

### العصر الاستعماري والاستقلال:

قامت القوات المصرية بغزو السودان عام 1820م وكان ذلك على يد إسماعيل باشا الابن الثالث لمحمد علي، واستمرت انتصاراته في الأراضي النوبية لكن جيشه قوبل بمقاومة شديدة في شندى حيث تمكنت القوات المحلية من إيقاف زحفه وللقضاء على جيشه. وفي نهاية القرن التاسع عشر تمكن المهدي البطل السوداني وزعيم حركة دينية وطنية من الاستيلاء على الخرطوم التي دلفع عنها جور دون عام 1885م وتمكن من الجيش المصري الإنجليزي، وجعل من أم درمان عاصمة له. لكنه مات في العام نفسه وخلفه الخليفة عبدالله، ثم هُزم هذا الأخير بعد ذلك وتعرضت دنقلة القديمة للدمار بسبب المواجهات الحربية وأخذ كريتشنر يتقدم بجيشه من مصر ويشيد خط السكك الحديدية بين وادي حلفا وأبو حامد لتأمين خطوط المواصلات، وفي عام 1898م أعاد احتلال الخرطوم. وفي العام الثاني بدأت الحماية المشتركة المصرية البريطانية على السودان التي انتهت عام 1950م عندما تم تصليب الملك فاروق ملكاً لمصر والسودان. ومن المعروف أن السودان استرد استقلاله في 1/1/1956م.



### ميثولوجيا

- **آمون:** "الإله الخفي"، الإله الأعلى لمصر، ابتداء من الدولة الوسطى، لكن أصوله غير معروفة، كان إله النبوءة للسموات والسماء وتجسد أيضاً في الإله مين. ونراه في طيبة في شكل بشري أو برأس كبش، وهو الحيوان المقدس لذلك الإله، غير أن أشكاله الأكثر قدماً تربطه بالنعبان والأسد، كان يتزين بريشتين مرتفعتين ربما ترجع أصولهما إلى للمحاريين الليبيين والأقارقة. وعندما غزا المصريين النوبة في عصر الدولة الحديثة وكرسوا جبل برقل للإله آمون جعلوه كإله "خفي" في الجبل.
- **آمون نبتة أو آمون للجبل المنحصر:** هو من خلف الإله الطموطي النوبي، ويُقدس في شكل كبش، وكان الإله العلى لجبل البرقل والذي يبارك ملوك مروي ويقرر المدى الذي تصل إليه المملكة جغرافياً وهو الذي يصدر الأمر بالقيام بالأضحية كل فترة زمنية معينة، وهي عادة أفريقية أصيلة، كان أيضاً إله النبوءة وإله الخصوبة وتقدم إليه القرابين من الحبوب في أواني فخارية على شكل أقماع. كان يجلس على أنه "آمون رع سيد تيجان الأرضين الذي يقيم في الجبل الخالص، وذلك كما يظهر في لوحة "أسبلت" أو في "الاختيار". كما ظهر في لوحة أخرى على أنه "آمون - رع حار أختي - أثون" ومعبده الواقع هو الذي يحمل رقم B500 في جبل البرقل.
- **آمون، سيد ينوبسن:** كان الميجل في مدينة بنوبس التي خلفت قوش وأقيمت إلى جوار كرمه في "نقى جبل"، كان معبد من أكبر معابد النوبة، وقد عثر هناك على مخبأ تحت الأرض به العديد من تماثيل ملوك القوش التي عثر عليها أيضاً في معبد آمون في جبل البرقل، وبذلك تزداد الروابط بين هذين المركزين النوبيين المقدسين، تمثل آمون بنوبس في

العصر لقوشي في صورة أبي الهول، أي جسد أسد ورأس كبش، وبذلك يتم التوفيق بين الأكماط القديمة للآلهة التوبيين على شكل أسد وتأثيرات أفريقية والآلهة الفرعونية.

- آمون جيم - أقون: كان يحمل الاسم المذكور ويقدم في المدينة التي تحمل اسمه والتي تعرف أيضاً باسم كاوا.

- آمون الثور - سيد النوبة: هو من سمناء بالقرب من نوري، التي تقع في ملتقى الطرق التي تربط بين نباته ومروى عبر الصحراء البيوضة Bayuda، وكان الشكل الرابع لأمون في النوبة.

- أبيد ماك Apedemek الإله الأسد الأعلى المروى: هو سيد للحرب وحامي أراضي الجنوب، وربما ترجع أصوله إلى الطوطمية الأفريقية، يظهر على شكل حيوان أو جسد إنسان ورأس سبع Antropomorfo. وقد ظهر في نقا Naqa مرتبطاً بالنعبان وزهرة اللوتس، كما ظهر في شكل غريب آخر على شكل ثلاثة رؤوس أسدية وأربعة أذرع، وربما يرتبط بالإله تغنوت المفترسة والآلهة سخمت، وقد تسبب في تصحر النوبة بنهائه الناري والطاعون Pestilencias أو الأوبئة، وفي الطقوس المروية يظهر كراعي لإيزيس ووالد لحورس.

- أبيد ماك نقا: ربما كانت من آلهة النبوة، وهي الوحيدة من نوعها في مروى ووالدي النيل، تظهر ذات وجوه ثلاثة أسدية وأربع أذرع وترسم بأذرعها بعض الطقوس الدينية. كان مقرها "معبد الأسد" في نقا، وخلال العصر البطلمي والروماني ظهرت في مصر تعاويذ عنصرية وسحرية بها بعض الآلهة أو الشياطين من نوات الوجوه والأذرع المتعددة رغم أنها لم تكن أشكالاً متنوعة لأبيد ماك.

كانت الهند هي المكان الذي نجد فيه هذه النمطية الميثولوجية المتعلقة

### رحلة إله السحابة

بالوجوه والأذرع المتعددة للآلهة سواء كان ذلك في المرحلة المسماة شيفا Shiva التي تضم مراحل إسكاندا Skanda وجانبا أو درجا Durga، أو المرحلة الأخرى المسماة فيستو Visnu ومعها لكسمي Lakmi أو الأياتاري Avatares العشرة التي تتجسد لفيستو والتي نجد من بينها الرجل الأسود Narasimha.

- أبيس: هو ثور ممفيس المقدس مكرس لبتاح، كان واحداً من الطواطم الأكثر قلماً في مصر، أصوله غير معروفة، يظهر كنور أسود له أجنحة ملتبقة بجسده، وهو يذكرنا ببعض الآلهة المجنحة Grifones والأشكال التي يتم تبجيلها في معابد مروي. هو ابن بتاح وابن بقره عنراء، وكان رمز للخصوبة الذكورية وبذلك فإنه على صلة بالذكورة والشباب الدائم الذي يتعلق بالفرعون. ويرتبط جنسياً بأمه. وكان واحداً من الآلهة المصريين المهمين، وهو يرتبط في العالم الآخر بأوزوريس وآتون.
- أتف Atef: هو التاج الذي تحمله بعض الآلهة المصرية والمروية، ويضم ريشات ثلاث وقرور كبش في وضع أفقي مثل الإله خنوم وكذا ثعابين.
- أتون Atun: إله الشمس الذي تم تقديسه في عصر أمتوفيس الرابع، بأسم أخت آتون.
- أتوم Atum: هو أول آلهة هليوبوليس الذي بزغ من النون وهي الفوضى الأولية مع بداية الأزمنة وهو الذي أنجب نفسه بنفسه وخلق أول اثنين من الآلهة شو وتفنوت، وربما كانت أقدم تجلياته عبارة عن حبة تخرج من الفوضى المائية، المليئة بالتماسيح والثعابين. ومعه ظهرت الهضبة الأولية وزهرة اللوتس ذات العطر والشمس، ظهر أيضاً في شكل رموز الأبراج مثل الأسد والثور والملحفاة والمانجوستا أو الجعران الشمسي. ويظهر في العالم الآخر كإله الطقوس الجنائزية له رأس كبش. وربما جرى النظر

إليه على أساس أنه "الجذ" الأول للفرعون، أو والده الأمستورة الذي يتوجه بالذاج للملكي.

- بس Bes: هو إله مصري قزمي، شكله أفريقي، ظهر خلال الدولة الحديثة، معني بالرقص وحامي الحوامل أثناء المخاض والموليد ويعتقد أن أصوله سودانية، وكان أيضًا إله الخصوبة وإله الحرب في بعض الأحيان. وافق مع آلهة أخرى أكثر قدمًا وخاصة الإله ست-أسد، واتباعه الذين رأهم اليونانيون على أنهم قرييون من آلهة Satiros.

- ديونيوس: هو إله قديم، يرجع إلى ما قبل العصر الهلنستي، وربما إلى ما قبل التاريخ، أي إلى عصر التيتان Titans طبقًا للكتاب الكلاسيكيين. كان مولعًا بالموسيقى والرقص والجنس والخمر، وكان إلهًا يموت ويبعث، وربما ترجع أصوله إلى جبل على شاطئ النيل طبقًا لبعض الأساطير. وابتداء من القرن السابع ق.م. ظهر في اليونان، ثم أحيط بعد ذلك بمجموعة من Satiros وباكانتس Bacantes أي النساء المهوسات بالمرح والتهو الديونيسي. ارتبط بالإله أوزوريس.

- جاتيسا أو جاتاباتي Ganesa, Ganapati: هو الإله الفيل، من الهند وقد ظهر متأخرًا كأحد آلهة ذلك البلد، وكان ابن شيفا واللبوءة بارفاتي، إله القوة الروحية والدفقة والحكمة؛ كان سيد الحملات الحربية الخاصة بشيفا، وهو الذي كان يتغلب على الصعوبات ويساعد على تجاوز العقبات على الأرض.. وهو أحد أبرز الآلهة في الهند، ويتم تصويره في شكل آدمي كأنه شخص حالم ومملئ وهذا رمز للنراء والرفاهية وله رأس فيل. كان يساعد على نجاح القوافل التجارية وكان حامي التجار؛ وقيل القيام بأي رحلة أو مغامرة كان من الضروري تقديم القرابين له للتمتع بحمايته. لما بالنسبة للجانب السليبي فيه فقد كان Kirttimukka أي سيد الغابات

## رحلة إلى السودان

والطبيعة البرية وكان أيضًا منافسًا لكافة أنماء السوء والحامي وقت الكوارث، وكان الكاراكول البحري الأداة الموسيقية التي يستخدمها.

ظهرت الأفيال بشكل متسارع في الميثولوجيا الهندية، فمن المحيط الأسامي من اللبن سوف تولد اللوتس الأسامية، Sri- Laksmi وكذا Airavata أي الفيل الأبيض الذي سيمطيه Indra إله المسطر، ومن البيض الرئيسي سوف يظهر ثمانية أزواج من الآلهة التي سوف تجتذب أخواتها المسحابات، وأفيال السماوات، وكانوا سادة الأعاصير. وبذلك نرى أن الفيل مهم للغاية في الميثولوجيا البونزية، وسيد الخصوبة.

أثناء الاحتفالات الخاصة بـ فيسنو Visnu، كان الفيل المقدس في معابدها، على أساس أنه مطية إلهية، يتم غسله في احتفالية كبيرة لأنه كان في حياة أخرى سابقة الأمين الورع لياري فيسنو. وفي الدرجة نفسها التي عليها جانيسا نجد أبا نار Auiya Nar، الذي يرتبط ارتباطًا جميعًا بالأفيال. وهو ابن شيفا وفسنو، وكان يعبد في بلد تمول في دكبان Dekkau الجنوبية. كان حامى الحقول، ويهب الأبناء والمحاصيل ويداوى الأمراض، وكان أثناء الليل يمتطي فيلا ويحارب الأرواح الشريرة، وتضم مداخل معابده نقوش للفيلة.

وطبقًا د. زمير Zimmer، كان وضع الفيلة في الهند سابقًا على أوعية الملوك؛ كان يتم اصطيادها في الغابة ويتم وضعها في محميات لاستخدامها لأغراض حربية أو احتفالية أو محربية. كان تبجيلها مهمًا لإتقان الأفيال نفسها وكذلك الملك والمملكة والجيش. وأثناء احتفالية الخصوبة كان الم Hastayayur veda مبعثًا عند العاهل وكبار الموظفين المدنيين والعسكريين ورجال الدين والشعب.

كان الفيل في أفريقيا مرتبطًا أيضًا بالمطر وبكل ما يساعد على هطول

الأمطار، وكان الملكة - الأم، التي يتم تكريمها بإطلاق لقب "الفيل العظيم" عليها أو "السيدة الفيل"، وكانت التي تحتفظ بالأشياء التقليدية السحرية ومن خلالها يتم الدعاء بالامتنعاء، وكانت الفيلة مرتبطة أيضًا بالأنوهمية، فقد كل أدوات الساحر الذي يتكلم عن ظهر الغيب من العاج.

- **Grifones**: هو حيوان خرافي من ذوات الأربع له مخالب أسد وأجنحة ومنقار يجعله شعب **Escitas** (جنوب روسيا) عندما يرون أشلاء النذائصورات **Protoceratops, Psittacosurus** التي توجد في صحراوات آسيا الوسطى. وقد ورثت شعوب كثيرة من الشعوب القديمة صورته ومنها المصريون القدماء وما وراء النهرين والمينويكس واليونانيون والهنوس والمرويين.

- **حتحور**: آلهة مصرية قديمة، ذات طابع قمري، لا نعرف أصولها. ومن بين أشكالها القديمة نجد الثعبان والنبوة وروح الأشجار وسيدة شجرة الجميز. وتم تقديمها كجاموس بري في البحيرات الأولية، ومن أبرز صورها الجاموس والبقرة أو المرأة ذات الأذان البقرية، أما تاجها فكان على شكل قرون. وكانت "سيدة المهبّل" على أساس أنها آلهة الحفلات الجنسية الصاخبة والاحتفالات والموسيقى واللهو، وكانت ترتبط بعمود أو منهير **Menhir** منتصب وعضو نكري يتم حمله أثناء الاحتفالات بها. كانت عند اليونان بمثابة أفروديت.

كانت أيضًا سيدة المناجم والأراضي البعيدة مثل النوبة وبونت وسيدة التجارة مع تلك الأقاليم. أيضًا هي الآلهة السماوية زوجة رع وابنته وأما وزوجة لحورس، وحامية الأمومة والفرعون الطفل؛ ولم تكن أمًا فقط بل زوجة للفرعون، وتحتفظ بتقاليد أمومة ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ. وبلغ تفردّها أن جعلت من الأم ذات أهمية كبيرة وتعكس السلطة التي

## رحلة إله السوحاد

كانت عليها الملكات الأمهات الأفريقيات خلال عصر الإمبراطورية المروية.

- هرقل: هو بطل يوناني ذو قامة وقوة خارقة، أطلق عليه الروماني مسمى "Hercules". أصوله غير معروفة، ورغم ذلك فإن المصريين كانوا يؤكدون أنه ولد في وادي النيل؛ وربما كان يمثل ذكرى سلاطات إنسانية سابقة على سلاطنتنا. وقد أشار نيودور بالتفصيل إلى وجود هرقل مصري كان يعيش في العصر الحجري القديم، سابقاً زمنياً على هرقل اليوناني الذي ربما كان على صورته. وكان ينظر إليه في مصر على أنه قريب الشبه من خوتسو الذي كان أحد الثالوث المقدس للكرنك (أمون - موت - خونسو).

- حورس: الصقر المقدس، الإله الشمس المصري، سيد الشمس والصبح والسماء الشرقية. كان ميجلاً في الذوبة السفلى وكانت له أشكال مختلفة وربما كان مشتقاً من إله نوبي قديم يدعى Dedwen على شكل طائر. هو إله سماوي في المقام الأول أو "الذي يوجد بعيداً". كان عدواً لعمه ست سيد الصحراوات الغربية، واحتكم الصراع بينهما على السيطرة على مصر. وكان يتم الربط بينه وبين سوبك، التمساح المقدس حيث يظهر هذا الأخير برأس صقر، وبذلك يعطي الطابع السماوي لمسوبك القديم، وربما يرمز أيضاً للتحالف بين الشعوب المتوسطية والشعوب المحلية المطلة على النيل في صراعها ضد الشعوب الصحراوية السودانية في الواحات عند غزو مصر مع بداية العصر الحجري الحديث. وكان الملوك الأوائل خلال عصر ما قبل الأسرات هم "أتباع حورس".

وحقيقة الأمر كان حورس ابناً لحورس سابق هو حارو ليرس أو حورس العجوز، وابن حتحور وموحد القطرين، والشمس الغريب أنه يظهر كأنه حورس الذهبي وهو يطير على الحرف الهيروغليفي "ذهب" الأمر الذي

يذكرنا بأن النوبة كانت تسمى واوات أي "بلد الذهب". وانتهى به الأمر على أنه ابن إيزيس وأوزوريس، والحامي السماوي لمصر وملوكها مع بداية عصر الأمرات، ويمنح الفرعون الخلود وحق اعتلاء عرش مصر. يظهر أيضًا على أنه حور أرماتيس أو حورس في الأفق في صورة أسد يرتبط بأبي الهول في الجيزة ابتداء من الدولة الحديثة.

- إيمحوتب: هو عالم ومهندس معماري ومعالج ظهر خلال الدولة القديمة، وأصبح إلهًا وسيد الطب، وربطه اليونانيون بالإله Asclepios.

- إيزيس: الآلهة العليا لمصر، زوجة وشقيقة أوزوريس وأم حورس. أصولها غير معروفة، ومع هذا يؤكد الكتاب القدماء أنها جاءت أثيوبيا وكانت آلهة سوداء، ويعني اسمها "المقعد" وهو عرش من الحجر.

كانت آلهة كوثية متميزة وهي الأم الكبرى الخالدة، يتم تبجيلها في مصر والأثيوبيتين على أنها "الملكة إيزيس" وهذا طبقاً لنص طقسي قديم. تم ربطها بقوة بالآلهة حثور، وكانت في آن معاً الأم الأسطورية للفرعون بمعنى أنها الجدة القديمة، التي تتغل السيادة على الأرض مثلما هو الحال في المجتمعات الأفريقية.

- ختوم: هو إله جزيرة الفنكين، له رأس كبش، كان يرتبط بالنيل بقوة وكان "سيد التماسيح" إشارة إلى أصوله النيلية، ويقع عند الشلال الأول وكان الفخاري المقدس الذي يخلق البشر والحيوانات من الطين. وكانت قرويه مستوية وناجه هو Atdf. وكان يُعبد على أنه "الروح" أو "با رع"، وجب إله الأرض وأوزوريس. ثم ربطه بالليوة منهيت ويأم التماسيح ليت. كانت الضفدعة زوجة القديمة وهي حقت وتعرف بأنها شديدة الخصوبة، وبعد ذلك كانت ساتيس رمز الفيضان وكانت ابنته الصيادة للنوبة أموكيس مبددة الشلالات في النوبة السفلى.



### رحلة إلى السحابة

- **خونو:** ارتبط بهرقل اليوناني، وكان إلهًا يربنا قديمًا جسد إنسان ورأس حيوان وكان من الآلهة الرّحل "أي الذي يطارد أو يجري" و "الذي يقطع أوصال الآلهة ويلتهمها" ثم تحول بعد ذلك إلى الإله القمري ولون آمون وموت مشكلًا الثانوث المقدس. ارتبط أيضًا بالشفاء، وكان مقدسًا في نباته ومروى.
- **موت:** هي راعية آمون الكرنك في للدولة الحديثة، وكان اسمها يوحى بالآلهة الأم الكونية وخالقة كل أشكال الحياة وأم الآلهة. ارتبطت أيضًا ببعض الآلهات القديمات ومن بينهن إيزيس وسخمت وحثور، وهي إلهة العالم الآخر؛ تم ربطها بآلهات الأوليات ويقال إنها نشأت مع النون، أي القوضى أو الهوة المائية الأساسية وكانت في الوقت ذاته "ملكة السماء" ومنزل الإله بتاح.
- **ناجاس Nagas:** هي ثعبان مقدس في الهند وكانت ترتبط بالطاقت الروحية التي كانت تنبع من للمياه الأولية، كما كانت ترتبط بالخصوبة. وتظهر في الميثولوجيا الهندوسية والبوذية. وكانت ميسا أم كافة الثعابين وروج الجسم الإنساني وتظهر كحية قوية على طول العمود الفقاري.
- **نقرتوم:** هو ابن بتاح وسخمت وكان "اللوتس المعطر" الذي ظهر من القوضى المائية "النون" عندما ظهر أتوم على الهضبة الرئيسية. وارتبط دومًا بالعبور، رغم أنه ربما كان في الأصل يمثل الروائح الكريهة التي توجد في البحيرات الأولية. وفي هذا المقام كان شكله مخيفًا وهو الأسد. وبعد ذلك ارتبط بالشمس الشابة التي ولدت من النون وأصبح اللوتس رمزًا شمسيًا.
- **نخبت:** الإلهة النسر، إلهة الكاب في مصر العليا وحامية الملك والأم الأسطورية له، ترتدي دائمًا "للتاج الأبيض" الخاص بمصر العليا وكانت

ثنائياً مع وادجيت في بوتو، في مصر السفلى، وتمثل كلتاها الأرضيين. كانت أيضاً إلهة المواليد وارتبطت بحتحور، وتظهر على هذا في صورة النسر الحامي والبقرة أو الحية المجنحة حاملة التاج الأبيض.

- عين حورس: هي تعويذة كانت تمثل العين اليمنى أو اليسرى للإله، وهما (العينان) رمز للشمس والقمر، وكانت توضع على المومياءات كحماية.

- أونوريس Onuris: كان الرسول الذي بعث به رع إلى النوبة وكان على شكل أسد "شو" وذلك للسيطرة على الطابع الشرس للألوهة سخمت التي كانت تقوم بكمير النوبة بالحر والجفاف والظاعون - طبقاً لأسطورة الألوهة المتباعدة كانت للـ Paredro لتقنوت، وتقبط بيدها اليمنى على جبل ينزل من السماء، وهذه رابطة قديمة على صلة بما يسمى "محور العالم" Axismundi و "السلم الصاعد إلى السماء". شو وتقنوت هما أبناء أتم وكان يشكلان الجيل الإلهي الثاني ولول زوجين في الميثولوجيا المصرية، كان يطلق مسمى 'تاح أونوريس' على ما يشبه للقبعة على مفاص الرأس ولها أربعة ريش رأسية وثمان من الأورايوس Uraeus في الجهة وهذا يعني سلطان الإله على الأرضيين أي قوش ومصر، وهو ما استخدمه ملوك القوش.

- أونوريس: هو الإله الأكثر أهمية في الميثولوجيا المصرية ابتداء من الأسرة الخامسة. وكان في أصوله إلهًا غامضًا للنماء والزرع، وكان يموت ويحيا كل عام مع دورات الزراعة، وطبقاً للكتاب القدامى ترجع أصول أونوريس إلى أثيوبيا وكان على شكل أنمي، كما كان أبرز ألوهة التحضر، وربما جاءت به إلى النيل الشعوب المتوسطية الأثيوبية والأريتيرية التي قامت بغزو مصر وإبداعها في فجر العصر الحجري الحديث. كان أسود اللون كأنه الطمي، وكان مثل الشعوب التي يسودها. كانت إيزيس السوداء تراهقه في رحلته عبر النيل.

## رحلة إلى الشمال

تحول مع مرور الزمن إلى الإله الجنائزي الأكثر أهمية، وعانى الآلام والموت وكان يبعث من جديد كل شهر ديسمبر، أثناء الانتقال الخريفي. هو ابن جب الأرض، ونوت، السماء، وشقيق وزوج لإيزيس ووالد حورس. كان يضع الناج الأبيض الخاص بمصر العليا وكذا الناج "أسف" الشديد الانتشار بين الآلهة المرويين. وكان على صلة بمنهجر المركب والعمود Djed.

- **بتاح:** إله من الأولين، ارتبط بالهضبة الرئيسية، ظهر في ممفيس عاصمة مصر ومقر الملكية، وكان الساحر الذي خلق العالم المرئي بقوة للكلمة والفكر الخالق، أصوله غير معروفة وكان على شكل آدمي وكان تاجه بونيه (قلنسوة) أما باقي الجسد فهو كالمحيط، أي هيئة إله منفون؛ وربما كان مرتبطاً في جنوره الأولى بالطقوس التي كان يؤديها الأقدمون في كافة الثقافات الأفريقية، وبالتالي فهو يُجل على أساس أنه "الأقدم"، وكانت له روابط حميمة بالآلهة السابقة على قصة الخلق، أي النون ونونست، أي الفوضى والهوة المائية.

كان في آن معاً قناة الطاقة للاتصال بالآلهة "السمع الذي ينصت" للتفرعات ويقوم بعمليات العلاج والأثيري باستخدام اليد وأحياناً ما تراه وهو يصنع على رأسه ريشتين، كما ارتبط بالأقزام الحرفيين الذين كانوا بوسعهم استلهم شعوب من قلب أفريقيا. ربط اليونانيون بينه وبين الإله حيفاستوس Hefaistos الحداد الإلهي وكان عميد الحرفيين. كان من الآلهة المعبودة في النوبة، ورفيقته كانت الآلهة سخمت الشديدة الارتباط بالنوبة، والابن نقرتوم "اللوتس العطر".

- **سالتيروس:** إنها كائنات ميثولوجية مكرسة للموسيقى والرقص والشراب والجنس ظهرت لأول مرة في مصر أثناء الدولة الوسطى، وهي تابعة

للإله ست الأسدي الشكل، وبعد ذلك ارتبطت تلك الآلهة بالإله بس. ثم ظهرت بعد ذلك في الأساطير الفينيقية واليونانية والرومانية ترافق الإله ديونيسوس.

- إتباع حورس: هم الملوك المحاربون وجيوشهم، أي هؤلاء الذين تمكنوا من غزو مصر خلال القرون السابقة على عصر الأسرات وأدخلوا عبادتهم إلى مصر (كانون تورين Canon de Turin).

- سراجيس: إله سكندري ابتدعه بطليموس الأول في نهاية القرن الرابع ق-م. وظهر كإله يوناني يجلس على عرشه له ناحية ويضع قصعة الوفرة على رأسه، ويرتبط بأوزور - أبيس Osoro - Apis إله المصريين مع زيوس وهاوس وديونيسوس، كان اليونانيون هم الذين يقدمونه في الأساس وانتشرت عبادته أيضاً إلى جولة عبادة إيزيس في الإمبراطورية الرومانية.

- ست: إله مصري قديم. كان هناك ما لا يقل عن ثلاثة آلهة تحمل الاسم نفسه كلنها مختلفة، أهمها هو من حكم مصر العليا برفقة أخيه حورس. أما الثاني فهو عدو رع؛ والثالث هو عدو شقيقه أوزوريس وقاتله؛ وهذا جاء حورس ابن هذا الأخير وانتقم لوالده بأن هزم عمه. كان منذ الأسرات الأولى إله الخصوبة، وارتبط بالحمار الـ Itifalico. كان ينظر إليه أثناء الأسرات المصرية الأولى على أنه إله عادل وعالم يساعد البشر، لكن ابتداء من الدولة الوسطى نجده في سياقات أسطورية على شكل أسد عملاق وعدو شديد العداء للإنسان، وأطلق عليه في كتاب الموتى "الإله الأسد" ومع هذا هناك عبارة موازية تقول بأنه غير عدواني يهتم بالرقص والشرب والموسيقى والجنس وتحيط به مجموعة من الأتباع الـ Itifalico أي سانثيرو. وابتداء من الدولة الحديثة نجد مرتبطاً بالشر

## رحلة إلى السودان

في الأساس وبالأراضي الحمراء وهي الصحراء وتغير شكله ليكون في النهاية على شكل إنسان له رأس كلب، وقد تمثل اليونانيون هذا الشكل الأخير ورأوه مُبَيِّهاً لـ Tifon.

- تَفَنُوت: هي إبنة أثورم وكانت على شكل حية في البداية، وكانت حية برأس أسد، أو على شكل لبؤة، وبشكلها البشري كانت عبارة عن امرأة جالسة لها رأس لبؤة فوق رأسها الحية Uraeus. كانت تمثل الرطوبة تحت الأرض وكذلك إفرازات المهبل والمني والريق بينما كان شقيقها وزوجها الأسد مثو يمثل الهواء، يشكلان معاً الزوجين الإلهيين الأولين في الميثولوجيا المصرية، وأبنائهما هما جبب إله الأرض ونوت إلهة السماء.

- تيفون: عملاق يوناني جرى ربطه بست.

- تيتانس Titanes أو العمالة: هي كائنات ميثولوجية يراها اليونانيون على أنها أوائل سكان الأرض قبل وجود للبشر الذين هم من نسلها، وبعد أن حكموا على الأرض حاربوا آلهة الأوليمب الذين تمكنوا من هزيمتهم بمساعدة هرقل وقضوا عليهم، وربما تمثلهم المصريون على أنهم من عينة ست العملاق الأسدي الشكل وصاحب العضو الذكري العملاق والذي يحيط به أتباعه.

- تريمورتى أو إسفارا: هو إله هندي يظهر في ثلاثة وجوه لرأس واحد وهي الآلهة الهندوسية فيسنو وبراها وشيفا، وهي الجوانب الحامية والإبداعية والتنميرية للإله الواحد "براهمان" كان الآلهة الثلاثة لخم أربعة أزرع، حيث كان فيسنو الذي لم يخلق وهو الكون في عفوائه وكان يجلس على زهرة لوتس هي Sri- Laksmi، وهناك حية ذات ألف رأس تدعى أنانتا Ananta أي للخلود، كانت تطفو فوق مياه المحيط الأزلي، وقد نمت زهرة لوتس في صرعتها، وهي القوة الحيوية التي جلس عليها براهما تساحر الخالق.

كان ذلك الإله "قديمًا" هو رب الكلمة والكتب المقدسة، وهو Vedas المباشرة على الخلق؛ ومن خلال التأمل والتضحية خلق السماء والأرض والغلاف الجوي والفراغ و Pwusa أي الكائن الأولي الذي تجزأ وخلق منه الكون الملموس والعالم الروحي. وبالنسبة لشيفا فهو الجانب التدميري في الطبيعة، كان زاهداً وسيداً للرقص الصوفي والإيقاع الكوني والحرب والسلام والشفاء. وبصفته إله الخصوبة كان يظهر فوق العضو الذكري Lingam العمود الذي يرجع إلى المنهريس Menhires القديم.

**Uraeus**: الآلهة الحية على شكل كوبرا ثائرة ومهددة وهي عسین رع الذي نعى. كانت توضع فوق التيجان الملكية لحماية الفرعون وكان ذلك بفضل طاقاتها السلبية الأثرية، تحفر لنفسها مكاناً في المعابد والجبانسات الملكية.

استغرقت الرحلة التي قمنا بها، يحيى وبير وأنا، السودان الفترة من 3 إلى

28 نوفمبر لعام 2003.

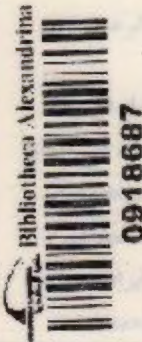




## كتب الدار العربية للنشر والتوزيع

Pr. Ghada Ahmed	Evaluating the Teaching of the four Language Skills in the Third Level of the Sudanese Secondary School
Dr. Manal A.LDiab	Men in Northern Sudan Their Knowledge of and Attitudes
Pr. Elzaeim Alaza	Public Health Hazards Associated with Fruits of Gongleiz

- |                      |  |
|----------------------|--|
| أ.د. سيد أحمد العتيق | - أسواق أم درمان   |
| د. شوقي عطالله       | - التطور التاريخي لمشكلات الحدود السودانية                                     |
| عبدالفتاح محمد       | - الدور السياسي للزعيم إسماعيل الأزهرى   |
| أ.د. سيد أحمد العتيق | - السلطان الشهيد على دينار   |
| د. سيد أحمد عثمان    | - العلاقات السودانية المكية عبر التاريخ  |
| د. محمد عيسى عليوة   | - العلاقات بين الرزيقات ودينكاموال   |
| ب. أحمد إبراهيم      | - الهوية السودانية عبر التاريخ   |
| أ.د. محمد سعيد       | - أوراق يومية  |
| د. سيد أحمد عثمان    | - دارفور الحق المر   |
| عفاف محمد            | - دور الطوائف الدينية في العمل السياسي في السودان                              |
| منى أحمد             | - دور المرأة السودانية في الحراك الإجتماعى والسياسى (1900م - 1969م)            |
| د. دولت يوسف أحمد    | - دور المرأة السودانية في الحراك الإجتماعى والسياسى (750 ق م - 50م)            |
| إلهام                | - دور برامج التليفزيون غير السودانية في تغير القيم الاجتماعية للمجتمع السودانى |
| جوليت                | - علاقات دولة الفونج ببلاد العرب   |
| د. سيد               | - مصر والقرن الأفريقى في القرن التاسع عشر الميلادى                             |
| ب.اح                 | - معهد بحوث ودراسات العالم الثالث نورية رقم (4)                                |
| د. عفا               | - موسوعة الرموز والشخصيات الوطنية السودانية                                    |
| ب.اح                 | - موسوعة الرموز والشخصيات الوطنية السودانية 1969-1900                          |
| د. إيه               | - نسق الأسرة السودانية   |



لدار إصدارات أخرى في مجالات علوم التربة والأراضى والحشرات والميكروبيولوجى والوراثة وعلوم وتكنولوجيا الأغذية والعلوم الهندسية والبيئى والعلوم البحتة الأخرى